

جمعية التارخ الحديث

تارخ أوربا

في العصور الوسطى

القسم الثاني

تأليف

ه. ا. ل. فشر

نقله إلى العربية

محمد مصطفى زيادة

ابراهيم احمد العدوي

السيد الباز العربي

سحبه الباحث عماد أمير ونسقه
جروب معين التاريخ لأهل اتاريخ

منزله الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

جمعية التارخ الحديث

تارخ أوربا

في العصور الوسطى

القسم الثاني

تأليف

ه. ا. ل. فشر

نقله إلى العربية

محمد مصطفى زيادة

ابراهيم أحمد العدوي

السيد الباز العري

منزله الطبع والنشر

دار المعارف بمصر

٢٠
٥٠

مكتبة الأنجلو المصرية
١٩٥٠

تصدير

شاعت الصدفة الحميدة أن أعدّ معظم القسم الأول من هذا الكتاب بالعراق ، وكذلك شاعت أن أنتهى من إعداد هذا القسم الثانى منه فى الولايات المتحدة الأمريكية . ومنع حمدى لهذه الصدفة المزدوجة انى تأكدت بها من شىء اسمه المنظور التاريخى عند المؤرخين ، وهو ما تعلمته وخبرته واطمأنتت إليه منذ سالف السنين . ذلك أن المؤرخ لا يستطيع أن يتجرّد من حصيلته الثقافية ووضعه الجغرافى ، أو يتقمص بديلاً أجنبياً عن أحدهما أو كليهما ، مهما طرأ عليه من طارئ عابر وقتاً ما ، لأن ثقافته وجغرافيته تتكون منهما نافذته ، أى شباكه الذى يستشق منه المعنويات والماديات من أصناف المعرفة والحياة اليومية . وإذا أطل هذا المؤرخ على العصور الوسطى الأوروبية من نافذة مصرية - مثلى - ، فلأنما يطل عليها من هذه النافذة الروحية المادية المخلوقة له ، أو المخلوق هو لها ، بعبارة أدق . وهذا المؤرخ لا بدّ لذلك مختلف النظرة إلى تلك العصور الوسطى عن مؤرخ أمريكى ، أو روسى ، أو ألمانى ، أو فرنسى ، أو إنجليزى ، مثل مؤلف هذا الكتاب . ذلك لأن كلاً من أولئك المؤرخين له نافذته الخاصة به ، وليس معنى هذا أن اختلاف النوافذ يغيّر الحقائق التاريخية ، أو يعدّل فى ترتيبها التاريخى ، بل معناه أنها تغيّر النظرة إليها تغييراً زعيماً بعرض أصناف الحقائق الثابتة عروضاً مختلفة .

وفيهمنى القارئ تمام الفهم وهو يتصور معى أن التاريخ كله سجل أمين لأخبار الدول ، والأمم والشعوب الإنسانية ، التى تبعثرت فى أجزاء الكرة الأرضية ، وسكنت إليها ، وأن المؤرخ لا يستطيع رؤية هذه الأجزاء الجغرافية رؤية متساوية ، من وضع جغرافى واحد ، وأنه كذلك لا يستطيع رؤية تواريخ هذه الأجزاء رؤية تاريخية متساوية ، من وضع ثقافى واحد .

وفي مقدمتي للقسم الأول من هذا الكتاب بعض البرهان التطبيقي على سلامة هذا القول ، إذ أشرت إلى اهتمام المؤلف في هذا القسم الأول بالنواحي الأوروبية الغربية من العصور الوسطى ، مع اجتزائه باللازم المكمل لمنهجه من تاريخ الدول الأوروبية الشرقية ، أو الجنوبية الشرقية ، أو الشمالية . وأشرت هنالك كذلك إلى التزام المؤلف هذا المنهج ، احتراماً منه للمنظور التاريخي ، ولقواعد التنسيق والتوزيع والتركيز في شرح أركان التاريخ الأوروبي الغربي في العصور الوسطى ، لقارئ غربي ، وهو أقصى ما استهدف من نافذته الأوروبية الغربية . والفصول التي يحتويها هذا القسم الثاني الذي بين يدي القارئ تطبيق أكثر برهاناً وتوضيحاً لما أشرت إليه ، في مقدمتي للقسم الأول .

وهنا تنور مسألة في عقل المصري الشرقي ، الموكل في بعض عمله - مثلي - بتدريس العصور الوسطى الأوروبية . هل يسير في دراسة هذه العصور الوسطى الأوروبية على وتيرة ما يقوم به الأساتذة في جامعات أوروبا - الغربية أو الشرقية ؟ ثم هل يلتزم أولئك الأساتذة الأوروبيون - على اختلاف بلادهم وقومياتهم - وتيرة واحدة في دراسة العصور الوسطى الأوروبية ، أم لهم وتأثر مختلفة في فرنسا عنها في ألمانيا ، وفي إنجلترا عن كل من هاتين الاثنتين ، وفي إيطاليا عن كل من أولئك الثلاث ، وهكذا . الجواب عندي هو ما استفتحت به هذه السطور ، وهو جواب استغرق شرحه كتاباً طلياً لمؤلف بولندي معروف (Halecki : Limits and Divisions of European History, 1950) وأفاض في دعمه مؤرخ من رومانيا قبيل الحرب العالمية الثانية (Bratianu: Nouvelle Histoire de L'Europe au Moyen Age, Bucarest, 1938) وفي مجلة رسالة الإسلام التي تصدرها دار التقريب بالقاهرة جزء من مقالة في هذا المعنى ، ولكنني لست مستطيعاً أن أرشد إلى هذه المقالة على نحو ما فعلت في المرجعين السابقين ، لنقص مجموعتي من هذه المجلة .

الخلاصة أن دراسة العصور الوسطى الأوروبية - الغربية والشرقية - تستلزم في مصر نافذة مصرية ، وهي نافذة ذات وضع جغرافي فريد ، وتركيب

حضارى منقطع النظر ، على قول المؤرخ توينبى (Toynbee) . وهاتان الصفتان أوضح أهمية فيما سوف أشير إليه هنا خاصاً بدراسة التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، من أهميتهما فى دراسة العصور الوسطى الأوربية فى مصر ، وهو ما نحن بصددده هنا . وتتلخص هاتان الصفتان فى كون مصر جزءاً من مجتمع مزاجه الرسمى العام لإسلامى ، منذ ألف ومائتين من السنين ، وفى كون هذا الجزء الاستراتيجى من المجتمع الإسلامى - أى مصر - أقرب جغرافياً وأعظم إغراءً سياسياً للمجتمع المسيحى الأوروبى ، من سائر البلاد الإسلامية الأخرى . ومصر لذلك أكثر تعرضاً دون غيرها من هذه البلاد الإسلامية لما يرتكض فى أحشاء المجتمع الأوروبى المسيحى من حركات توسعية - سياسية أو اقتصادية ، أو دينية . ومصادق ذلك فى العصور الوسطى الأوربية واضح مثلاً فى الحروب الصليبية ، وفى تفكير زعمائها الأولين والآخرين فى الاستيلاء على مصر ، وهو واضح كذلك فى تفضيل بعض الصليبيين أن يبقوا أصحاب مدينة دمياط سنة ١٢٢٠ م ، عن أن يتعوضوا عنها مدينة بيت المقدس نفسها ، كما هو واضح فى تركيز التجارة الأوربية فى الشرق بميناء الإسكندرية ، معظم العصور الوسطى . وعلى هذا فالمؤرخ فى مصر - والشرق عموماً - لا ينبغي له حين يدرس العصور الوسطى الأوربية أن يدرسها أوربية المرمى أو المغزى ، أو أن يحكى فى تدريسه قواعد التوزيع والمنظور الأوروبى . بل ينبغى له أن يظل على الموضوع كله من نافذته المصرية ، وهو على أية حال لا يستطيع غير ذلك ، كما قدّمت هنا .

أما أهمية هذه النافذة المصرية فى دراسة التاريخ المصرى فى العصور الوسطى ، فهى - كما قلت - واضحة كل الوضوح ، ولا سيما إذا ذكرنا أن بعض المؤلفات العربية فى تلك العصور يبدو مسدود النافذة أو معدومها ألبتة ، ما عدا باب خلقى واطى ضيق لا تدخل منه المعرفة ، ولو دانت قطوفها ، ولا تخرج منه نظرة إلا ساذجة حائرة من وراء حجاب ، لرؤية حوادث الخلافة الإسلامية فى دمشق أو بغداد ، أو لرؤية حوادث العالم الخارجى وهى

تقرب اقتراباً غامضاً غير مفهوم ، أو غير جدير بالفهم . الواقع أن مصر من دون بلاد الشرق الأوسط كله ، وبلاد الكرة الأرضية أجمع ، واسطة جغرافية بين مجموعة القارات القديمة (والحديثة كذلك) ، وهى مطلة على بحرين طويلين غير عريضين ، واصله بين قارتين شاسعتين ، عائشة وأخواتها حول واديين عظمين فى أفريقيا وآسيا ، وهما واديان فيهما زرع وفير ، وإمكانات صناعية كثيرة ، حتى فى العصور الوسطى . ومن هذا الوضع الجغرافى وحده يتضح أن مصر لا تستطيع — ولا تستطيع مراحل تاريخها — أن تكون وحدة مغلقة . ثم إن التركيب الحضارى المصرى أشبه شئ بوثيقة تاريخية (Palimpsest) كتبت الأجيال أخبارها على صفحاتها جيلا بعد جيل ، وهى فى أخبارها الإسلامية منذ أواسط القرن السابع الميلادى تنطوى فيما تنطوى على إيزنطيات مشهود بها فى بعض أوراق البردى العربية ، وفى النظم والمباني الفاطمية ، كما تنطوى على أصول قبطية لا يستهان بها ، فضلا عن إيرانيات وسودانيات وتركيات قبل العثمانيين وبعدم . وهذه وتلك وغيرها شواهد مادية لا سبيل إلى إنكار وجودها فى تكوين النافذة المصرية التى يطل منها المؤرخ ويستضيء ، وهوى يكتب تاريخ مصر العصور الوسطى . على أن هذا كله ليس من موضوع تصدير لكتاب فى تاريخ العصور الوسطى الأوربية ، ولا معنى للاستطراد فيما ليس من صميم هذا الموضوع .

وسوف يجد القارئ فيما يجد بهذا القسم الثانى من هذا الكتاب فصلا يجمع دانتى الشاعر الإيطالى ، وتوما الأكوينى فيلسوف المسيحية فى العصور الوسطى ، وأولهما صاحب الكوميديا الإلهية التى رجح بعض المستشرقين استيحاء موضوعها من رسالة الغفران لأبى العلاء المعرى ، وثانيهما صاحب القول بأن العقل والإيمان متوافقان ، وهو القول الذى استفهم عنه توما الأكوينى فى فلسفة ابن رشد حتى فهمه ، ثم قلده فيه الإمام أبى حامد الغزالى . وهناك فصل عنوانه "حرب المائة عام" ، وهى الحرب التى تدل حوادثها على قديم استماتة الإنجليز فى احتلال بلاد غير بلادهم ، لولا نهضة الفتاة الفرنسية جان دارك ، لإجلاء الجيوش

الإنجليزية عن أرض فرنسا . على أن هزيمة الإنجليز في هذه الحرب لم تعلمهم شيئاً سوى انتظار الفرص المستقبلية للتملك على ما ليس للأمة الإنجليزية من أراضي القارات الخمس ، منذ القرن السادس عشر الميلادي حتى العصر الحاضر . وفي الفصل الذي عنوانه "الناقدون والمصلحون" إشارات واضحة إلى مطالع الإصلاح الديني المسيحي أواخر العصور الوسطى ، وهي المطالع التي بشرت بالإصلاح البروتستانتي في غرب أوروبا ، كما بشرت بالقومية في مختلف الأقاليم الأوروبية . ويلي ذلك فصل في إسبانيا العصور الوسطى ، حين بدت الأندلس الإسلامية منبع المعرفة والحضارة الزاهرة ، وهو فصل طافح بالحروب بين القومية الإسبانية المسيحية والمسلمين ، ومن هذه الحروب تفرّعت فكرة الحروب الصليبية العامة . وفي الفصل الذي عنوانه "روسيا العصور الوسطى" ، ألم المؤلف بجميع الأصول البشرية التي دخلت في تكوين أمة الروسين ، كما شرح أصول سياستهم الدينية المسيحية ، بعد سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين . ثم جعل المؤلف من نشأة الدولة العثمانية واستيلائها على العاصمة البزنطية فصل الخاتمة للعصور الوسطى ، وأعقب هذا الفصل بوضع صفحات دالة على الآفاق الجديدة التي أشرقت منها العصور الحديثة .

ويتخلل فصول هذا القسم الثاني بضع خرائط تاريخية رأيتُ الاستعانة بها ، إضافة إلى ما بالأصل الإنجليزي من الخرائط ، لتوضيح ما لم يرَ المؤلف ضرورة توضيحه لقارئة الأوربي الغربي ، ولتعويض ما احتاجته بعض الفصول من حواش تفسيرية طويلة . ومع هذا لم يستغن المتن عن عدد من الحواشي التي رأيتُ إضافتها كذلك إلى كثير من الصفحات ، من باب التعريف بالمصطلح التاريخي الجديد على القارئ العربي ، أو التنبيه على نص من النصوص التاريخية ، كما فعلت بمواد المايجنا كارتا الواردة ترجمتها في المتن ، أو من باب الإشارة إلى بعض المراجع التي يشتهي القارئ أن يستزيد منها حين الرغبة في الاستزادة . وإمعاناً في توفير ما يمكن توفيره للقارئ العربي من مادة توضحية مساعدة ، رأيتُ كذلك أن أضيف إلى قوائم الدول والملوك ملاحق خاصة بالدولة

البيزنطية ، والدولة التركية العثمانية ورثتها فى التاريخ ، وهذه القوائم واردة فى آخر هذا الكتاب ، من غير تمييز بين ما هو منقول من الأصل ، وما هو مضاف إليه ، على غرار ما اتبعت فى انخراط .

وبعد ، فلا جديد فى قول بعض القارئین المنتفعين بهذا الكتاب أنه ترجمة وعمل غير مبتكر ، إلا نسبة إلى مؤلفه ، وأنه ليس للنقل من لغة إلى أخرى سوى شكر أتر قصير العمر ، أو ثناء فى ابتسامه مختصرة . على أن ما هنالك من شكر أو ثناء ليس مصدره بعض القارئین المنتفعين بهذا الكتاب وأشباههم فحسب ، بل كاتب هذه السطور وشريكاه الأول والثانى فى نقله إلى صيغة عربية . ذلك أن هذه الصيغة التى خرج الكتاب فيها تطلبت قراءة معظم فصول هذا القسم الثانى — وفصول القسم الأول قبله كذلك — فى مراجع العصور الوسطى المطوّلة ، قبل البدء فى عملية الترجمة ، وحسبنا شكراً أو ثناء فوزنا بهذا القدر من المطالعة ، واستطاعتنا أن نسدّ بهذا الكتاب فراغاً فى المكتبة العربية .

وأسجل هنا شكرى إلى صديقى شوق ضيف لقيامه على قراءة هذا القسم الثانى وتعديل بعض ألفاظه ، وإلى صديقى زكى نجيب محمود لقراءة الصفحات الخاصة بفلسفة توما الأكوينى ، وتعديل بعض عباراتها ، وإلى صديقى حسن عثمان لإمدادى بأسماء بعض المراجع الخاصة بالشاعر الإيطالى دانتي . وأسجل هنا كذلك شكرى لصديقى أحمد عيسى ، لإنجازه نصف فهرس الكتاب . ثم إلى مدين بشكر ختامى لإدارة المطبعة بدار المعارف ، حيث لقيت من المعونة الفنية ما ساعدنى على إخراج هذا الكتاب فى المستوى الجدير بالقارئ العربى الجديد .

محمد مصطفى زيادة

جمادى الآخرة سنة ١٣٧٣ هـ

فبراير سنة ١٩٥٤ م

محتويات القسم الثاني

صفحة	تصدير
هـ - ى	قائمة الفصول
ك	قائمة الخرائط
ل	
قادة الفكر في أوروبا الكاثوليكية ٢٦٧ - ٢٧٨	الفصل السابع عشر
٢٧٩ - ٢٨٠	ملحق خاص بالفصل السابع عشر
نمو الملكية في فرنسا وإنجلترا ٢٨١ - ٣٠٣	الفصل الثامن عشر
بلاد الغال واسكتلندا وأيرلندا ٣٠٤ - ٣١٢	الفصل التاسع عشر
٣١٣ - ٣٤٢	الفصل العشرون
حرب المائة عام	
٣٤٣ - ٣٥٤	الفصل الحادى والعشرون
الألمانىون والسويسريون	
٣٥٥ - ٣٨٤	الفصل الثانى والعشرون
الناقدون والمصاحون	
٣٨٥ - ٣٩٨	الفصل الثالث والعشرون
إسبانيا العصور الوسطى	
٣٩٩ - ٤١٨	الفصل الرابع والعشرون
روسيا العصور الوسطى	
٤١٩ - ٤٣٨	الفصل الخامس والعشرون
الحكام المستبدون في إيطاليا	
٤٣٩ - ٤٥٩	الفصل السادس والعشرون
الأتراك العثمانيون	
٤٦٠ - ٤٦٥	الفصل السابع والعشرون
آفاق جديدة في العصور الوسطى	
٤٦٧ - ٤٨٥	ملاحق
٤٨٧ - ٥٠٤	فهرس

قائمة الخرائط

صفحة

٣٢١	أوروبا سنة ١٣٨٠ م
	فرنسا (١٢٧٣ - ١٤٩٤ م) لبيان امتداد
٣٣٥	الملكية الفرنسية أواخر العصور الوسطى
٣٤٩	سويسرا في القرن الرابع عشر الميلادى
٣٩٣	إسبانيا الإسلامية
٤٠٩	روسيا وشرق أوروبا ، سنة ١٢٥٠ م
٤٢٤	إيطاليا في القرن الخامس عشر الميلادى
٤٤٠	الدول اللاتينية في الأراضى البيزنطية سنة ١٢١٤ م
٤٥٥	الدولة العثمانية سنة ١٤٨١ م

الفصل السابع عشر (١)

قادة الفكر في أوربا الكاثوليكية

القديس أوجسطين - سيجر البرابانتى - ألبرت الكولونى العظيم -
توما الأكوينى - دانتى أليجيرى .

* * *

ظلت العقيدة المسيحية فى المجتمع الأوروبى الغربى حافظة لما انطبعت به من تفكير القديس أوجسطين، حتى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى . واستمرت مدينة الله ساطعة النور لا كمدينة الإنسان ، وبدا الخلود حقيقة ماثلة للعيان ، واستعلت الفضيلة على الخطيئة بالدوام . وفى ذلك المجتمع الأوروبى الغربى اعتقد رجال الدين دون غيرهم من الناس أنهم يشتركون وملأثة السماء فى الرضا الأبدى ، فضلا عما استقام لهم من تأدية المعجزات الناشئة من واجباتهم وصلواتهم الدينية . غير أن عدداً من الحركات الفكرية والروحية الجديدة أخذت فى الظهور أثناء ذلك القرن ، وتولى بعض الناس من مختلف الطبائع والعقول شعور بأن ما جاء فى أقوال القديس أوجسطين من مفارقات ومقارنات ومنباينات ليس دائماً قضايا مسلّمة مطلقة ، وأن من الجائز أن يدرك العاصى الآثم من الرحمة ما يبلغ به مرتبة الرضا وهو على قيد الحياة . وأن الروح أهم من الأوضاع الظاهرية . وأن الإيمان والعقل أهم من شعائر القداس وطقوس الكنيسة . ألم يقل يواقيم الفلورى المتوفى سنة ١٢٠٢ م بأن المرحلة الأخيرة فى هذه الدنيا سوف تبدأ فى الظهور حين تحل الكنيسة الروحية التى تنبع من روح القدس محل الكنيسة البابوية التى ترجع إلى عصور تالية لعصر المسيح ، فلا تعود ثمة حاجة للبابوات والرهبان والطقوس الدينية ، بعد أن يعمر الروح المقدس قلب كل إنسان بالإيمان . وفى وسط الحماسة الدينية التى

(١) ترتيب الصفحات والفصول فى هذا القسم الثانى من كتب تاريخ أوربا فى العصور الوسطى تابع لترتيب القسم الأول منه ، وهوكذلك من مطبوعات دار المعارف ، بالقاهرة . انظر صفحة محتويات القسم الأول حاشية ١ . زيادة .

خلقتها الحركة الفرنسيسكانية^(١) سرت هذه الأحلام وأشباهاها في إيطاليا ، وبعثت في الإخوان الفرنسيسكانيين بالذات أوسع الآمال وأتقن الأمانى .

وبينما الحال الدينية على هذا المنوال ، في غرب أوربا ، وصل بعض الفلاسفة في تلك العصور ، من طريق آخر ، إلى نتائج لا تقل خطورة عن النتائج المتقدمة في خطورتها على قدسية الهيئات الكنسية . ذلك أن أرسطو أضحي بفضل المسلمين معروفاً تمام المعرفة ، مدرسوياً أوتقن الدرس لأول مرة في أوساط أوربية . فغدت نظرياته مشغلة المشاغل بجامعة باريس — وهى النظريات التى تنادى بأزلية الزمن وأبديته ، وقدم العقل ، ووجود العقل الإلهى عند الإنسان . ومن ثم قامت طائفة من الأرسططالين أمثال سيجر البرابانتى (١١٥١ م) ومدرسته تدعو إلى مبادئ جريئة مثل القول بأن العقل الإنسانى أزلى ، وهو — أى العقل — مصدر ما شاء الخالق للمخلوق من كمال ، وأن الإنسان الذى يدرك سواء السبيل يكون مصيره الجنة والنعيم المقيم . وأصاب هذان الميدان بالذات صميم البابوية والسلطان البابوى ، بما فى أوطما من كفاية الإيمان الفردى للدين ، وبما فى ثانيهما من كفاية العقل البشرى لفهم أسرار الكون . غير أن روح المحافظة الدينية لم تلبث أن تغلبت على هذين المبدئين . حين استطاعت الكنيسة أن تكبح من جماح الروحانية الفرنسيسكانية والميتافيزيقية الأرسططالية وسيكلوجيتها ، وأن تربطهما جميعاً إلى عربتها بحبل من الدين مكين . لكن غلبة الكنيسة نهائياً على هذه الأزمة الخطيرة ، وإنكار علماء باريس سنة ١٢٧٧ م أقوال سيجر ، ونهوض اللاهوتيين للبرهان على أن نظريات أرسطو لا تتعارض وقواعد الإيمان — كل ذلك لا ينبغى أن يؤدى إلى الاعتقاد بأن حركة التفتح الفكرى والنهوض العقلى للذين امتلأ بهما القرن الثالث عشر الميلادى لم يكونا شيئاً مذكوراً . ذلك لأن الحركة اصطبغت بجميع ألوان الخطر ، إذ دلت على أن الفكر الأوربى آخذ فى السير حثيثاً ، وأن أصفياء الضمائر من المتقين لم يقفوا جامدين . ومع أن السلطة البابوية لم تلق وقتذاك من النهدى القادح مثلما لقيت زمن الانقسام الدينى الكبير أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، فإن كثيراً من بواذر الإصلاح الدينى لم تكن بعيدة عن الأبصار . والواقع أنه لو لم تقع حرب المائة عام — وهى الحرب التى عوقت الفكر الأوربى عن النهوض ، وأخترت

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٣٦ - ٢٣٩ . زيادة .

التطور الثقافي بين أرقى الدول بغرب أوروبا - لاستطاعت القوى الجانحة نحو الحرية في التعليم والسياسة أن تتقدم خطوات جديدة في سبيل زحفها الطويل .

أما الذي حدث فعلاً منذ بدت الحركة الفكرية الأرسططالية واضحة . في أفق الحياة الأوروبية ، فخلاصته أن ألبرت الكولوني العظيم (١١٩٣ - ١٢٨٠ م) وتلميذته توما الأكويني (١٢٢٦ - ١٢٧٤ م) انبريا والحركة في كفة الميران ، وألقيا عقليتهما الفحلة في جانب الكاثوليكية . استغل هذان الدومنيكيان - وأولهما ألماني من غرب ألمانيا ، وثانيهما إيطالي من جنوب إيطاليا - جميع ما تولد في المجتمع الأوربي من نهضة باكتشاف مؤلفات أرسطو في الفيزيكا والميتافيزيكا ، وأخذوا يبنيان حول الكنسية الكاثوليكية سياجاً دفاعياً قوياً من الفلسفة . وكان ألبرت شخصية موسوعة من المعارف التي تأخذ الأبواب بضمخاتها ، وكان توما أمضى ذهناً وأبعد عمقاً وأوضح منهجاً . فرحباً بما جدّ على المجتمع الأوربي من المعرفة والعلم ، وأعلننا أن الفلسفة الوثنية التي تعتمد أكثر ما تعتمد على التجربة لا الإيمان يصح أن تتفق على الرغم من ذلك في جوهرها وأركان العقيدة المسيحية . وعكف الرجلان على دعم أقوالهما كل على شاكلته . هذا بما أو - من غزارة في العلم ، وذاك بما اشتهر به من قوة الحجة ، فضلاً عما استقام لكليها من شدة التمسك الديني وسمو الأخلاق ؛ وما زالا يعملان حتى أصاخ لهما المفكرون من معاصريهما . ورضخ الفكر في غرب أوروبا لهجومهما المشترك .

وسرّ ذلك كله أنه لم يكن من المنتظر في ذلك العصر أن يدنو الفيلسوف بفلسفته من أبواب العقائد الدينية أو يتناولها بالنقد العقلي المطلق ، في غير قيد من الإيمان ، إذ قال توما بأنه لما كان كل من العقل والإيمان هبة من هبات الله ، فهما بالضرورة موافقان ، وربما تجاوزت الحقائق التي نزلت على الأنبياء والرسل حدود العقل ، ولكنها لا تعارضه ولا تناقضه ، لأن الإيمان هو التسليم العقلي الصادر عن الإرادة ، بما يترأى ممكن الحدوث محمود التصديق . ثم إن جميع ما ينتزل على الأنبياء من الحق ، وهو حق لا يدركه العقل ولا ينقضه ، ليس إلا جزءاً مكتوباً من كل لم يكتب ، مما استمدته الرسل من الروح القدس في صورة قواعد وأحكام لرعاية أحوال الكنيسة . وهذه القواعد والأحكام التي لم تسجلها الأقلام هي التي تبرر كثيراً من الطقوس التي لم تنصّ عليها الأناجيل ، مثل عبادة الصور المقدسة . وصفوة القول أن جميع ما كان معتبراً بين الناس من العقائد الأساسية

وقتذاك لم يثر شيئاً من الشكوك الفكرية في نفس القديس توما ، فالإيمان بالتحول الكامل في العشاء الرباني مثلاً إيمان بمعجزة يستطيع العقل أن يردّها إلى أصولها ، وكذلك الإيمان بعذاب النار للكافرين خالدين فيه أبداً ، لأن الله أدخل السرور والفرح إلى قلوب الملائكة والقديسين حين جعلهم يتفكرون في عدائته ويتأملون فيما اجتنبوا من الشرور التي استحق النار بسببها الكافرون . ثم إن الاعتقاد في العقاب الأبدي بنيران جهنم ، وهو الاعتقاد الذي أخذه المسيحيون عن اليهود منذ القرن الأول الميلادي ، لم يفقد شيئاً من مكانته الأولى في القلوب على مرّ الأجيال والقرون .

ولهذا كله قال القديس توما إن الإيمان الصحيح في الدنيا هو السبيل الوحيد للخلاص ، والنعيم المقيم في الآخرة ، وإنه لا خلاص بغير الكنيسة (Extra ecclesiam nulla salus) . فلا خلاص لغير المعمدين ، ولا للمذنبين والآثمين ، إلا بعد الاعتراف والتوبة والغفران على يد قسيس من القساوسة ، أى أن شارب الخمر الذي لا يستطيع الكنيسة أن تدركه بغفرانها ، أو لا يستطيع هو أن يدركها بتوبته ، يكون مصيره الخلود في عذاب النار . غير أن الأسس الدينية التي تراءت لهذا القديس الدومينيكاني — وهو الذي لم يأل جهداً في التوفيق بين الإيمان والعقل ، — لم تكن كلها ظلاماً وعذاباً ، بل تخللتها ألوان من الجمال الوضاء ، فضلاً عن القداسة الطاهرة والفضيلة ، للدلالة على عدل الخالق ورحمته وجلاله . ومن هذه صور الملائكة التي أشار إليها أرسطو في معرض التفرقة بين الصورة والمادة ، وأمعن توما ^(١) في وصفها إمعان المطنب المتحمس ، حين جعل منها ميداناً للجدل الفلسفي الذي تطمئن إليه القلوب .

هذا ما كان من موقف الأخوين الدومينيكانيين ألبرت الكولوني العظيم وتلميذه توما الأكويني . وهناك شخص ثالث يتألق معهما في سماء الكاثوليكية في القرن الثالث عشر الميلادي ، وهو شاعر من أبناء مدينة فلورنسا بإيطاليا . وكانت إيطاليا وقتذاك تعاني أوجاع الرعدة السياسية التي اقتلعت جذور الموهنشتافن ، وأدت إلى تأسيس البيت الأنجوي الفرنسي في نابولي وصقلية بفضل البابوية . وفي أثناء تلك الرعدة العنيفة مالت فلورنسا إلى الجانب البابوي — وهي المدينة التي بلغ سكانها وقتذاك ثلاثين ألفاً ، واشتهرت بالتقدم الصناعي والديمقراطية ، فطردت

(١) انظر ما يلي هنا ، ص ٢٨٠ . زيادة .

نبلاءها الجبلينيين^(١) أنصار الإمبراطورية ، وغدت خاضعة لسيطرة الجولفيين ، وهم حزب البابا ، بعد أيام صاحبة من حيرة الحكم بين الفريقين . ثم طرأ على كتلة الجولفيين وحكمهم طارئ منشؤه نزاع عائلي انتقل إليهم من مدينة بستويا (Pistoia) ، فزق شملهم ، وجعلهم حزبين متنافرين ، هما الجولفيون البيض والجولفيون السود . وليس لغلبة السود على البيض بمساعدة البابوية والفرنسيين من أهمية سوى أن الشاعر الفلورنسي دانتي أليجييري (١٢٦٥ - ١٣٢١ م) أمسى في زمرة الضحايا الذين سيقوا إلى المنفى نتيجة تلك الغلبة الحزبية . وكان دانتي وقتذاك في السادسة والثلاثين من عمره ، وله من الشعر العاطفي باللغة الإيطالية قصائد جعلته في نظر المعاصرين شاعراً عبقرياً ، وهي القصائد التي أطلق عليها اسم ديوان الأغاني (Canzoniere) ، ومنها قصيدته الحياة الجديدة (Vita nuova) التي خلد فيها هيامه بمحبوبته بياتريس . وفي كثير من العنف والجدّ اللذين اتصف بهما طول حياته ، انغمس دانتي قبل نفيه في المنازعات السياسية التي اكتظت بها فلورنسا ، وأسهم في حكومتها بنصيب حين صار عضواً من أعضاء نقابة الثقافة والآداب (Priors of the Arts) ، ورأى فيه جيرانه وزملاؤه رجلاً متكبراً كتوماً ، ذووباً على العمل ، شديد الإخلاص لوطنه ، حتى إذا ماتت محبوبته بياتريس سنة ١٢٩٠ م ، بات هذا الزميل رفيق حزن مستديم .

غير أن المنفى أنقذ دانتي من مخالب السياسة الفلورنسية ، وأطلق عقله للتفكير والتأمل في غير انقطاع ، فغدا منهوماً في قراءاته ، عميقاً في مطالعته ، وسحرت قصص الفروسية وأشعار البروفنساليين خياله ، دون أن تملأ شغاف قلبه ، فانتقل عنها وتشبع بفلسفة توما الأكويني ، وتاريخ هروشيوس (Orosius) ، وفلك بطليموس ، وملاحم فرجيل وستاتيوس . ومن ثم أخذ دانتي يكتب في مسائل الأسلوب واللغة والعروض ، فجاءت كتابته أبدع ما جادت به الأقلام منذ هوراس وكونتليان ، وأقام نفسه مقام الجندی المدافع عن تفوق الإيطالية على البروفنسالية في حلبة الأدب . فضلاً عن استحقاقها لتشجيع الذين تنبض في عروقهم دماء الوطنية . ونظم دانتي هذا المعنى في مقطوعة من مقطوعات القصيدة

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ١٩٤ ، حاشية ١ . زيدة .

التي عنوانها اللغة العامة واللغة الفصحى (De Vulgaria Eloquentia) ، حين قال : " إن إيطاليا لا ينقصها أبهة الملكية والبلاط الملكي . والحاشية ، برغم أنه لا ملك على رأسها ، لأن لغتها مملكة في ذاتها " ، وهي مقطوعة ردّها أفواه الوطنيين الإيطاليين على مرّ العصور . وبهذا المعنى سبق دانتى بأربعة قرون أو أكثر قول الكاتب الإنجليزي الدكتور جونسون ، إن عظمة البلاد من عظمة مؤلفيها . أما الكوميديا الإلهية — وهي الملحمة الدينية التي نعتها دانتى بأنها قصة رمزية — بسبب أسلوبها الخاص وما انتهت به من خاتمة سعيدة — فهي فيما يبدو من وحى الأبيات الرائعة في الكتاب السادس من الإنيادة ، حيث يروى فرجيل قصة ظهور ديدو (Dido) لإينياس (Aeneas) وهو يحوس خلال الظلام في العالم السفلي ، على قول الأساطير اليونانية ذلك أن دانتى كتب في الكوميديا أنه كذلك سوف يرى حبيبته مرة أخرى ، وأن بياتريس سوف تظهر له في جنة الفردوس ، وتشرح له ما خفى من أسرار الله الغامضة ، وأنه في سبيل الوصول إليها سوف يتزل إلى قرار جهنم ، ثم يصعد إلى قمة المطهر ، ويرشده في هاتين المرحلتين من رحلته الخيالية فرجيل ، أستاذه في الشعر ، وصاحب المثل الأعلى عند رجال ذلك العصر في المعرفة الدينية .

يتضح من ذلك أن دانتى لم يكن رأس الرعيل الحافل بالكتاب الخياليين الذين حاولوا وصف الروح ومصيرها بعد الممات ، عن طريق قصة رمزية يصفون فيها رحلة رحلوها في عالم الخيال ، أو رؤيا رأوها في عالم الغيب ، ومن أولئك الكاتب الإنجليزي بنسّين . الواقع أن الكوميديا الإلهية تدّين بكثير من محتوياتها إلى رؤيا سيبيو . فضلا عن الكتاب السادس من الإنيادة ، وفكرة الهبوط إلى العالم السفلي لم تكن من مبتكرات فرجيل ، ولم تقتصر على مؤلفي العصور الوثنية القديمة فحسب ، بل وردت في قصة هراقليس وفي قصة أورفيوس ، وكذلك في قصة أوديسيوس التي كتبت على غرارها قصة إينياس . ومن العصور المسيحية الأولى توجد قصة راعي هرميس ، وقصة رؤيا بطرس ، وقصة بستييس صوفيا — وهي كلها ترجع إلى القرن الثاني الميلادي ، وتدلّ برغم ما بينها من الاختلافات الواضحة على نفس الأساس الذي قامت عليه الكوميديا الإلهية ، وهو الرغبة الدينية الشديدة في معرفة أسرار الحياة الآخرة . ثم إن قصص العصور الوسطى — مثل قصة رؤيا فيتيني (Visio Wettini) سنة ٨٢٤ م ، وقصة رؤيا ألبريك راهب مونت كاسينو ،

سنة ١١٠٧ م ، وقصة رؤيا راهب إيفيشام سنة ١١٩٦ م — كفيّلة بكثرتها وشهرتها لاستبعاد فكرة الابتكار في أساس الكوميديا الإلهية . والواقع أن الابتكار في الكوميديا الإلهية ليس في طابعها الخيالي ، بل في عبقريتها وجمال لغتها ، وفنّانة بحرّها الشعري وعمق فكرتها ، فضلاً عن سعة خيالها وروعته . وكفى دانتى فخراً أنه دون سائر المؤلفين الخياليين هو الوحيد الذي تراءى روح فرجيل واضحة في أسلوبه ، وهذا التمازج بين الروح الفرجيلية وخيال العصور الوسطى المسيحية ، هو الذي أشاع في الكوميديا الإلهية فيضاً من الرقة الإنسانية — بله المعرفة — ، وأفرد لها مكانتها الفذة في تاريخ الأدب^(١).

على أن دانتى لم يفرّق بين الأساطير القديمة والتاريخ في الكوميديا الإلهية ، شأنه في ذلك شأن مؤلّي العصور الوسطى ، إذ اعتبر شارون (Charon) وأخيل (Achilles) ، وتيريزياس (Tiresias) ، ونمرود (Nimrod) وأشباههم من الأبطال الخياليين شخصيات حقيقية مثل كافالكانتى (Cavalcanti) وفرجيل والقديس فرنسيس ، كما اعتبر المعجزات التي أوردها ليّ (Livy) ولوقان (Lucan) في مؤلفاتهما شواهد قاطعة بأن الإمبراطورية الرومانية صدرت في جميع أعمالها عن وحى العناية الإلهية . ورأى دانتى أن الشعر القديم ليس تاريخاً يتطلب الفحص والتحليل ، بل سرّاً يجتليه الإيماء الروحي والإلهام ؛ واعتقد أن التشبيه القصصي من لزوميات ما يلزم في الشعر الرصين ، أو كما قال بوكاشيو : ” إن النصفحات الشعرية العظيمة ليست بدائع لفظية ساذجة خاوية ، على قول الكثيرين من الأغبياء ، بل تخفى تفاعيلها أعذب ثمرات المعرفة في الفلسفة والتاريخ ، وليس في استطاعة الإنسان أن يتذوق أفكار الشعراء تمام التذوق بغير التاريخ ، والفلسفة الخلقية والطبيعية “ .

غير أن الإمعان في التشبيه القصصي والسبح في بحار الخيال يجعلان كثيراً من الكوميديا الإلهية غامضاً ، بعيداً عن الأفهام . ثم إن دانتى لم يكن بطبيعته من رجال الفكاهة ، ومن الدليل على ذلك ما جاء في الكوميديا من حديث بياتريس إلى دانتى تحت ضوء قمر الفردوس ، ومنه ” لو أخذت ثلاثاً من المرايا ، وجعلت

(١) تتطلب هذه الإشارات الكثيرة ، وأشباهاها فيما يلي هذه الصفحة ، تفسيرات طويلة لبعض القصص المسيحية الباكر ، وكله وارد في تفصيل في عدة مقالات بالموسوعة التي عنوانها (Encyclopaedia of Ethics and Religion) . زيادة .

اثنتين منها على بعدين متساويين من عينيك ، ووضعت الثالثة بين هاتين الاثنتين على مسافة أبعد قليلا ، ثم جعلت من خلفك شمعة ، تجد أن قوة الضوء المنبعث من الشمعة واحدة في جميع الأحوال ، برغم اختلاف المساحة الضوئية المنعكسة من الشمعة على هذه المرايا الثلاث لاختلاف أبعادها “ . فهذا الحديث وإن جاء في الكوميديا شعراً دالاً على مهارة دانتي في النظم الفائق ، لا يستطيع إلا أن يكون نثراً رتيب النغمات ، لأن الشاعر الحديث لا يحلم أن ينظم قطعة علمية باردة في سلك قصيدة رنانة تفيض بالتصوف والرمزية والوجدان ، وهو ما دأب عليه دانتي في الكوميديا ، ولا سيما في الجزء الخاص بالفردوس .

وإذا وضع هنا أن في قصيدة الكوميديا الإلهية ما هو نثر منظوم ، وما هو عنف ودنس وقبح وسخرية ، فليس فيها شيء أو بعض شيء من ضعف الوصف أو الأسلوب ، لأن دانتي لم يكن كسلاً ولا ثرثاراً . ولن يستطيع ناقد أن يصف دانتي بالغرور واللجاج ، وإن استطاع أن يدل على ما بالكوميديا من جفاف العبارة وملاها وصعوبتها ، بعض الأحيان . ذلك أن تلك الصفات لم تنجم عن نوبة من الإعياء الفكري ، أو حالة من حالات الإغفاء والفتور ، أو عن تضائل الوجد بالموضوع ، بل ترجع كلها إلى ما اتصفت به عقلية دانتي من ميل إلى الوعظ والإرشاد ، مما يترأى أحياناً في صعوبة التشبيه القصصي ، وأحياناً في الشروح الغريبة لما يجري في الحياة الكائنة . ويكفي برهاناً على ذلك الغرض أنه ليس في الكوميديا الإلهية صفحة إلا اشتملت على صفة أو مزية تجذب إليها إعجاب الخبيرين ، ومن هؤلاء الكاتب الإنجليزي رَسْكن الذي وصف دانتي في كتابه روائع العمارة في البندقية (Stones of Venice. IX p. 175) ، بأنه ولد في بلد وفي زمن اضطبغت أحواشها بأشد ألوان القبح والجمال في آن واحد ، وسمحت مستوياتهما الوطيئة بظهور ذلك في عبارات قارحة . ومع أنه يستحيل على ناظم أن ينظم في العصر الحاضر ما يشبه فقرات معينة من مقطوعة الجحيم (Inferno) بالكوميديا الإلهية ، فلإني أرى الكمال كله في هذه المقطوعة جميعها من أجل تلك الفقرات ، ومن ثم أقرر إن الفقرتين الحادية والعشرين والثانية والعشرين من مقطوعة “ الجحيم ” يحتويان على أبدع تصوير للطبيعة الشيطانية التي تنطوى عليها نفوس البشر .

وصفوة القول أن دانتي يعتبر أقرب شعراء العصور الوسطى إلى فرجيل ، من حيث الرقة والدقة في الملاحظة ، فهو في وصف قرعة العاصفة بين أشجار الغابة ،

وانزلاق الضفادع إلى الماء حذّر الثعبان ، وعبور الضب الصغير عرض الطريق في سرعة البرق ، ورؤية الفلاح ذباب الليل في الغسق ، وانكباب الإسكافي العجوز على إبرته وخيطه ، ولعة أجسام الملاكين وهي مضمّخة بالزيت — متربصة بعضها ببعض أملا في موضع لكمة على حين غرة — ، وغوص البطة في الماء فراراً من الصقر ، وصراخ الأم تأخذ بتلابيب ابنها خوفاً من خطر النار ، وتزاحم المتراهنين حول الظافر في الرهان — كل هذه صور حية من الحياة . والواقع أن تصوير الضفادع والكراكش ، والسحالي والبط والصقور ، وتصور الأسماك التي تتألف — وهي تسبح في وعاء زجاجي من الماء النقي الساكن — طلباً للطعام ، وتصور الفلاح حين ينهض متذمراً من بكور الصقيع الأبيض ، وحين يأخذ عصاته وأغنامه إلى المرعى ، بعد أن تغير الشمس وجه الأرض — كل ذلك وأشباهه من صور الحياة الريفية المأثورة في إيطاليا ، مما لا يوجد نظير له إلا في كتابات فرجيل ، هو الذي يجعل أجيال الشعراء مدينة أكبر دين لدائتي والكوميديا الإلهية ، لأنه برهن فيها على أن أية ناحية من نواحي الطبيعة مهما قل شأنها تستطيع العين البصيرة أن تجعل منها شعرا .

وأشبه دانتى أستاذه هروشيوس المؤرخ في القول بأن الإمبراطورية الرومانية هي الأداة التي قيتضها الله على الناس في هذه الدنيا ، بدليل أن المسيح ولد على عهد الإمبراطور أوجسطس ، وأن الناس نعموا في هذا العهد كذلك لأول مرة بالسلام العالمي . وكتب دانتى باللغة اللاتينية رسالة عنوانها " في الملكية " (De Monarchia) ، ليثبت أولاً أن الدولة العالمية أمر ضروري قدره الله لمصلحة البشر ، وثانياً أن الله عهد إلى الإمبراطورية الرومانية أمر هذه الدولة ، وثالثاً أن الإمبراطور يستمد لقبه وسلطانه من الله مباشرة ، دون أن يخضع لسلطان البابا . ومن المسلم به أن المقدمات التي تؤيد هذه النتائج في مؤلفات دانتى تبدو — في عين الباحث الحديث — بعيدة كل البعد عن واقع الحياة السياسية . غير أنه إذا جرّدنا القضية كلها من قشرتها المدرسية ، وأمعنا النظر في الأفكار الجوهرية المستقرة في ذهن دانتى ، ألفينا أن هذه القضية لا تعدو أن تكون تعبيراً عن مثالية ما برح العالم يتمناها ، وسوف يظل متمنياً تحقيقها على مرّ الأجيال . ذلك أن القول بأن أسمى أنواع النشاط الإنساني هو الفكر ، وأن آفة التقدم الفكري هي الحرب ، وأن الغاية القصوى في السياسة هي السلام العالمي ، وأن السلام

العالمى لا يمكن أن يستقرّ إلا إذا أذعن العالم قاطبة للحكومة واحدة ، وأنه لا بد لكل جماعة من الجماعات التى يتألف منها المجتمع الإنسانى من أن تحرز قسطاً من الاستقلال ، وأن مصدر الشرور العظمى والمصائب فى الماضى والحاضر هو ما يطمح إليه ولاية الدين من سلطات دنيوية — ، كل هذه النظريات لا تستطيع أن تكون سخفاً أو من سرف القول ، وإن استطاع السياسيون المحدثون أن يجادلوا فيها أشد الجدل . ومع هذا فالدولة العالمية التى دعا إليها دانتى لا تزيد فى وهميتها عن البرلمان القوى فى مؤلفات الشاعر الإنجليزى تينسون ، أو الجمهورية فى نداءات الزعيم الإيطالى ماتربنى . ثم إن الأمانى المثالية مهما بدت بعيدة التحقيق لا تلبث أن تؤثر فى مصائر البشر أكبر الآثار ، ولم يمض جيل على رسالة دانتى فى الملكية حتى غدت تلك الرسالة سلاحاً فى الجدل السياسى الذى نشب بين لويس ملك بافاريا والبابا يوحنا الثانى والعشرين ، ونالها شرف الإحراق بالنار على يد مندوب من لدن البابوية .

والواقع أن الحوادث الأوربية فى ذلك العصر جعلت الأحوال التى تطلبها نظريات دانتى فى الإمبراطورية العالمية تضيق هباء فى ظلمات الإهمال . إذ اختفى آخر ما تبقى من بصيص الأمل فى توحيد إيطاليا تحت ظلّ الإمبراطورية بوفاة فردريك الثانى سنة ١٢٥٠ م ، أى خمسة وعشرين عاماً قبل أن يولد دانتى ، واقرنت حياة دانتى بسلسلة من التغييرات السياسية التى عطلت عودة الحكم الإمبراطورى . ذلك أن ذهاب الهوهنشتاوفن ، ومجيء شارل الأنجوى ملكاً فى جنوب إيطاليا ، وانتقال التاج الإمبراطورى مرة إلى أمير نمسوى ومرة إلى أمير لكسمبرج ، فضلاً عن ازدياد المطامع البابوية الإقليمية يوماً بعد يوم ، واضطراد النمو التجارى فى المدن الإيطالية — كل ذلك وغيره من الأسباب أدت إلى فصم عرى الاتصال بين إيطاليا والإمبراطورية ، وأمعن فى تقسيم إيطاليا ذاتها إلى وحدات سياسية متفرقة .

وثمة ناحية من نواحي الفكر السياسى والفلسفة السياسية فى مؤلفات دانتى جعلته موضع الاختلاف بين الناقدين ، وتلك الناحية أنه كان أرسطو قراطياً بطبعه . إمبراطورياً فى عقيدته ، إذ أن مثله الأعلى هو الإمبراطورية الرومانية لا الجمهورية . وهدفه هو القانون لا الحرية . ثم أنه ليس فى الكوميديا الإلهية وغيرها من مؤلفاته المختلفة

دليل على عطفه نحو طبقة الفقراء ، كالعطف الذى يملأ شخصية بيرز بلاومان^(١) فى دفاعه الشديد عن أصحاب الأيدى العاملة ، أو كالعبارات الرحيمة التى ظهرت فى مطالع الآداب الفرنسيسكانية .

غير أن الباحث يحسن صنعاً أن يذكر — حين ينسب دانتى إلى الأرستقراطيين — أن مسائل التنافس بين الطبقات ، وهى المسائل التى تتكون منها مادة السياسيين المتهاككين على السلطان ، لا تكون إلا عديمة الأهمية إلى أقصى حدود العدم فى عقلية من شاكلة دانتى ، شغلها الأعظم تنظيم العالم على أساس دينى جديد . ومن الدليل على ذلك أن العدل الإلهى الذى يصوره دانتى ليوم الحشر لم يفرق بين الأمير والحقير ، بل شمل الجميع على السواء ، فمنهم من تردى فى نار جهنم ، ومنهم من ظلّ متسماً جبل المطهر ، ومنهم من ذهب إلى الفردوس وأعلى عليين . ذلك أن المناصب مهما عظمت لم تعصم أحداً من ذلك العدل العظيم ، والجحيم فى تصوير دانتى عامر بعدد من البابوات ، على حين لم ينعم بالجنة سوى باباً واحداً ، أى أن أعظم ما خلفته الكوميديا الإلهية من أثر عند قراءها أو المستمعين إليها من الإيطاليين وقتذاك هو أن الدنيا متاع الغرور ، بالقياس إلى ما تحظى به الروح من رضى الله فى الأرض والسما . وتراءت الكنيسة الكاثوليكية لدانتى ديموقراطية عظيمة أفسدت شهوتها إلى السيطرة الدنيوية قدرتها الهائلة على الخير ، فكما ذهبت عن فلورنسا بساطتها حين كان نسائها عاكفات على منازلهن وغزلهن ، وحين كان أرواجهن يروحون إلى أعمالهم فى معاطف من جلود الأغنام ، كذلك انتشر الفساد فى الكنيسة بسبب الجرى وراء الثروة والتفوذ . وفى الفقرة الحادية عشرة من " الفردوس " فى الكوميديا الإلهية حيث يقص القديس توما الأكوينى حياة القديس فرنسيس ، يصف دانتى فى أسلوب رمزى رنان زواج القديس من خلة التقشف (Lady Poverty) ، وهى الخلة التى طلقها زوجها الأول — أى الكنيسة — منذ ألف عام ونيف ، فظلت الزوجة موضع الاحتقار والإهمال دون أن يسأل عنها سائل . وفى مثل هذه العبارات يقرّر دانتى حماسته للفقر مثالا من المثل الدينية التى يجب اتباعها ، برغم ما ينطوى عليه الفقر من المشقة والصبر ، لكى تظل الكنيسة طاهرة نقية غير آثمة .

(١) بيرز بلاومان (Piers Plowman) شخصية خيالية فى قصة اجتماعية شهيرة من نظم الشاعر الإنجليزى لاندلاند (١٣٣٢ - ١٤٠٠ م) ، وهذا الاسم الخيالى هو عنوان القصة كذلك . زيادة .

ومن ذلك كله وغيره مما تقدم يتضح أن الكوميديا الإلهية أعظم ملحمة وصفية للكاثوليكية في العصور الوسطى ، وأن دانتى من العظماء الإنسانيين الذين ساروا على نهج المدرسين الإسكولائيين ، وأنه كان من المتصوفين والسياسيين ، وأنه كان كذلك من الكنسيين المحافظين للدين ، وفى سبيل الإصلاح مخلصين .

بعض المراجع لهذا الفصل

Armstrong, (E.) : Italian Studies. Ed. C.M. Ady. 1934.

Dante : De Monarchia. Ed. Dr. E. Moore; Introduction by W.H.V. Reade. 1916.

Dante : Divina Commedia. Ed. H.F. Tozer. 1902.

Dante : Opera Minore. Ed. P.J. Fraticelli. 1855.

D'Arcy, (M.C.) : Thomas Aquinas. 1930.

Gilson, (E.H.) : La Philosophie du Moyen Age. 1925.

Mandonnet : Siger de Brabant et l'Averroisme latin au 13me. siècle. 1908.

Nannucci, (V.) : Manuale della letteratura del primo secolo della lingua italiana. 1883.

Ossetti, (D.G.) : Dante and his Circle. 1892.

ملحق (١) خاص بالفصل السابع عشر

يجد الباحث الكاثوليكي من الأسباب ما يجعله مدينًا بالشكر لأكثر من فقرة في هذا الفصل الجريء بعنوانه ، كما يجد فيه كذلك من الأحكام الظاهرة أو المستورة العبارة ما يخالفه تمام المخالفة . وأول هذه إشارتك إلى آراء سيجر البرابنتي ، وهو من المنسوب إليهم تأييد الآراء التي لا تعترف بالشخصية الإنسانية أو بالتعاليم الخلقية ، على عكس توما الأكويني الذي جعل كتابه وحدة العقل الفردي (De Unitate Intellectus) دفاعاً عن العقل وحدوده ضد سيجر وآرائه . غير أن عبارتك — في نظري — ربما أدت إلى شيء من الخطأ في تقدير موقف القديس توما الأكويني من مسألة العقل ، على حين أتى على يقين أنك لن تجد في أي مؤلف من مؤلفاته دليلاً واحداً على توفيقه قسراً بين العقل والدين دون إسناد ، مع التسليم لك في غير جدل بأنه قال قولاً مطلقاً باستحالة التعارض بينهما . ذلك أن فلسفة القديس توما تعتمد على العقل كل الاعتماد ، وأكبر شاهد على ذلك إجماع الباحثين المحدثين على أنه من عظماء المفكرين عند الإطلاق ، وحمدهم توفيقه في الإيلاف بين معرفة الرومانيين واليونانيين والمسيحيين إيلافاً ثابت الأوتاد حتى العصر الحاضر . أما أنت ، فيخيل إلى من عبارتك كأنك تخفي خصب تفكيره حين تكتفي بالتدليل على ذلك التفكير بإيمانه بالتحول التام (Transubstantiation) ، وبابتهاج الملائكة والقديسين بعذاب الكافرين في الجحيم . غير أن المجال لا يتسع لي أن أشرح أن مسألة التحول ليست قطعة من الشعوذة الخارقة الفجة ، كما يتبادر إلى ذهن طائفة من الناس ، بل مستوى من التفكير الرفيع الدرجات . أما ابتهاج القديسين بعذاب الكافرين في الجحيم ،

(١) كتب صديق كاثوليكي من أصدقاء المؤلف ، وهو من أعلام الدراسات الخاصة بالقديس توما الأكويني ، عدة ملحوظات على الفصل السابق هنا ، فجعل المؤلف هذه الملحوظات ملحقةً بنهاية الجزء الخاص بالنصير الوسطى من كتابه . غير أنني رأيت فقل هذا الملحق إلى هنا ، أي بعد الفصل السابع عشر مباشرة ، لإكمال الموضوع مع القارئ . زيادة .

فطالما أثار السخرية بالأكوينى فى كثير من المناسبات ، ولذا يحسن الباحث صنعاً إذا أنعم النظر فى الباب الذى عالج فيه القديس توما ذلك الموضوع فى كتابه ، حيث يسأل نفسه هل كان الملائكة والقديسون يبتهجون حقيقة بعذاب الكافرين ، ثم يدل فى عبارة واضحة على أنه من الفطيع الذى تشمئ منه العقول أن يبتهج إنسان ما بعذاب غيره من الناس . غير أنه يضيف إلى ذلك أنه مع صحة ما ورد بالكتب المقدسة فى عذاب الكافرين ، ومع أنه لا ينبغى لأحد أن يبتهج بآلام غيره حباً فى الابتهاج ، فإنه من الجائر — بل من الصواب — أن يبتهج الإنسان لأن شريعراً من الأشرار يلقى ما يستحق من العقاب جزاء على ما اقترف من ذنوب . ونحن جميعاً نفهم هذا الفرق بين الحالين ، وتتلج صدورنا ونفرح حين تقبض العدالة على لص خاطف أو مجرم قاتل ، لتترل به العقاب الأوفى . ولهذا إذن أسأل فى شيء من الحيرة لماذا تعرضت نظرية الأكوينى لكثير من الاستهجان . على أنى أظن أن السبب فى ذلك أن كثيرين من المفكرين يعتقدون فى قرارة أنفسهم أن العصور الوسطى لم تنصف إلا بالقسوة والحدود والوهم الدينى . وأنها تبعد عنا مراحل فى التفكير والسلوك ، ويتمسكون بما ورد فى نص القديس توما ، بصدد الابتهاج بعذاب الكافرين ، للتدليل على ما يقولون فى غير تفكير أو إمعان . ثم إنك تقول كذلك فى دانتى "إنه لم يفرق بين الأساطير القديمة والتاريخ الصحيح ، شأنه فى ذلك شأن جميع المؤلفين فى العصور الوسطى" ، وغاب عنك ما يتطلبه الحكم على كتابه الذى عنوانه الأسباب والمقدمات (De Causis) من عمق البحث . والواقع أنه إذا اتخذنا القديس توما دليلاً على عصره ، فلا شك أن ذلك العصر كان ممتلئاً بنزعة قوية نحو المعرفة والحق ، وأن تلك النزعة القوية مضافاً إليها الرغبة فى التوفيق بين مظاهر الحياة المختلفة — لا الشعور بأن الروح أهم من الأوضاع الشكلية الظاهرة ، وأن الإيمان والعقل أهم من طقوس الكنيسة وأسرارها — هى التى تتحكم فى الحركات والاتجاهات السائدة دائماً بين جماعات البشرية .

الفصل الثامن عشر

نمو الملكية في فرنسا وإنجلترا

اختلاف التطورات الدستورية في فرنسا وإنجلترا - ازدياد المركزية في إنجلترا - تقلص السلطة الملكية في فرنسا - لويس السابع وهنرى الثانى - توحيد فرنسا على عهد فيليب أوجسطس توحيداً ناقصاً - أهمية الطبقة الوسطى من المزارعين في إنجلترا - البرلمان بإنجلترا ومجلس طبقات الأمة بفرنسا - التطور القانونى في إنجلترا وفرنسا - لويس التاسع وفيليب الجميل (Le Bel) - الميل نحو الحكم الاستبدادى في فرنسا - ميل إنجلترا للحكم الدستورى - الماجنا كارتا (العهد الأعظم) - سيمون دى مونتفرت - إدوارد الأول .

* * *

تختلف فرنسا عن إنجلترا في العصر الحاضر اختلافاً واضحاً ، على الرغم مما استقام لهما معا من العوامل الحضارية التى كان ينبغي أن توحد بين الدولتين . ففرنسا في العصر الحاضر دولة أغلب سكانها من صغار المزارعين وأنواع الصناع أرباب المهارة الصناعية ، فضلاً عن بورجوازية (طبقة عاملة متوسطة وغير متوسطة) كبيرة العدد بالمدن ، وهى بورجوازية مثقفة مدبرة ، لا تهتم إلا لأموالها الخاصة ، ولا تحفل في كثير أو قليل بما يجرى خارج بلادها الجميلة . أما إنجلترا فدولة أهلها فريق من كبار الملاك والمزارعين بالإجارة ، وفريق من أهل الصناعات والمصانع المكتظة بأعداد هائلة من العمال ، وفريق من رجال الأعمال ذوى المصالح التجارية المتشعبة في أنحاء العالم ، وأولئك وهؤلاء من الصغير إلى الكبير معروفون جميعاً بحب الرحلة والأسفار والمغامرة : حتى إنه ينذر أن توجد أسرة من الأسرات الإنجليزىة بغير قريب أو نسيب يقيم فيما وراء البحار ، على قول الإنجليز أنفسهم .

غير أن أوجه الاختلاف بين البلدين - في القرن الثانى عشر والثالث عشر الميلادى - لم تكن على ذلك النحو من الوضوح . وبيان ذلك أن الفتح التورمانى

جعل من إنجلترا إقليماً من أقاليم الحضارة الفرنسية ، إذ غدا اللسان الفرنسى لغة الطبقة الأرستقراطية والحكومة والمحاكم ، وامتدّ المعمار القوطى إلى إنجلترا من فرنسا ، أى باريس وما حولها وقتذاك ؛ وحكم ملوك إنجلترا النورمانيون حتى مطلع القرن الثالث عشر الميلادى جزءاً كبيراً من فرنسا ، فحكموا أولاً نورمانديا وهى إقليمهم القديم ، ثم الإمبراطورية الآنچوية التى أقامها الملك هنرى الثانى بلانتاجنت (Plantagenet) . ثم إن النظم الإقطاعية وفنون الفروسية والحروب الصليبية كلها ترجع إلى أصول فرنسية ، وكذلك الحركة الجامعية التى أفادت منها إنجلترا أكبر الفوائد ، إذ المعروف أن أصل هذه كذلك باريس . والحاصل أن جميع القواعد والمبادئ التى ارتكزت إليها الحكومة والقانون والمجتمع والدين فى إنجلترا المطلة على بحر المانش لم تختلف فى شىء من العموميات عن أشباهها فى فرنسا المطلة على الجانب الآخر من ذلك البحر ، بل بلغ من التشابه والتمازج بين الدولتين أن كثيراً من المدن صاغت براءاتها (Charters) على نماذج فرنسية ، وأن جميع المصطلحات الخاصة بالنظم البلدية بإنجلترا مثل رئيس البلدية (Mayor) والمجلس البلدى أو القومون (Commune) جاءت كلها من فرنسا . ثم إن المتنقل بين فرنسا وإنجلترا فى عهد الملك حنا لم يكن يحسّ بشىء من الاختلاف فيما يرى بأرجاء البلدين ، إذ يرى فى كل منهما كتدرايات شاهقة سامقة ، فإذا سأل عن بناء تلك العماثر الفخمة تبين له أن نقابات من البنائين قامت على بنائها بإرشاد أسقف فرنسى من الأساقفة . أو مقدم فرنسى من مقدمى الأديرة ، كما يرى أن الأديرة فى البلدين تخضع لقوانين الديرية الفرنسية ، وأن تلك الأديرة تملك مساحات شاسعة من الأراضى ، وتنفق عن سعة فى إكرام القادمين عليها ضيوفاً من مختلف النواحي . وفى كل من البلدين يلقى هذا المتنقل جموع الرهبان فى طريقهم إلى مهرجان من المهرجانات السنوية ، أو سوق من الأسواق ، أو حفلة من حفلات الفروسية والألعاب ، كما يلقى الجماعة من الجماعات القروية وهى تستمع فى صمت الملهوف إلى موعظة بليغة من أحد الرهبان العابرين ، وربما انتهت به موازنته بين تنقلاته المتشابهة فى كل من البلدين إلى القول بأن إنجلترا أقل مدنية وأوفر ثروة من فرنسا .

ثم إنه لم يوجد بين البلدين شىء من الاختلاف الروحى ، والدليل على ذلك أن بارونات العهد الأعظم لم يترددوا فى دعوة ولى العهد بالمملكة الفرنسية — وهو

الذى أصبح فيما بعد لويس الثامن ملك فرنسا - ليعتلى العرش الإنجليزي بدلا من الملك حنا ، وأن سيمون دى مونتفرت - بطل الحريات الإنجليزية وزعيم الثورة الأهلية فى إنجلترا ضد الملك هنرى الثالث - ابن للنبيلى الفرنسى الذى تزعم الحملة الصليبية ضد الألييجنسين^(١) بالجنوب الغربى من فرنسا الحالية . غير أن ذلك كله لم يتعدّ الفرنسيين والإنجليز ، إذ كان الألمانى فى نظر الفرنسى فى ذلك العصر شخصا أجنبيا بغضاً ، على عكس الإنجليزي الذى عاش فى محيط يشبه محيط الفرنسى فى العموميات . وإذ غدا من المعروف للفرنسى فى ذلك العصر أن الإنجليزي من العامة يتكلم بلسان غير مفهوم له ، ويشرب مشروباً رديئاً - هو البيرة - لقلّة الكروم التى تنتج النبيذ ، غدا من المعروف له كذلك أن الإنجليزي من الخاصة يتقلب فى حياة تشبه حياته ، ويتكلم بلسان فرنسى منذ فتح النورمانيون إنجلترا سنة ١٠٦٦ م .

على أن فرنسا لم تكن البلد الوحيد الذى تأثرت به إنجلترا وقتذاك ، وذلك لأن معظم سكان إنجلترا العصور الوسطى عاشوا بالجزء الجنوبي الشرقى الذى تقع فيه لندن وإسكس ولست آنجليا ، وهو إقليم دلت سجلات الروك^(٢) النورمانى على أنه موطن قوم من المزارعين الأحرار الذين استطاعوا أن يحتفظوا بكيانهم رغم الاضطرابات الاقتصادية التى أعقبت الفتح النورمانى . ولم يكن ذلك الإقليم أكثر أقاليم إنجلترا ازدهاراً بالسكان فحسب ، بل أعظمها ثروة ، ولعل السبب الثانى بالذات هو الذى جعل أولئك القوم بالقياس إلى غيرهم من الإنجليزي أحراراً للحرية ، ومنهم استمد سيمون دى مونتفرت ، وبعده أوليفر كرومويل ، قوتهم وبأسهما . ثم إن معظم تجارة لندن ولست آنجليا لم تكن مع فرنسا بل مع الأراضى المنخفضة ، وبلاد الفلاندرز ، وكولونيا ، واسكنديناوة ، ومدن البحر البلطى ، وأهمها جميعاً بلاد الفلاندرز ، حيث بروج وجنت اللتان جعلتا من أصواف المراعى والمج الإنجليزية أقمشة ذاتة الصيت بمختلف البلاد الأوروبية . ومن ذلك يتضح أنه على حين جاءت الاتصالات الأرستقراطية والأدبية إلى إنجلترا من منابع

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٣٢ ، حاشية ١ . زيادة .

(٢) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١٣٣ ، وكذلك راوس : التاريخ الإنجليزي

ص ٤١ - ٤٢ . (مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ١٩٤٦ م) . زيادة .

فرنسية لاتينية ، جاءت معظم الاتصالات الاقتصادية من بلاد أهلها والإنجليز أنفسهم من أصول تيوتونية ، مع العلم بأن العلاقات التجارية بين إنجلترا وبوردو وروان بفرنسا لم تكن قليلة الأهمية .

وكيفما كان الأمر فوضع الأهمية في المقارنة بين إنجلترا وفرنسا العصور الوسطى ، أن الفتح النورمانى الذى أدخل إنجلترا دائرة الحضارة الفرنسية هو - في الواقع - أحد الأسباب التى جعلت كلا من إنجلترا وفرنسا ينحو نحواً مخالفاً في تطوراته الدستورية . وتفصيل هذه العبارة الموجبة للالتفات أن وليم الفاتح (١٠٦٦ - ١٠٨٧ م) صاغ لإنجلترا دولة واحدة لم تقو الأيام على فصم عراها ، حتى إذا حلت الفوضى الإقطاعية بأرجائها . على عهد ستيفن (١١٣٥ - ١١٥٤ م) لم تابت أن عادت إلى سجيئها من التماسك على عهد هنرى الثانى (١١٥٤ - ١١٨٩ م) الذى تدين إنجلترا لسلسلة إصلاحاته الإدارية والقضائية بما استقام لها من التوحيد القضائى ، وهو ما لم تنله فرنسا إلا بعد قرون كثيرة . فلما مات هنرى الثانى وعى الإنجليز عنه أربعة دروس عظيمة : إذ تعلموا دفع الضرائب ، وهو درس لم تستطع الملكية الفرنسية تلقيه للشعب الفرنسى ، ولم يفهمه الفرنسيون تمام الفهم حتى العصر الحاضر . وتعلم الإنجليز كذلك أن الإجرام جناية ضد الملك ^(١) ، وأن محكمة تستمد سلطتها من الملك هى التى تفصل فى قضايا الجنايات ، ما عدا القضايا التى تدخل فيها الحصانة الدينية (Benefit of Clergy) ، حيث تتولى المحكمة الكنسية محاكمة المجرم ، على أن تسلمه إلى السلطة المدنية لتنفيذ العقوبة عند ثبوت الإدانة . أما الدرس الثالث الذى تعلمه الإنجليز وقتذاك ، فهو أن ثمة قانوناً واحداً يسرى على جميع البلاد ، وأن محكمة عليا واحدة - هى محكمة الملك (Curia Regis) - تقوم على تطبيقه ، وقضاة هذه المحكمة هم الذين ينتقلون بين البلاد فى دوائر قضائية ، ويمثلون سلطة الملك فى القضاء بين الناس أثناء تنقلاتهم الرسمية . وأما الدرس الرابع فهو ضرورة التعاون فى شئون الحكم ، بتأدية المقطعين ما عليهم من خدمة عسكرية فى الحروب ، وتضامن المواطنين عامة فى القبض على الفارين من وجه العدالة ، وقيام الحلفين بتقدير الضرائب ، وتجريم المجرمين أو تبرئة البريئين أمام الدوائر الجنائية ، فضلاً عن الفصل

(١) المقصود بالملك هنا الدولة ، على أن التمييز بين اللفظين بدأ فى غرب أوروبا منذ أواخر العصور الوسطى فصاعداً . زيادة .

في القضايا المدنية في المحاكم المركزية . وظلت هذه النظم قائمة على مرّ الأجيال ، فلم تتعرض لها الأيدي بسوء ، رغم غيبة الملك رينشارد قلب الأسد (١١٨٩ - ١١٩٩ م) عن المملكة عدة سنوات ، ورغم فساد الحكم على عهد الملك حنا (١١٩٩ - ١٢١٦ م) ، وهو الملك الذي لم يدل على شيء من النبوغ أو سعة الخيلة إلا حين جعل من الأداة الحكومية التي خلفها أسلافه وسيلة للحصول على أسطول يكفل له تحقيق أغراضه ضد البارونات وثورتهم التي تمخض عنها العهد الأعظم .

وبعكس ذلك تماماً بدت أحوال فرنسا في السنوات الممتدة من أوائل القرن الثاني عشر الميلادي إلى أوائل القرن التالي له . فلم يكن باستطاعة الملك لويس السادس (١١٠٠ - ١١٣٧ م) أن يطلق اسم مملكته على مساحة أكثر من الإقليم الواقع بين أواسط نهري السين واللوار ، على حين ظلت مدينة أميان من أملاك فرماندوا ، وكاليه وبولونيا داخلة في أرض أرتوا ، وليون تابعة للإمبراطورية الألمانية . وبينما أضحي ملوك إنجلترا متمتعين بحكومة لها السلطة على أنحاء البلاد ، بقي ملوك فرنسا وجهاً لوجه إزاء إقطاعات ضخمة ، عليها إقطاعيون جبابة ، وهي فلاندرز ، ونورمانديا ، وبرجنديا . وجويين ، وجسقونيا ، وتولوز . وبرشلونة - وكلها تابع للتاج الفرنسي تبعية مضطربة مهلهلة ، مستقل عنه في الواقع تمام الاستقلال . ولعل أوضح الأدلة على حقيقة تلك الأحوال السياسية القائمة بفرنسا حينذاك ، أن لويس السادس جعل كل همّة في تأمين الإقليم الصغير - الذي هو مملكته - من عادية المعتدين ، وأنه اعتبر الإقطاعية عدوه الأول . وهذا الملك الناشط هو كذلك المؤسس الأصلي لفكرة الاستناد في الحكم إلى موظفين من الطبقة الوسطى ، وهي الطبقة التي برهنت على صلاحيتها لشئون الإدارة والحكم في فرنسا ، برغم ما طرأ على الدولة الفرنسية من تقلبات سياسية ، خلال مختلف العصور حتى العصر الحاضر . ومن تلك الطبقة الراهب سوجيه (Suger) كبير وزراء الملك لويس السادس . وهو مؤرخ مغرور متنفخ الأوداج ، ولكنه دلدل على كثير من الأمانة والمقدرة والإخلاص في جميع ما اضطلع به من أعمال في خدمة الملكية الفرنسية في العصور الوسطى .

غير أن الخطوات التي خطتها الملكية الفرنسية في ميدان التقدم على عهد لويس السادس تعرّضت للزوال على عهد خلفه لويس السابع (١١٣٧ - ١١٨٠ م) ، وهو الملك التي الطيب المعروف بالدماثة وضعف الإرادة . وتزوج لويس السابع

من إينور ابنة أحد كبار المقطعين الفرنسيين ، فكان مهرها من أبيها دوقية أقطانية ؛ أى أن تلك الدوقية الكبيرة أضحت بموجب ذلك الزواج الباهر تابعة تبعية فعلية للملكية الفرنسية .

غير أن اختلاف الطباع بين الزوجين أدى إلى التنافر ، فطلق لويس السابع زوجته إينور سنة ١١٥٣ م بعد خمس عشرة سنة من الحياة الزوجية ، وارتكب بذلك غلطة سياسية فادحة ليس في تاريخ فرنسا أفدح منها في العصور الوسطى . ذلك أن إينور تزوجت بعد طلاقها مباشرة من هنرى بلانتاجنت صاحب آنجو ، وعلى مقتضى القوانين الإقطاعية السائدة في تلك العصور انتقلت مساحة شاسعة من جنوب غرب فرنسا — وهى مساحة تشمل جوين وأوفرن وأقطانية — من حوزة الزوج الأول إلى يد الزوج الثانى . ثم صار هنرى بلانتاجنت ملكاً على إنجلترا ودوقاً على نورمانديا سنة ١١٧٠ م ، فأسمى لويس السابع قبالة مملكة معادية تمتد من جبال الشفيوت شمالاً إلى جبال البرانس جنوباً ، وتفوق مملكته في القوة المادية . وضرب لويس السابع لتلك الحال مثلاً حين قال مخاطباً والتر ماب (Walter Map) في وصف هنرى الثانى بلانتاجنت : ” إن مولاك الملك لا يعوزه شيء البتة ، فعنده الرجال والمال والخليل والحرير والماس ، وطيور الصيد وأنواع الفاكهة ، وكل ذلك في وفرة وكثرة . أما نحن في فرنسا فليس لدينا سوى الخبز والنبيل والمرح “ . ولم تزل روح المنافسة تعمل عملها بين إنجلترا وفرنسا حتى أنشبت بينهما حرباً متقطعة المراحل شأن الحروب في العصور الوسطى ، وهى حرب المائة سنة^(١) . لكن لويس السابع تحلى بمزية لم تتوفر لخصمه ، حتى إذا اضطرم النزاع بين الإمبراطور فردريك بارباروسا^(٢) والبابا إسكندر الثالث ، انضوى لويس إلى جانب البابا ، ورحّب بضيافته في فرنسا أبجل ترحيب ، وأباح له الرواح والغدو في البلاد ملء حريته كأنه ملك فرنسا ، فكافأه البابا على تخضعه وتقواه بوسام الوردة الذهبية . وبدت هالة لويس السابع لامعة النور . بالقياس إلى الظلمة الحالكة — والكراهة الشديدة — التى نشرها قسس أوربا ورهبانها حول شخصية هنرى الثانى بلانتاجنت . ذلك أن الدوائر الكنسية رأت في هنرى الثانى رمزاً للروح العلمانية الدنيوية في السياسة ، ونذيراً بأشد الأخطار التى تهدد امتيازات رجال

(١) راجع الملحقين رقم ٦ و ٧ ، في آخر هذا الكتاب . زيادة .

(٢) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١٩٩ . زيادة .

الدين في المجتمع . وكيف لا يكون ذلك وهو الملك الذي أحب العيب أحياناً بالكتابة وأحياناً بالمسامرة وسط الصلوات الدينية ، وقرر أنه إذا أدانت محكمة من المحاكم الكنسية متهماً من رجال الدين بالإجرام فيجب تسليمه للسلطات المدنية لتوقيع العقوبة اللازمة ، وقال إن استئناف القضايا إلى روما لا يكون إلا بعد الحصول على موافقة الشخصية . وكل ذلك فضلاً عما انغمس فيه هنرى من عنيف النضال أعواماً طويلة ضد توماس بـيـكـت (Thomas Becket) رئيس أساقفة كانتبرى ، واتهامه عند الكثيرين من الناس بأنه هو الذى دبر مقتل بـيـكـت على مقربة من درج المذبح بكتدرائية كانتبرى. غير أن المقارنة بين لويس صاحب التقوى والورع والخط العاثر . وهنرى الأثيم الذكى الهائى الأحوال ، تجعل عدل الأقدار فوق إدراك الأفهام ، وتحمل الإنسان على أن يسأل كيف تكون تلك الأشياء فى الإمكان . وربما كانت الرغبة فى الإجابة على ذلك السؤال هى السبب فى نمو القصة التى ذاعت بين الناس ، حين طرد فيليب الثانى ملك فرنسا (١١٨٠ - ١٢٢٣ م) الإنجليز من نورمانديا - وهذه القصة هى أن توماس بكت ظهر لأحد رجال الدين فى المنام ، وقال له إنه اختار فيليب الثانى لينتقم لمصرعه من هنرى بلانتاچنت .

وكيفما تكون القصة ، فالمعروف أن فيليب هذا الذى سَمَّاه التاريخ باسم فيليب أوجسطس امتاز بصفة قل أن توجد فى ملك من ملوك العصور الوسطى ، وهى التزام الممكن لا المستحيل فى السياسة ، لأنه فكر فيما حوله من واقع الأحوال لا الخيال ، وقرر ألا يدع مشكلة بالغة ما بلغت أن تصرفه عن تحقيق أعظم ما يهدف إليه ملك فرنسى فى العصور الوسطى من أغراض ، وهو طرد الإنجليز من فرنسا وتوسيع مملكته على حسابهم ، وحساب غيرهم من جيرانه . ولذا لم يكن عجباً أن يحمل شاهد القبر الذى يضم رفات هذا الرجل الذكى المتزن عبارة لاثينية قصيرة (*Ampliat fines regni*) ، ومعناها صاحب الفضل فى امتداد أطراف المملكة. ذلك لأن فيليب هو صاحب الفضل ولأريب فى امتداد المملكة الفرنسية إلى بحر المانش والمحيط الأطلسى ، حين ضم إليه فرماندوا بطريقة دبلوماسية ، واستولى على نورمانديا وأنجو ومين وتورين بالحرب ، واستطاع أن يحتم على ذلك كله بهزيمة جيش من الألمانين والإنجليز فى وقعة بوفين الشهيرة سنة ١٢١٤ م ، وهى الهزيمة التى لولاها ما بقيت تلك الفتوح فى يده .

ومن ثم بدأ تكوين فرنسا يسير قلعاً - في غير توقف أو عثرة - حتى القرن الرابع عشر الميلادي ، حين تحدى إدوارد الثالث ملك إنجلترا إمعان التاج الفرنسي في التوسع الإقليمي ، ونشبت بين الدولتين سنة ١٣٣٧ م حرب المائة سنة ، وجلا الإنجليز أثناءها عن كثير من البلاد الفرنسية ، ما عدا جسقونيا التي ظلوا فيها ثابتين . على أن فرنسا تعوّضت سابقاً عن بقاء الإنجليز في ذلك الإقليم الجنوبي بضم إقليم لانجدوك نتيجة حملتها الصليبية ضد الألبيجنيين سنة ١٢١٣ م . وأقاليم شامبانيا ولا مارش وأنجوليم بعد ذلك بقليل ، ثم مدينة ليون سنة ١٣١٢ م . غير أن توحيد فرنسا على تلك الصورة بفضل ملوكها آل كابيه يختلف من نواحي كثيرة عن الصورة التي تمّ عليها توحيد إنجلترا حسب مشيئة وليم الفاتح . ذلك أن امتداد المملكة الفرنسية نحو الوحدة لم يؤدّ إلى شيء من النتائج الانقلابية التي أعقبت فتح إنجلترا على يد النورمانيين ، فلم تنتقل ملكية الأراضي إلى غير أصحابها ، ولم تتكون طبقة جديدة من النبلاء الغرباء ، ولم تنزل النوازل بالمزارعين والفلاحين أهل الريف ، بل سارت الأمور على حالها في جميع الأقاليم الفرنسية - حتى الأقاليم التي تطلب انضوائها إلى التاج الفرنسي حرباً وقتالاً ، مثلما حدث حين طرد فيليب أجسطس الملك حنا من نورمانديا سنة ١٢٠٤ م . والواقع أن جميع المدن والقلاع الفرنسية التي سيطرت عليها القوات الإنجليزية انتقلت إلى ملوك فرنسا دون أن تغير مما بها شيئاً ، أو بعبارة أخرى دون أن يطرأ على روحها طارئ . بل دون أن يحدث قتال في أغلب الأحوال . والسرّ في ذلك أن الفرنسيين على اختلاف أقاليمهم أدركوا أن الملك عنوان النظام والعدالة ، وملاد الضعفاء والفقراء من بطش المسيئين والأقوياء ، وحامي الدين بأنحاء المملكة من بحر المانش إلى جبال البرانس ، فضلاً عن شيء من الإحساس بأنه الملك صاحب التاج والسيادة في فرنسا . وبرغم ما اتسم به ذلك الإحساس من الضآلة وقلة الوضوح ، فإن محبة الملكية بدت ظاهرة في فرنسا على عهد الملك لويس السابع ، واستطاع فيليب أجسطس أن يتعهد ذلك النبت الجديد ، بفضل ما استقام له من توفيق في حركاته الدبلوماسية وأعماله الحربية ، كما استطاع أن يوسع نفوذ التاج الفرنسي في أراضي أفصالة (Vassals) الإقطاعيين ، اعتماداً على ما له من حقوق إقطاعية مقررة . وثمة ناحية أخرى من نواحي الاختلاف بين فرنسا وإنجلترا . وهي أن ما حدث بفرنسا عن طريق النمو الإقليمي أعجزها عن أن تبلغ مبلغ إنجلترا من التوحيد في

العصور الوسطى ، لأن الإقطاعات الفرنسية الكبيرة اختصت بخصائص إقليمية هي في الواقع جزء من التراث الفرنسي العام ، ولم يكن باستطاعتها أن تخضع الخضوع كله بين عشية وضحاها ، أو ينقلب الحال فيها غير الحال تحت ضغط الاستبداد الشديد . ولذا احتفظت تلك الإقطاعات بالكثير من استقلالها السابق ، وتمتع أصحابها من كبار الإقطاعيين بسلطات إقليمية واسعة رغم تبعيتها الفعلية للتاج ، حتى إذا جعلها ملوك فرنسا ولايات مخصصة لأبنائهم غدت تلك الولايات مرة بعد مرة منابع الخطر على الملكية نفسها . وما ترتب على سعة السلطات التي تمتع بها كبار الإقطاعيين أن فرنسا ضاقت عن أن تتكون بها طبقة متوسطة من الإقطاعيين الذين يستطيعون الاضطلاع بالمسئوليات العامة في الأقاليم ، على غرار ما تمّ بإنجلترا في العصور الوسطى . من توزيع معظم أعمال الحكم المحلي على الفرسان ، وهم صغار الإقطاعيين الذين قاموا بتقديم المجرمين للمحاكمة أمام الدوائر الجنائية ، ورفعوا سجلات الأقاليم إلى وستمنستر لفحص أعمال المحاكم الإقليمية ، وجلسوا محلفين ، القضاة المدنية ، وصاروا نواباً عن أقاليمهم حين صار البرلمان ركناً من أركان الحياة السياسية . والخلاصة أن طبقة موازية لطبقة الفرسان الإقليميين في إنجلترا لم تتكون في فرنسا ، لتستمدّ منها الإقليم الفرنسية ما حاجها من المحلفين والقضاة والموظفين المحليين ، كما لم تتكون بها أشباه المحاكم الإقليمية الإنجليزية التي اعتمد عليها ملوك إنجلترا في تدبير شئون الأقاليم ، بل اعتمدت الملكية الفرنسية في تدبير شئونها على طبقة من الموظفين المحترفين مثل الصنجيل (Senechal) ، وهو صاحب الوظيفة الإقليمية التي أنشأها فيليب أوجسطس للسهر على مصالح التاج بمختلف الأقاليم .

ومن هنا تتضح أسرار التشابه والاختلاف الجوهري بين فرنسا وإنجلترا في التطور السياسي ، ففي كل من البلدين بدت الملكية أهم أداة إنشائية في الدولة ، وفي كل البلدين تمت نظم برلمانية في القرن الثالث عشر الميلادي من نواة مركزية هي مجلس الملك ، وفي كل من البلدين دانت تلك النظم بوجودها لا إلى معانٍ نظرية ، بل إلى عدد من أسباب مادية ، ومنها شدة حاجة الملوك للمال ، وسهولة تصريف أمور الدولة في مجلس مركزي جامع ، وضرورة مظاهر الملكية في ساعات الحرج . وفي كل من البلدين أصرّ الملوك على مبدأ أن يكون النائب في المجلس مفوضاً عن إقليمه تمام التفويض . ثم انتهى التشابه بين إنجلترا وفرنسا

عند هذا الحد ، لأن المجالس الإنجليزية التي انعقدت في القرن الثالث عشر الميلادى - وهي التي صار اسمها البرلمانات منذ عهد هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٤ م) - جمعت بين فرسان الأقاليم ونواب المدن وممثلى صغار رجال الدين ، إلى جانب البارونات وكبار الكنيسة ، لا فرق بين هؤلاء وأولئك إلا بصيغة الدعوة الموجهة إليهم ، لحضور تلك المجالس .

ثم إن مصدر القوة في تلك المجالس ، ومنع مكانتها في الحكومة الإنجليزية ، هو أن معظم أعضائها أتوا من طبقة إجتماعية متوسطة ، قديمة الخبرة بالشئون العامة في الأقاليم المختلفة ، بعكس المجالس الفرنسية (States General) التي لم يكن لأعضائها صلة بأعمال الحكم الإقليمى ، فضلا عن قلة الامتراج بين أولئك الأعضاء لانعدام طبقة الإقليميين المتوسطين الذين أشبهوا النبلاء في أذواقهم ومقاييسهم الريفية ، وحكوا نواب المدن في طاقاتهم الاقتصادية . والحاصل أن المجالس الفرنسية عجزت عن أن تقوم بدور إنشائى واضح في توجيه السياسة القومية في فرنسا ، بسبب تكوينها من ثلاث طبقات متباينة ، وهي طبقة النبلاء ، وطبقة رجال الدين ، وطبقة أهل المدن . ولذا لم تصبح تلك المجالس عاملا من عوامل الرقابة على السلطات الاستبدادية والحكم المطلق ، بل لم تستطع أن تجمتع إلا نادراً وفي غير ميعاد ، حتى إذا اجتمعت اتخذ أعضاؤها مواقفهم في المناقشة والاقتراع على قاعدة الطبقات .

ومن الدليل على ذلك كله أن عدد المجالس الفرنسية التي دعيت للاجتماع بين سنتى ١٣٠٠ ، ١٧٨٩ م لا تزيد إلا قليلا عن عدد البرلمانات التي انعقدت بإنجلترا في عهد ملك واحد هو إدوارد الثالث (١٣٢٧ - ١٣٧٧ م) . ثم إنه لم يوجد في فرنسا ما يصح أن يسمى القانون العام ، والوحدة القانونية التي نعمت بها إنجلترا بفضل الإصلاحات القضائية في عهد هنرى الثانى (١١٥٤ - ١١٨٩ م) لم تحدث في فرنسا إلا زمن نابليون ، مع أن أوائل الإصلاح القضائى في فرنسا أخذت تبدو في الأفق منذ صار لبرلمان باريس قسط كبير من القوة والاستمرار في عهد القديس لويس (١٢٢٦ - ١٢٧٠ م) ، أى بعد سنوات قليلة من تأسيس دور حقوقية (Inns of Count) في لندن . ولم يكن برلمان باريس هذا مجلساً نيائياً سياسياً كما يبدو من مدلول اللفظ ، بل كان هيئة من رجال القضاء الذين أضحت مراكزهم فيما بعد قابلة للشراء أو الهبة عن طريق الإرث . وقامت

تلك الهيئة القضائية بدور عظيم في القانون والسياسة ، واشتملت على كثير من الرؤوس المفكرة ، وبقيت كما بقى غيرها من الهيئات الرسمية الحريضة على سلطاتها وإعفاءاتها ، حتى اجتاحتها الثورة الفرنسية . غير أن الدور الذى قامت به تلك الهيئة لم يشبه فى قليل أو كثير ما قام به رجال القانون العام بإنجلترا فى القرن السابع عشر الميلادى من مناصرة البرلمان ضد الملك ، وذلك لأن المحامى الفرنسى بباريس لم يعرف غير القانون الرومانى ، وهو قانون زعيم بتأييد التاج وحقوقه فى أية مناسبة من المناسبات . ثم إن نظام المحاكم العلنية ، وهو النظام التيتوتونى الذى قام فى فرنسا زمناً ، وظل قائماً فى إنجلترا حتى العصر الحاضر ، لم يلق تشجيعاً فى الدوائر الفرنسية التى غلبت عليها محاكم التفتيش البابوية ، بل حلّ محله نظام المحاكمة السرية ، وهو ما يبدو أكثر ضماناً لكشف الجرائم وتوقيع العقوبات على المجرمين ، ولكنه لا يضمن للمتهمين شيئاً من الحماية فى مرحلة الاتهام ، وليس من العسير تحويله إلى أدنى ألوان الطغيان . والواقع أنه ليس فى الحوادث التى ساعدت على سعة الاختلاف بين تاريخ إنجلترا وفرنسا حادثة أعظم أهمية من محاكم التفتيش البابوية التى نشأت فى فرنسا ، ولم تستطع أن تصل إلى إنجلترا عبر المانش .

على أن موضوع الاختلاف بين تاريخ إنجلترا وفرنسا يتطلب العودة هنا إلى عهد الملك فيليب أجسطس الذى يعتبر المؤسس الثانى لمدينة باريس ، لأنه هو الذى رخص بقيام جامعتها ، وبنى كاتدرائية نوتردام (Notre Dame) ، وجعل لمدينة باريس شوارع ذوات أفاريز للمشاة ، وهياً لها المستشفيات والسقايات ، وأحاطها بدائرة واسعة من الاستحكامات الحربية ، ولم يبق شك فى أن باريس أصبحت عاصمة للحكومة الفرنسية .

لكن ما طراز الحكومة التى ينبغي أن تقوم فى فرنسا بعد وفاة فيليب أجسطس سنة ١٢٢٣ م ، ووفاة ابنه لويس الثامن سنة ١٢٢٦ م ، وقيام قاصر هو لويس التاسع الذى لم يبلغ سن الرشد إلا سنة ١٢٣٦ م ؟ كان لويس هذا قديساً متصوفاً ، ولم يشبهه ملك من ملوك عصره فى التشبع بالأفكار الشيوقراطية المشيئية ، أو الجود بالنفس فى سبيل فرنسا والكنيسة ، أو الاهتمام بالمشاكل التى تشتم منها رائحة الهرطقة والزيف عن الدين ، أو الإنصات لصوت العدالة وتناصف الناس ، فضلاً عن سمو شجاعته الشخصية ونقاها ، وثقابة آرائه وسدادها فى شئون الحكم ، بسبب خلوه من نزوات عصره . غير أن مبلغ الاحترام الذى تثيره هذه الصفات

نحو شخصية القديس لويس لا ينبغي أن تعمى المؤرخ المنصف. عن أخطائه السياسية والحربية ، إذا أثر لويس الرحيل عن فرنسا مرتين وهى فى حال من الحرج السياسى ، للقيام على رأس حملتين صليبيتين ، هلك فى إحداهما جيش فرنسى كبير بين جداول دلتا النيل ، وفى فى ثانيهما جيش آخر على شواطئ تونس وشمسها اللافحة . وذهبت مع الربح أعمال التقوى والحدود بالنفس والحرص على توزيع العدالة بالقسطاس تحت شجرة البلوط فى فانسن ⁽¹⁾ (Vincennes) ولم يغن ذلك كله شيئاً عن مزايا قيامه بنفسه على أداة حكومة نظيمة صالحة فى فرنسا ، ولم يعصم رعيته من صنوف الإرهاق المالى وألوان البؤس . ثم عاد القديس لويس من حملته الصليبية على مصر ليرى بعينه مدى القسوة التى قمعت بها السلطات الفرنسية فى غيبته ثورة الباستوروه (Pastoreaux) ، وهم قوم من بطن الريف الفرنسى أثار الفقر جنونهم ، وأحرق الحيف قلوبهم ، فصبوا جام كراهيتهم للنظام الاجتماعى المحيط بهم على طوائف القسس الناعمة البال . ومن سخرية التاريخ أن يقوم بناء كنيسة لاسانت شابل (La Sainte Chapelle) قبيل تلك الفورة ببضع سنين ، وأن تسطع روعتها الفنية المعمارية فى أرض طافحة بشقاء اجتماعى ذميم .

والخلاصة أن المناقب الخلقية التى تحلى بها القديس لويس - وهى مناقب تصلح للفراس النجيد لا السياسى الداهى - تضىفى على بيت كآبئه البهاء والجلال ، لا القوة والقسوة . ثم شاعت المقادير أن تجمع فى الملك فيليب الحميل (١٢٨٥ - ١٣٠٤ م) كل صفات المضاء والجرأة والصراحة والإلغاز ، مما لم يتوفر لحدته القديس لويس . فعلى حين عاش لويس ملكاً إقطاعياً بدا فيليب حاكماً قومياً . إذ أصدر لويس أوامره لمملكته التى تصوّرها إقطاعاً له ، وأذاع فيليب مرسوماته على دولة هى فرنسا من المحيط الأطلسى إلى البحر الأبيض ، ما عدا جيبن وجسقونيا التابعتين لإنجلترا . يضاف إلى ذلك أنه على حين تأصلت الروح الكنسية فى نفس لويس ، اضطبغت النظم المدنية التى طبقها فيليب على مملكته بروح علمانية ، بل روح مضادة للكنسية . وإذا جعل القديس لويس نصب عينيه تحقيق هدفين عظيمين ، وهما قداسته الشخصية وسعادة الرعية ، بقدر ما استطاع هو من تطويع وسائله لتحقيق ثانى هدفين ، جعل فيليب كل همه

(١) مقر ملوك فرنسا قبل باريس . زيادة .

تحقيق غرضين اثنين آخرين مهما كلفه الثمن ، وهما القوة والمال .
ومن ذلك يتضح أن ثمة شيئاً من العنف والقوة اقترن بسياسة ذلك الملك القوى
الذى شهد عهده خروج بقايا الصليبيين من الشام على يد سلاطين مصر من المماليك
سنة ١٢٩١ م ، كما شهد انهيار الآمال والأمانى التى ارتبطت بعظمة أيام
البابوية ، وبالحمولات الصليبية . ذلك أنه حل محل هذا وذاك استيلاء فردريك دوق
سوابيا (الإمبراطور فردريك الثانى) على أحد المجامع الكنسية فى القرن الثالث
عشر الميلادى ، وإلقاء فيليب الجميل القبض فى غير تردد سنة ١٣٠٣ م على
البابا بونيفاس الثامن ، بتأييد رجال القانون المدنى من الفرنسيين ، لاعتراض البابا
على ما للملك فى مملكته من حق فى فرض الضرائب على رجال الدين . والواقع أنه
ليس أبلغ دلالة على ما حدث من تغير فى روح ذلك العصر من قصة التدخل
البابوى فى مسألة الضرائب التى فرضها فيليب الجميل على رعيته من رجال الكنيسة ،
وإعلان البابا بونيفاس الثامن حين اشتدت ثورة الجدل أن للبابوية السيادة على
السلطة الزمنية - أى الملكية نفسها - ، ثم قيام فيليب الجميل بالقبض على ذات
البابا عنوة دون إثارة شىء من الاحتجاج الدينى فى فرنسا ، وإحراقه
القرارات البابوية على رموس الأَشْهاد ، واستدعائه مجلس طبقات الأمة لمؤازرته
ضد البابا الفضول المظفل الذى لا ينبغى أن يكون - على قول فيليب - سوى
أسقف روما .

وامتلاً سلوك فيليب الجميل نحو هيئة الفرسان الداوية بمثل ما تقدم من روح
علمانية صارمة لا تعرف الرحمة ، مع العلم بأنه لم يكن بينه وبين الفرسان سوى
أن الملك فى حاجة مالية شديدة ، والفرسان فى وفرة عظيمة من المال . وهذا هو السبب
الذى من أجله ارتكب فيليب من أصناف السرقة والقسوة ما يحكى - بل يفوق - ما اقترن
به الإصلاح الدينى (Reformation) من أعمال اللصوصية ، وما اتسمت به المذاهب
اليهودية فى أوربا من ألوان الهوان . غير أن حاجة الملكية إلى المال لم تكن التهمة الوحيدة
ضد تلك الهيئة الشهيرة التى عملت طويلاً فى سبيل نصرة المسيحية تحت سماء الشام
وجوها الحار ، وغدت بعد خروجها مع الصليبيين من الشرق مصرفاً مالياً (banker)
يقترض منه ملك فرنسا أو غيره بالفائدة . وبهذا جلبت الداوية على نفسها مقت
الحاسدين الذين أوغر صدورهم استقرارها بفرنسا لثئون المال فحسب ، على حين

بقيت هيئة الإستبارة بالشرق في خدمة الدين ، كما هالهم ما اقتنته الداوية من جيش خاص عدته ٢٠٠٠ جندي ، وما أضحت فيه هيئتها من مركز مالى ممتاز ، والملكية الفرنسية على شفا الإفلاس . وفى سنة ١٣٠٥ م قرر فيليب الجميل هدم تلك الهيئة ، فانطلقت الصيحة الملكية ضدها بأنواع التهم ، فقيل إنها خانت قضية المسيحية بالتآمر مع المسلمين ، وإن فرسانها هراطقة ملوثة أشخاصهم بما لا يوصف من الأدناس ، وهم يقيمون شعائر سرية تقشعر منها الأبدان ، ويصقون على الصليب إمعاناً فى الكفر بالمسيحية . وإذ خلا الجو لتلك الاتهامات أخذ الناس يصبون على الداوية من أخيلتهم سيلا لا مثيل له من الغمز واللمز والتشهير ، على حين حرّمهم فيليب الجميل من وسائل الدفاع عن أنفسهم ، بل عذب فئة من فرسانهم تعذيباً جعلهم يعترفون اعترافات قهرية من شدة الألم ، كما أعدم فئة أخرى حرقاً بالنار ، وما زال حتى أمر بحل هذه الهيئة بموافقة البابوية سنة ١٣١٢ م ، وحوّل مواردها الهائلة من المال والعقار للتاج الفرنسى .

أما الحاجة المالية التى دعت إلى هدم الداوية ، كما دعت إلى غيرها من وسائل السلب الجائر فى عهد فيليب الجميل - وعلى الأخص غش النقود مرة بعد مرة - فهذه دلت فى مجموعها على أن الملكية الفرنسية تريد أن تأخذ بأسباب الحكم الفعلى وأعبائه ببلادها . والواقع أن دراسة التشريعات المختلفة التى صدرت فى ذلك العهد توضح فى غير لبس جملة الأغراض التى استهدفها فيليب ، وهى ابتزاز الأموال من رجال الدين والإقطاعيين ، وإسناد شئون الحكم إلى موظفين من القانونيين الذين لا ينتمون إلى هؤلاء وإلى هؤلاء . وبينما تضاعفت أعداد أولئك الموظفين الملكيين ، أخذت هيئات الحكومة المركزية فى شىء من التخصص ، كما حدث فى إنجلترا المعاصرة ، فاختص البرلمان بالقضاء ^(١) ، وديوان المحاسبة (Cour des Comptes) ، بالأمور المالية ، وغدا مجلس طبقات الأمة أواخر عهد فيليب الجميل أداة تشريعية استثنائية لإشراك الطبقات الثلاثة الكبرى فى الدولة فيما يصدر عن السياسة الملكية من قوانين ذات شأن عام خطير . غير أن حكومة هذا الملك اتسمت بالظلم والشلوذ ومقت الناس ، إذ جمعت معظم الضرائب عن طريق التضمين ، ولم يصل إلى خزانة الدولة عن الأموال المتحصلة من دافعى تلك الضرائب إلا نزر ضئيل ، ولم توجد رقابة فريضة أو متصلة لمحاسبة الموظفين الملكيين . ومع

هذا كله ، وعلى الرغم مما أعوز الملكية الفرنسية وغيرها من الملكيات في العصور الوسطى من مراعاة الصالح العام ، ومراقبة الموظفين ، واستخدام العلوم الاقتصادية ، فإن حكومة فرنسية علمانية أوتوقراطية مركزة في شخص الملك — بقدر ما سمحت به أحوال تلك العصور — بدت واضحة المعالم في فرنسا على عهد فيليب الجميل .

وبينا اتجهت الملكية الفرنسية هكذا نحو طريق الحكم المطلق ، اتجهت إنجلترا عكس ذلك الطريق ، لأن النبلاء النورمانيين الذين أسهموا في فتح تلك الجزيرة الغنية ، وأمعنوا في نهبا ما استطاعوا إلى النهب سبيلا ، لم يظلوا طبقة أجنبية مترفعة على أهل البلاد إلا مدة قصيرة تصاهروا بعدها مع الأنجلو — سكسونيين . ثم إنهم امتزجوا بشعب عني لا يرضى بالخضوع طويلا ، وغدوا بعد قرن واحد من الفتح النورمانى يعتبرون أنفسهم إنجليزاً لا نورمانيين ، حتى إذا أخذ هنرى الثانى آخر ثورة إقطاعية ضد الملكية سنة ١١٧١ م ، اضطّر أولئك النبلاء اعتبار الحكومة الملكية حقيقة لا سبيل إلى إنكارها ، وأسهموا مع فرسان الأقاليم ونواب المدن بسهم في الاضطلاع بشئونها . وبهذا التحول في أحوال النبلاء النورمانيين ، من طبقة أجنبية منعزلة إلى طبقة أرستقراطية وطنية منسجمة مع سائر الطبقات ، زالت العقبة الكبرى في سبيل تكوين أمة إنجليزية موحدة ، حتى إذا دفعت الحماقة أحد الملوك — وهو حنا (١١٩٩ — ١٢١٦ م) — إلى الاستبداد قامت ضده ثورة شملت رجال الكنيسة والبارونات وأهل المدن . أما العهد الأعظم (Magna Carta) ، الذى انتزعه زعماء تلك الثورة من الملك حنا فى يونيه سنة ١٢١٥ م ، فهو أول القوانين العامة فى الدستور الإنجليزى ، وهو بحق حجر الزاوية فى بناء الحريات الإنجليزية . غير أن ذلك العهد الأعظم على أهميته فى تطوّر المنازعات البرلمانية فى القرن السابع عشر الميلادى لم يكن وثيقة ثورية أو منشوراً فلسفياً ، بل كان تقريراً مصداقاً لما للكنيسة والنبلاء وأهل المدن بجميع المملكة من الحقوق الإقطاعية والامتيازات ، لأن البارونات الذين حرّروا ذلك العهد لم يتغيّبوا وضع قانون جديد ، بل جعلوا غايتهم منّع الملك من انتهاك الحقوق الإقطاعية القائمة . ولم تكن الحرية عندهم على معناها فى العصر الحاضر . بل كانت الحرية التى قاموا لحمايتها هى حرية الامتيازات الإقطاعية والكنسية والبلدية ، وكان العهد الأعظم هو السياج الذى بنوه من عرف قانون الإقطاع ضد جموح الملكية .

ثم تراعى لبعض البرلمانيين فى القرن السابع عشر الميلادى أن العهد الأعظم

أساس التمثيل النيابي ونظام المحلفين ، مع العلم بأنه لا يذكر كلمة "البرلمان" ألبتة ، وهي على كل حال كلمة لم تستعمل إلا زمن الملك هنرى الثالث^(١) ، وإن كان من المعروف أن العهد الأعظم نصّ في المادة الثانية عشرة منه على "ألا يجمع الملك إعانات أو بدل خلعات حربية - بالإضافة إلى الأموال الإقطاعية المقررة - إلا بموافقة المجلس العام المكون من كبار رجال الدين والبارونات وكبار الإقطاعيين"^(٢) . ولم يذكر العهد الأعظم كذلك لفظ "المحلفين" ، وإن كان من المعروف أنه ورد في المادة التاسعة والثلاثين أن الرجل الحر لا يُقبض عليه ، ولا يُسجن ، ولا يجرّد من ممتلكاته ، ولا يهدر دمه ، ولا ينفى ، ولا ينال بأى ضرب من ضروب الإيذاء ، إلا بناء على حكم صادر من أسواقه ، على مقتضى قوانين البلاد^(٣) .

تلك ولا ريب مبادئ قانونية رفيعة ، وهي تدل استنتاجاً على استخدام نظام المحلفين في القضايا الجنائية في ذلك العصر ، بعد أن ثبت فساد الإجراءات القديمة في تحقيق الجنايات ، وهي الامتحان بالنار والاحتكام إلى السيف والمبارزة^(٤) ، وبعد أن أصدر مجمع اللاتران (أى المجمع البابوى) في روما سنة ١٢١٥ م قراراً بتحريم هذه الإجراءات . وجددير بالإشارة هنا أن نظام المحلفين في القضايا الجنائية يرجع أصله فيما يبدو إلى هيئة قديمة من العدول الذين يأخذون الأيمان على أنفسهم بألا يتهموا أحداً ظلماً وعدواناً ، وكانوا بمثابة القضاة بمحاكم الملوك الأنجلوسكسونيين .

الخلاصة أن العهد الأعظم وثيقة إقطاعية تحصى مخالقات الموظفين الملكيين ، وتسجل ما يجب أن يكون عايه الحال حسب قانون الإقطاع . وليس لهذه الوثيقة في العصر الحاضر سوى مالها من أهمية تاريخية ، فهي أول احتجاج قوى في التاريخ الإنجليزى ضد حكومة فاسدة . أما مدى هذا الاحتجاج وتفصيله وطريقة تحريره ،

(١) انظر مايل هنا ، ص ٢٩٨ . زيادة .

(٢) النص اللاتينى الأصل لهذه المادة الثانية عشرة من العهد الأعظم هو :

Nullum scutagium et auxilium ponatur in regno nostro, nisi per commune consilium regni nostri.

(٣) النص اللاتينى الأصل لهذه المادة التاسعة والثلاثين هو :

Nullus liber homo capiatur vel imprisonetur, aut disseisiatur, aut ultagetur, aut exuletur, aut aliquo modo destruatut nisi per legale iudicium parium suorum vel per legem terre.

(٤) انظر بعض تفصيل ذلك في كتاب التاريخ الإنجليزى تأليف راوس ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(مكتبة النهضة المصرية - القاهرة . ١٩٤٦ م) . زيادة .

فلا وزن له بالقياس إلى ما سبق ذلك من تفاهم وتعاون بين ستيفن لانجتون رئيس أساقفة كانتبرى ، وقادة الرأي السياسى من البارونات ، وعمدة لندن ، فى القيام بعمل مشترك لحساب الملك وإجباره على احترام القوانين ، والسهر على مصالح الرعية . ودل البارونات وشركاؤهم على عين الجدل حين أعلنوا أن أية مخالفة لمواد العهد الأعظم سوف تؤدى بهم إلى معارضة الملك ، ولو أدت هذه المعارضة إلى حرب أهلية ، وبرهنوا على مبلغ ذلك الجدل بالنص فى المادة الحادية والستين من العهد الأعظم على تعيين خمسة وعشرين منهم لمراقبة تنفيذ الشروط التى تعهد الملك بمراجعتها ، وإلزامه بتلك الشروط ولو انتهى الأمر إلى استخدام القوة ضده . ومن هذه المادة الطويلة التى اختتم بها هذا العهد الأعظم ما نصه على لسان الملك : " وإذا لم نقم بتصحيح ما عساه يقع من مخالفة ، أو إذا لم يقم قاضى القضاة بذلك فى حال غيابنا خارج المملكة ، وذلك فى مدة أربعين يوماً من تاريخ إبلاغ ما وقع من مخالفة إلينا ، أو إلى قاضى القضاة فى حالة غيابنا خارج المملكة . . . فنحن حق البارونات الخمسة والعشرين ، وجميع الناس بالمملكة كذلك ، أن يمحجزوا وأن يضيقوا علينا بكل الوسائل الممكنة ، وذلك بمصادرة جميع قصورنا وأراضينا وسائر ممتلكاتنا ، حتى يتم تصحيح ما وقع من مخالفة تصحيحاً يرضى عنه البارونات ، ولا يدخل فى ذلك إلحاق الأذى بشخصنا ، أو بشخص الملكة أو أولادنا . . . (١) " على أن موضع الأهمية هنا أن إطاعة الدستور على الصورة التى تمخض عنها العهد الأعظم ظلت ماثلة فى العقل الإنجليزى جيلاً بعد جيل ، وغدا العهد نفسه شعاراً تناوله الإنجليز بالتنقيح والتعديل ثلاث مرات ، فى السنوات العشر الأولى من عهد هنرى الثالث (١٢١٦ - ١٢٧٢ م) ، وجعل البارونات من المواد الثلاث الواردة فيه بصدد الغابات وثيقة مستقلة ، لتخفيف ما نجم عن قوانين الغابات من مظالم ، وهى القوانين التى أرهقت سكان الريف بإنجلترا أشد الإرهاق ، بالقياس إلى غيرها من القوانين التى استحدثتها الفتح النورمانى . وفى تلك السنوات

(١) النص اللاتينى الأصل للجزء المترجم هنا من هذه المادة الجريئة هو :

Et si nos excessum non emendaverimus, vel, si fuerimus extra regnum justiciarius noster non emendaverit, infra tempus quadraginta dierum computandum a tempore quo monstratum fuerit nobis vel justiciaris nostro si extram regnum fuerimus, predicti ... viginti quinque barones cum communia totius terre distringent et gravabant nos modis omnibus quibus poterunt, scilicet per capcionem castrorum, terrarum, possessionum, et aliis modis quibus poterunt, salva persona nostra et regine nostre et liberorum nostrorum..."

العشر الأولى من عهد هنرى الثالث، وهى سنوات الوصاية عليه قبل بلوغه سن الرشد، توخى أوصياؤه وليم مارشال وهيوبرت دى بر (Hubert de Burgh) حكم البلاد بروح العهد الأعظم، على عكس هنرى الذى لم يكد يتقلد أزمة الحكم حتى دلّ على غفلة غريبة، وجهل لا يصدق بتطور العقلية الإنجليزية. ذلك أن هنرى الثالث الذى اشتهر بالورع والتقوى والرقّة وسلامة الذوق، وهو صاحب الفضل فى بناء دير وستمنستر، كان فى ميدان السياسة العامة أعمى عنيداً، ناقضاً للوعود، شأنه فى ذلك شأن خلفه شارل الأول فى القرن السابع عشر الميلادى. وكره الناس فى هنرى الثالث دأبه على حشد البلاط الملكى بالأجانب. من أبناء سافوا بإيطاليا، وپواتو بفرنسا، وإغداقه الوظائف ذات الجاه والثروة عليهم فى غير حساب، كما كرهوا خنوعه للبابا، ولم يروا فيما طمع إليه من تنويع ابنه الصغير إدمند ملكاً على صقلية منبعاً لفائدة كبيرة تلمس الإنجليز، بل رأوا فيه منبعاً لمطالب مالية تبهظ جيوبهم. ثم تحول الكره إلى موجة من السخط. بسبب ما عكفت عليه الملكية والبابوية من استنزاف أموال رجال الدين، وتطور الأمر إلى مطالبة الإقطاعيين ورجال الدين معا بالإنصاف. قبل أن يقوموا بما عليهم من واجبات المساعدة للملكية، حتى إذا اجتمع البرلمان فى أكسفورد سنة ١٢٥٨ م أجبرت المعارضة هنرى الثالث على قبول حكومة تكون دفتها فى أيدي حزب البارونات، ونصت على قبوله ذلك النوع من الحكم فيما يسمى شروط أكسفورد (Provisions of Oxford)، فى التاريخ الدستورى الإنجليزى. بعد أن حصلت منه على قسّم باحترام تلك الشروط.

ولو رعى هنرى الثالث نص شروط أكسفورد وروحها لما وقعت حرب البارونات على عهده، غير أنه لم يقصد احترامها ألبتة، بل اعتمد على البابا فى إحلاله من قسم أقسمه مكرهاً من أجل المصالح البابوية، فضلاً عن مصالحه. ولذا لم يعم هنرى حتى وجد نفسه قبالة معارضة تؤيدها طوائف متعددة، وتزعّمها شخصية بارعة. وقال معاصر من المعاصرين فى حويلاته فى وصف تلك الحال إن رجال إنجلترا — يعنى بذلك طبقة المتوسطين من أهل الأقاليم — أضحووا ساخطين على البارونات وأساليهم الفاترة، كما أضحووا على أهبة — فيما بعد — لإيقاف تذبذب الملك بين الوفاء والنكث بالوعود. وانضم كثير من رجال الدين، وطلاب جامعة أكسفورد، وأهل المدن الحرة^(١)، إلى الحركة التى قامت بها تلك

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب، ص ٢٢٥. زيادة.

الطبقة لحماية البلاد من الحكم الاستبدادى منها كان مصدره ، فحمل الفرنسيون هذا اللواء إلى المدن والقرى . ثم تطور النزاع بين الملك والمعارضة إلى حرب أهلية ، وانبرى سيمون دى مونتفرت إيرل ليستر — وهو الأجنبي الفرنسى — لزعامة الحركة ، فهزم جيش الملك عند موضع شمالى بلدة لويس سنة ١٢٦٤ م ، وأسر الملك وولى عهده الأمير إدوارد . على أن هذا الانتصار الرائع لم يؤدّ إلى خلع الملك ، بل اقتصر على إلزامه أمام الأمة — مجتمعة فى البرلمان — بحكم البلاد وفقاً لما ينصح به مجلس من البارونات ، مما يدلّ على أن تلك الحرب الأهلية فى إنجلترا اتسمت بطابع الاعتدال . (١)

والواقع ليس فى التاريخ الإنجليزى حادثة استغلها رجالها — لإثارة الإعجاب العام — استغلال سيمون دى مونتفرت انتصاره على الملك هنرى الثالث وولى عهده الأمير إدوارد فى ميدان القتال ، مع العلم بأن البرلمان الذى عقده سيمون فى وستمنستر فى شهر يناير ، سنة ١٢٦٥ م ، غدا منقطع النظر بين البرلمانات الإنجليزية ، حتى منتصف القرن الثالث عشر الميلادى ، وهو لا ريب من الناحية الدستورية بداية عصر جديد . ذلك أن برلماناً سابقاً لم يجتمع لمثل الغرض الخطير الذى اجتمع له برلمان سيمون ، بل لم يستطع برلمان سابق أن يشبهه فى سعة النيابة عن الأمة الإنجليزية ، لأن سيمون استدعى لحضوره نائين من كل إقليم وكل مدينة ، وذلك بالإضافة إلى الذين استدعاهم من رجال الدين والبارونات ، والراجع أن تمثيل المدن كان من مستحدثات سيمون . وشهد الأمير إدوارد ذلك البرلمان الشامل ، وأقسم مكرهاً كما أقسم أبوه أمام حزب الدستوريين أن يحترم الصلح الذى أعقب الهزيمة الملكية ، وارتسمت فى عقله الواعى صور ما تنطوى عليه الجماعات البرلمانية من معنى وقوة ، مما كان له أكبر الأثر فى التطور البرلمانى بإنجلترا أواخر القرن الثالث عشر الميلادى . ذلك أنه بعد سقوط سيمون دى مونتفرت ومقتله فى معركة إيفشام (Evesham) ، سنة ١٢٦٦ م ، على يد الأمير إدوارد ، بدت الأعمال التى قام بها ذلك الزعيم لتأسيس الحكم البرلمانى كأنما ذهبت مع الريح ، فتلقفها إدوارد وأعادها سيرتها الأولى ، حين اعتلى عرش إنجلترا سنة ١٢٧٢ م . ثم تقدم

(١) تشير هذه العبارة إلى أول أزمة سياسية تطلب علاجها تطبيق المادة الأخيرة من المهد الأعظم . انظر ما سبق هنا ، ص ٢٩٦ . زيادة .

الملك إدوارد بالحكم البرلماني خطوات واسعة ، في كثير من الفطنة والروية والاطمئنان ، اعترافاً منه بأفضال سيمون الذي ظلت ذكره في عقول الإنجليز مثالا للبطولة والاستشهاد الخالص في سبيل الحرية . والملك إدوارد الأول هذا (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) عند الإنجليز شبيه بالإمبراطور جستنيان في الإمبراطورية البيزنطية ، إذ امتلأ عهده بنشاط تشريعي لم تشهد إنجلترا مثله في تاريخها إلا مرتين ، إحداهما في عهد هنري الثامن ، والأخرى في عصر كرمويل والكومنولث ، قبل صدور قانون الإصلاح النيابي المشهور سنة ١٨٣٢ م ، وهو القانون الذي فتح أبواب التشريعات النيابية على وسعها في القرن التاسع عشر الميلادي .

وأهم تشريعات هذا الملك الفطين الشغول قانون الشهر الإقطاعي (De Donis Conditionalibus) ، الذي يعتبر أساس القواعد المتبعة في تنظيم انتقال الأراضي في القانون الإنجليزي ، ثم قانون الموارث الحشرية (Act of Mortmain) الذي حرّم الكنيسة من كثير من أراضيها ، وقانون الإقطاع (Quia Emptores) الذي منع ثنية الإقطاع أي تجزئته إلى إقطاعات صغيرة ، وبذا قلل إدوارد من خطر الإقطاعات الكبرى . على أن أعظم ما جعل إدوارد جديراً باسمه العظيم أن البرلمان بلغ على عهده مرحلة النضج والتّمام ، وغدا أداة ثابتة لتنظيم شئون الدولة . أما سبب هذا التغير المفاجئ في سبيل الحكم ، فليس مرجعه انقلاباً إلى نظرية سياسية جديدة ، أو تطوراً في التفكير السياسي ، أو ثورة في الرأي العام ، بقدر ما لهذا التعبير الحديث من معنى في العصور الوسطى ، بل مرجعه إحساس عملي في نفس إدوارد الأول بفائدة السير على نمط قوى في معالجة المسائل القومية ، في جمع يشمل نواب الأمة . ولعل السرّ في ذلك كله أن اتساع التجارة الإنجليزية ، والتبادل التجاري مع البلاد المجاورة ، وامتداد السياسة العامة إلى شئون مختلف الطبقات ، وازدياد المطالبة بتوفير وسائل العدل والأمن والإدارة بين الناس ، صير موارد الدخل الإقطاعي غير كافية ألبتة لأبواب الصرف التي أضحت سدّها لازماً على الحكومة . والواقع أن الإيراد الذي جمعته الحكومة من الإعانة وأشباهها من الضرائب الإقطاعية ، وأهمها البدل والتقدّم والحلوان (auxilium, scutagium, relevium) ، لم يعد كافياً في عصر جعل إيراد التاجر الإنجليزي من تجارة النبيذ أو الصوف يزيد عن جميع ما يدخل خزانة البارون أو سيده الإيرل من الإيجارات الإقطاعية . ومعنى ذلك أن

حاجة الملك إدوارد الأول إلى إيراد قوى أرشدته إلى أهمية طوائف التجار ، كما أرشدته إلى ضرورة الحد من ضخامة المساحات الزراعية التي في حوزة الكنيسة ، وهذه الحاجة هي التي أبلجته إلى دعوة البرلمانات على صورة قومية .

غير أن النظم التي سارت عليها هذه البرلمانات ظلت ماثلة لا تستقر على حال ثابتة ، لأن كلمة برلمان مثلاً - ومعناها الكلام والمناقشة وتبادل الآراء - انطلقت في الأصل على أى اجتماع للمجلس الملكي الكبير ، سواء كان الاجتماع لشئون قضائية ، أو تنفيذية ، أو تشريعية ، أو مالية . ثم اقتضت هذه التسمية على المجلس في وظيفته التشريعية وهيئته المزيّدة بنواب الأقاليم والمدن والبلاد ، وأول هذه المجالس ما يعرف باسم البرلمان النموذجي الذي انعقد سنة ١٢٩٥ م ، وحضره كبار رجال الدين والإيرلات والبارونات والقضاة ، بدعوة خاصة لكل واحد منهم باسمه ، كما حضره عن كل إقليم اثنان ، وعن كل مدينة وكل بلد (borough) اثنان ، بناء على دعوة عامة يقوم بتبليغها نواب الملك في تلك الجهات ، وأولئك فضلاً عن عدد من الممثلين لصغار رجال الدين الذين جرى العرف بدعوتهم ضمن الدعوة الموجهة لرئيس أساقفة كانتربري ويورك . غير أن حضور الممثلين لصغار رجال الدين تضاعف رويداً رويداً ، بسبب توفر تلك الفئة على شئون الكنيسة ، حتى إذا كان الإصلاح الديني في القرن السادس عشر الميلادي لم يبق أحد من رجال الدين بمجلس النواب .

على أن موضع الأهمية هنا أن مجلس النواب المنفصل عن مجلس اللوردات بالمعنى البرلماني الحديث ، لم يوجد على عهد إدوارد الأول ، كما لم توجد النظم البرلمانية التي تحتم تقديم مسألة من المسائل في صورة مشروع قانون للمناقشة والتصويت في كل من المجلسين ، ثم إعلان التصديق الملكي في مجلس اللوردات . حيث يتلو كاتب المجلس صيغة التصديق وهي " الملك يوافق " (Le Roy le veult) ، بحضرة رئيس مجلس النواب المائل مع هيئة مكتب مجلسه أمام حازر اللوردات ، حتى إذا سمع اللوردات هذه الجملة ، رفعوا جميعاً قبعاتهم العالية ، دليل الاستحسان والتأييد . أما انفصال البرلمان إلى مجلسين فيرجع إلى القرن الرابع عشر الميلادي ، وأما نظام تقديم المسألة من المسائل في صورة مشروع قانون ، فهو من مبتكرات القرن الخامس عشر الميلادي . ولذا كان معظم أعمال البرلمان على عهد إدوارد الأول ليس التشريع ، بل الموافقة على ما يطلبه الملك من الاعتمادات المالية ، والنظر في

العرائض المرفوعة إلى الملك .

وعن طريق هذه العرائض جاءت آلاف من المسائل الهامة وغير الهامة إلى ذلك المجلس العظيم الذى غدا اسمه " البرلمان " ، فـا كان منها بحاجة إلى مشورة القانونيين أحيل إلى الأعضاء من القضاة ، كما أحيلت العرائض الخاصة بالمال إلى موظفى المالية ، أى أن اجتماع البرلمان هياً الوسيلة لتصفية شئون المملكة ، مثل فحص الشكاوى المحلية ، وفض المنازعات القروية ، وتأدية الضرائب المتأخرة ، وإزالة الأحقاد بين العائلات الكبيرة ، واستقبال السفراء الأجانب ، وتحرير المعاهدات مع الدول ، وفحص الكثير من الدعاوى القضائية . ذلك لأن البرلمان لم يخرج عن كونه المجلس الملكى القديم فى صورة جديدة ، والمجلس الملكى هو المحكمة النهائية العليا فى المملكة . على أن الصفة القضائية التى لزمتم البرلمان الإنجليزى أدت إلى نتائج تشريعية هامة ، وهى أنه لما كان البرلمان وقتذاك فى أول نشأته ، وعامة أعضائه يأتون إليه فى غير خبرة بالقانون ، ويحضرون جلساته إلى جانب القانونيين القائمين على شئون القضاء فى المملكة ، غدا أولئك القانونيون أصحاب النفوذ الأعظم فى جميع التشريعات التى عاشت إنجلترا على مقتضاها فى العصور الوسطى . والدليل على ذلك ما تتسم به القوانين الإنجليزية فى تلك العصور من صفات الدقة والحرص والمحافظة ، مع الخلو من العبارات البلاغية الفارغة ، والأساليب الخطائية الجوفاء .

وفى أواخر عهد إدوارد الأول دلت مواقف الناس من مطالب الملك ، كما دلت مواقف الملك من مطالب الناس ، على عظيم احترام القانون والعرف الدستورى ، وهو ما أضحى متغلغلا فى صميم الحياة السياسية الإنجليزية . ذلك أن إدوارد الأول عاش ملكاً قوياً صريحاً محبوباً ، ولكنه ظل كذلك ملكاً صارماً طامعاً ، لا يحسب لوسائله أى حساب ، حتى إذا جاءت سنة ١٢٩٧ م ألفى إدوارد نفسه قبالة رفض رجال الدين تأدية ضريبة من الضرائب حتى توافق البابوية ، وقبالة احتجاج البلاد ضد قسوة الحياة فضلاً عن امتناع بعض البارونات البارزين عن الخدمة الحربية خارج إنجلترا . وحينئذ أدرك الملك أن لحقوقه الملكية حدوداً إذا تعداها تعرض للخطر ، واضطر إلى تعديل موقفه بإزاء تلك المسائل ، كما اضطر إلى التصديق على بعض العهود التى سبق له منحها للمدن ، والموافقة على إصلاح الإدارة الحكومية ، والإقرار بأنه لا يستطيع رفع المكوس المعينة على التاجر ، أو زيادة الإعانات والهبات الإقطاعية ، إلا برضى البرلمان مجتمعاً فى مجلسه .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Davis, (H.W.C.) : England under the Normans and Angevins. 1905.
 Hutton, (W.H.) : Philip Augustus. 1896.
 Lavisce, (E.) : Histoire de France. 1903.
 Luchaire, (A.) : Social France at the Time of Philip Augustus. Tr. E. Krebhiel. 1912.
 Maitland, (F.W.) : Memoranda de Parlamento. (Rolls Series). 1893.
 McKechnie : Magna Carta. 1905.
 Perry, (F.) : Louis IX. 1901.
 Petit - Du Taillis, (C.) : La Monarchie Féodale en France et en Angleterre. 1899.
 Stubbs, (W.) : Constitutional History of England. 1880.
 Tout, (T.F.) : Edward I. 1893.

الفصل التاسع عشر

بلاد الغال واسكتلندا وأيرلندا

مدى سلطان إنجلترا في بلاد الغال زمن الملك إدوارد الأول - تسوية هنري تيودور النزاع بين إنجلترا والغال في القرن الخامس عشر الميلادي - العوامل الفعالة في تكوين اتحاد اسكتلندي - سياسة إدوارد الأول في سبيل ذلك الاتحاد - نمو الشعور القومي في اسكتلندا - عظمة اسكتلندا بعد اتحادها مع إنجلترا - مأساة أيرلندا - أثر الحرب ضد اسكتلندا وفرنسا في السياسة الإنجليزية بأيرلندا .

جعل إدوارد الأول ملك إنجلترا (١٢٧٢ - ١٣٠٧ م) إخضاع الغال واسكتلندا أهم ركن من أركان سياسته ، وهو أول ملوك إنجلترا في ذلك المضمار . ومن ثم - بل منذ ١٢٥٩ م - أضحى توحيد الجزيرة البريطانية تحت التاج الإنجليزي موضع عناية متصلة ، أي من ١٢٥٩ إلى ١٣٣٨ م ، وهي المدة التي تفصل بين مرحلتين من مراحل الحروب الإنجليزية في أرض الفرنسيين . ففي بلاد الغال امتازت العمليات الحربية التي قام بها إدوارد الأول بالمهارة ، كما تكلفت بالفوز ، إذ استولى على إقليم سنودونيا الجبلي ، وأسس منه إمارة إنجليزية تكون دائماً لولى العهد في إنجلترا ، بعد أن قسم الغال كله إلى مقاطعات على نسق المقاطعات الإنجليزية ، وحصّن وديانه بسلسلة من القلاع المنيعة ؛ وبهذا هدم إدوارد الأول إمارة الغال الشمالية ، وهي إمارة خوينيد (Gwynedd) التي كانت منذ أيام خلولين الكبير (Llewellyn) قلب الغال النابض ، ومركز القبلية والتقاليد الكلتية .

كذا استطاعت إنجلترا أن تبنى لنفسها سلطاناً سياسياً ممتازاً في ناحية هامة من تلك البلاد ذات الوديان الضيقة والتلال الوعرة ، ولكنه ظلّ سلطاناً محدوداً بصورته الجغرافية ، فبقيت معظم القبائل الكلتية على حروبها القبلية في صياصي الجبال وأفواه الدروب ، وامتدت حروبها بين حين وآخر إلى أطراف

الإمارة الإنجليزية ، فأشعلت النار وأعملت السيف في الوديان التي بذل بارونات تلك الأطراف جهداً جهيداً في فلاحها ونشر اللسان الإنجليزي بين أهلها ، أملاً في الاستقرار بها والزواج من نساء بيوتها . وبرغم ما قام به أولئك البارونات بقي أهالي جبال الغال على حالهم ، كما وصفهم جيرالد الكامبرنسي^(١) . أواخر القرن الثاني عشر الميلادي ، وهو من الذين جرت في عروقهم دماء الغالين والنورمانيين ، إذ قال إن " الغالين شعب سريع التنقل ، ناشط الحركة ، قوى العزيمة لالبنية ، قديم الخبرة منذ حدائنه بحمل السلاح ، لأن المران في فنون القتال لم يكن وقفاً على النبلاء فحسب . بل شمل جميع الناس ، حتى إذا نادى منادى الحرب هرع إليه الفلاح من مزرعته ، كما يهرع النبيل من قصره . والغالون يعيشون على اللحم واللبن والخبز أكثر مما يعيشون على الخبز ، ولا يهتمون بالتجارة وركوب البحار والصناعة ، بل يهتمون بالصيد والقتل والدربة على القتال ، ويصرفون في ذلك أوقات فراغهم ، مع الإقبال الشديد على معرفة وسائل الدفاع عن بلادهم وحررتهم ، وهما اللتان من أجلهما يحاربون ويتحملون الصعاب ، وفي سبيلهما يحدون بأرواحهم ، ويموتون عن طيب خاطر ، ويعتبرون الموت بين أهلهم عاراً كبيراً ، والتردد في حومة الوغى شرفاً عظيماً " .

لذا لم يكن عجباً أن تعجز انتصارات إدوارد عن أن تغير شيئاً من روح العناد المتغلغل في نفوس الغالين ، برغم ما أعقب تلك الانتصارات من تدابير كفيلة بتهدئة الخواطر وإقرار السلام . إذ عاش الغالي في صميم نفسه — كما وصفه جيرالد — ميالاً للحروب في كثير من الطيش ، غيور النفس ، بليغ اللسان ، شديد الإحساس بما يمس شرف عائلته ، سريع الغضب والانتقام لأية إهانة تلحقه ، غير مسرف في طعامه أو شرابه ، خبيث السريرة ، طويل الباع في الدسيسة ، عظيم الولع بالشعر والغناء . غير أنه مما لا شك فيه أن الحضارة الأنجلو - نورمانية التي امتدت إلى بلاد الغال من الأديرة الغالية الشهيرة . ومن قصور بارونات الأطراف ، أثرت بعض الأثر في أولئك القوم الذين امتلأت حياتهم بالحروب وأغاني الحروب ، ولا سيما بعد أن تزوجت عائلات إنجليزية بعائلات غالية في أقاليم الأطراف ، وحارب الرماة الغالون والمزارعون الإنجليز جنباً إلى جنب ضد الفرنسيين في القرن الرابع عشر الميلادي . وإلى الرماة الغالين — وهم

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢١٤ . زيادة .

الذين اخترعوا القوس الطويل - يرجع معظم الفضل في تحقيق الفوز للملك إنجلترا ، في فرنسا . ثم التحق كثير من نبلاء الغال بجامعة أكسفورد ، كما درس بعضهم القانون في دور الحقوق بلندن ، مثل أوين جلندور . وهكذا أخذت بلاد الغال كل ما استطاعت إنجلترا أن تعطيه ، ومع ذلك ظلت تلك البلاد مختلفة عن إنجلترا اختلاف الجبل عن السهل ، حتى إذا استقرت الحياة السياسية في إنجلترا تمام الاستقرار ، بقيت الغال مرجلاً يمحور بالأحقاد القبلية في غير انقطاع . وكان لتلك الحال من التأثير في سياسة إنجلترا الداخلية مثلما كان للحزبية الأيرلندية في السياسة الإنجليزية في القرن التاسع عشر الميلادي ، حين كادت حوادث أيرلندا تؤدي بإنجلترا إلى حرب أهليه . والواقع أن الروح الحربية التي ملأت أقاليم الأطراف الغالية ، كما ملأت بلاد الغال نفسها ، هي التي أوقدت حرب الوردتين في إنجلترا . ولم تزل تلك الحرب متأثرة بما بين إنجلترا والغال من الضغن حتى أنهاها وأنهى ضعفها انتصار أحد الغاليين ، وهو هنري تيودور في وقعة بوزورث ، سنة ١٤٨٥ م . وبفضل ذلك الانتصار صارت الملكية في إنجلترا إلى أسرة غالية - هي أسرة تيودور - قرناً ونيفاً من الزمان ، وأضحت الغال جزءاً من النظام البرلماني الإنجليزي ، كما أضحت إنجلترا ذاتها بفضل التيودوريين دولة بروتستانتية . ومن المعروف في التاريخ المعاصر أن وزيراً غالياً - لويد جورج - هو الذي قاد سفينة الإمبراطورية البريطانية إلى النصر في الحرب العالمية الأولى ، ١٩١٤ - ١٩١٨ م .

أما مشكلة اسكتلندا ، فاختلقت عن مشكلة الغال في ناحية هامة ، وهي أن جميع اسكتلندا جنوبي المناطق الجبلية وشرقيها تعتبر جزءاً من نورثمبريا الإنجليزية ، من حيث التكوين البشري والنظام الحكومي والعادات المرمية ، إذ يتألف سكان نورثمبريا ومملكة اسكتلندا عامة من الأنجلو - سكسونيين والنورمانيين الذين امتزجوا بالجماعات الكلتية الأصلية امتزاج القوى بالضعيف ، بعد إخضاعهم تلك الجماعات شمالي تلال شقيوت وجنوبيها . وتملك النبلاء من أولئك القوم الأنجلو - نورمانيين معظم الأراضي على جانبي التلال الفاصلة جغرافياً بين إنجلترا واسكتلندا ، وحظي القانون الأنجلو - نورمانى ومؤلفاته في إديره بالاحترام الذي حظى به في لندن . ومن الدليل على ذلك أن دافيد الأول ، وهو من أذكى ملوك اسكتلندا - وهو كذلك ابن أميرة إنجليزية - ، عمل على تهذيب رعاياه بتلقينهم

شيئاً من مظاهر الحضارة الراقية التي اتصف بها أهل البلاد الواقعة جنوبي تلال شقيوت. ونجح دافيد في عمله هذا نجاحاً يدل عليه أن المسافر من يورك إلى إدنبره، منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، لا يلحظ بين أهل المدينتين من الفروق - في اللهجة أو المظهر أو السلوك أو المعمار الحربي والديني - ما يشعر أنه في سفره يعبر إقليماً إلى إقليم بين أهلها عدااء مستحكم الحلقات .

ولذلك التشابه الكبير بين إنجلترا واسكتلندا بدا اتحادهما السياسي أمراً طبيعياً لازماً ، بل هو ألزم من اتحاد إنجلترا والغال ، أو إنجلترا وأيرلندا، أو إنجلترا وجسقونيا . واستهدف إدوارد الأول تحقيق هذا الاتحاد حين عقد مع الاسكتلنديين معاهدة برنجهام سنة ١٢٩٠م، على أن يتزوج ابنه وولي عهده من الوارثة للعرش الاسكتلندي، وهي مارجريت النرويجية^(١)، وأن تنصوي المملكتان بعضهما إلى بعض، على أن تحتفظ كل منهما بحقوقها وتقاليدها . ومن الواضح هنا أن معاهدة من معاهدات العصور الوسطى لم تبلغ ما بلغت هذه المعاهدة من الحكمة والبصيرة ، ولو أنها تنفذت لتجنبّت إنجلترا أجيالاً من الحروب على طول أطرافها الشمالية ، ولتخلصت إسكتلندا من الفاقة الطاحنة التي ترتبت على التزامها سياسة الانفصال في كبرياء وعناد . على أنه لم يكتب لتلك المعاهدة أن تنفذ ، إذ ماتت عادة النرويج غريقة في عرض البحر، قبل أن تصل إلى عرشها الاسكتلندي أو إلى زوجها الإنجليزي ، وأضحت معاهدة برنجهام ورقة مهمة ، واضطر إدوارد الأول أن يعتمد إلى وسائل أخرى مريبة لتحقيق هدفه .

ودلّ ما حدث من الحوادث بين إنجلترا واسكتلندا بعد ذلك على ما اتّسمت به كل حكومات العصور الوسطى من ظواهر الضعف في الحكم ، والعجز عن كبح الفساد ، وسوء الإدارة بين ولاة الأطراف النائية . وأول تلك الحوادث مطالبة ثلاثة عشر نبيلاً من نبلاء الاسكتلنديين بالعرش الاسكتلندي ، بعد وفاة عادة النرويج ، ودعوتهم إدوارد الأول أن يقوم بمهمة التحكيم بينهم ، وهي مهمة لا يحسد

(١) العلاقة بين هذه الأميرة النرويجية والعرش الاسكتلندي أن ملك اسكتلندا إسكندر الثالث (١٢٤٩ - ١٢٨٦ م) لم يخلف سوى بنت واحدة اسمها مارجريت ، فصارت وريثة عرشه . وتزوجت هذه الابنة من ملك النرويج ، فأنجبت له بنتاً هي مارجريت النرويجية هذه . ثم ماتت ملكة النرويج ، وهي وريثة العرش الاسكتلندي كما تقدم ، ومات بعدها أبوها إسكندر الثالث سنة ١٢٨٦ م ، وبدا صارت مارجريت النرويجية - أو عادة النرويج على قول المعاصرين - الوريثة الوحيدة للعرش الاسكتلندي . زيادة .

عليها أحد. وحكم إدوارد - في غير سوء نية - أن حنا باليول أحق المطالبين بالعرش الاسكتلندي ، بما فيهم روبرت بروس الذي اشتهر بصداقته للإنجليز . وبناء على ذلك الحكم تتوج باليول ملكاً على اسكتلندا ، بعد أن حلف يمين الإخلاص والتبعية الإقطاعية لإدوارد . غير أن باليول لم يلق من إدوارد ما يجعله يستريح بحمد ولي نعمته ، إذ اعتبره إدوارد دُمية تجب عليها الطاعة للتاج الإنجليزي ، فنارت نائرة باليول وأعلن العصيان ، وجاء إدوارد إلى اسكتلندا في قوة كبيرة ، فأخذ النائرة واستولى على البلاد ، وجعلها ولاية إنجليزية سنة ١٢٩٦ م .

وربما ظلت اسكتلندا على شيء من الولاء للتاج الإنجليزي بعد ذلك التاريخ ، لولا ظلم ولاية إدوارد واستبدادهم . ذلك أن أهل البلاد الاسكتلندية من رجال السياسة والدين لم يروا في التبعية الإنجليزية شيئاً محضاً ، ولم يكن لاسكتلندا حتى ذلك الوقت أدبيات قومية ، كما لم يكن بين أهل إنجلترا وأهل جنوب اسكتلندا من الفروق ما يشبه ما بين أهل الجبال الاسكتلندية في أرجايل وإنفرنس باسكتلندا نفسها من فروق. لكن ظلم ولاية إدوارد واستبدادهم ولّد روحاً ثورية جديدة بين الاسكتلنديين ، فهبوا ضد غزاتهم الإنجليز ، ووجدوا في وليم ولاس زعيماً موهوباً لقيادة الثورة ، وهو رجل جديد لم يعرف الناس عنه إلا قليلاً حتى سنة ١٣٠٥ م ، حين أُلقت به الحوادث الصاخبة إلى مسارح التاريخ الاسكتلندي .

وفي وسط هذه الحوادث كان مولد الأمة الاسكتلندية التي أضحت حقيقة ذات أهمية كبيرة ، في تاريخ إنجلترا والإمبراطورية البريطانية ، ولا تزال ذكرى وليم ولاس زعيم حرب العصابات ضد الإنجليز ، وذكرى روبرت بروس ملك اسكتلندا (١٢٧٤ - ١٣٢٩ م) ، ماثلة في أذهان الاسكتلنديين حتى العصر الحاضر ؛ وهما ولا ريب أصحاب الفضل في بناء استقلال اسكتلندا . لكن الباحث عن الفائدة التي عادت على اسكتلندا من ذلك الاستقلال الذي حصلت عليه بشجاعتها الرائعة ، وكسبته بانتصارها العظيم في وقعة بانوكبيرن سنة ١٣١٤ م ، لا يجد إجابة مقنعة لسؤاله ، لأن تاريخ اسكتلندا بعد استقلالها صفحة تموج بالشحناء والاضطراب ، ولأن عظمة اسكتلندا - إذا قيست بعدد ما أنتجت من عظماء السياسيين والعسكريين والمفكرين واللاهوتيين والفنانين والمؤلفين - ترجع لا إلى عهدها بالاستقلال والحرية والعزلة ، بل إلى العصر الذي أعقب اتحادها مع إنجلترا تحت حكم الإستوارتيين ، وشهد تقدم أهلها خطوات دائبة في الفنون

والأعمال المؤدية للسلام ، منذ أوائل القرن السابع عشر الميلادي .
 تنتقل هنا إلى التاريخ الأيرلندي ، وهو تاريخ مأساة خلاصته أن أيرلندا تعرضت للغزو مرة بعد مرة ، دون أن يستطيع غازي من غزاتها أن يخضعها لحكمه مرة واحدة . ولذا لم تستقم للإيرلنديين فرصة يبنون فيها حضارة مستمدة من وحي تفكيرهم وشعورهم ، ولم تحملهم حادثة من الحوادث على الرضوخ لأجنبي يكون أكثر منهم قوة وأحسن ثقافة . ولذا ظلّ الشعب الأيرلندي — وهو شعب على جانب من الذكاء وسوء الحظ — يطوى القرون تلو القرون من تاريخه ، والجزيرة الأيرلندية لا يقربها إلا أشباه الفاتحين ، بل وقفت الدولة الرومانية منها عند جزيرة أنجلسى بغرب الغال ، بعد أن رأى الرومان أنه ليس من الحكمة أن يعبروا البحر الأيرلندي . وهكذا كان من سوء حظ أيرلندا ألا تنعم بنعمة الطرق الرومانية ، أو تتلذذ طعم السلام الروماني . ثم اعتنق الأيرلنديون المسيحية على يد القديس باترك (٤٣٢ م) ، فأكسبتهم ديانتهم الجديدة حوافر روحية جعلت منهم — في أظلم مراحل التاريخ الأوربي — أول أنوار الثقافة المسيحية . غير أن أيرلندا لم تظلّ طويلا مصدر النور والعرفان ، إذ أرخى ليل الجهالة سدوله عليها مرة أخرى حين غزاها اللدانيون ، وعفّت الهمجية اللدانية على كل ما اتسمت به حياة المجتمع الأيرلندي من نور وبهاء ، كما أضحت أيرلندا — عدا مدنها الساحلية — قفورا موحشة .

ثم أتى على أيرلندا حادث شاعت المقادير أن يكون ذا أثر دائم في مصاير الأيرلنديين ، وهو فتح النورمانيين لإنجلترا ، ودلّ النورمانيون كما هو معروف على أنهم بالقياس إلى غيرهم أقدر الأجnas الفاتحة على تنظيم الفتوح وتحويلها إلى مراكز حضارية . لكن النورمانيين لم يلتفتوا إلى أيرلندا ، لاهتمامهم بصقلية ونورمانديا وأنجو وإنجلترا نفسها ، حتى إذا حولوا بعض جهودهم زمن الملك هنري الثاني^(١) إلى مشروع فتح أيرلندا ، بتشجيع رسمي من لدن البابا هدریان الرابع — وهو البابا الإنجليزى الوحيد في تاريخ البابوية — لم يستطع هنري القيام على ذلك المشروع لانصرافه إلى شئون إمبراطوريته الأنچوية المترامية الأطراف . لذا قام على تنفيذ ذلك المشروع بعض المغامرين الشجعان من الأنجلو — نورمانيين ، إشباعاً لروح المغامرة والشجاعة ، أى أن الأمر لم يتعدّ المغامرة والقتال ؛ وهكذا ولّرة أخرى كان فتح الجزيرة الأيرلندية ناقصاً كل النقصان .

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٢٨٦ . زيادة .

غير أن الأنجلو - نورمانيين الذين ذهبوا إلى أيرلندا بقيادة أحد أولئك المغامرين - وهو رتشارد دى كلير - كانوا من خيرة الجنود ، فلم يستطع الأيرلنديون الذين أذهبت قوتهم الأحقاد القبلية ، وأضاعت مقاومتهم قلة الدروع الواقية للأجسام ، إلا أن يقعوا فريسة سهلة أمام فئات من الجند المدرعين المارين على القتال في أكبر ميادين الحرب في ذلك العصر . ثم لم تلبث المدن الإستراتيجية (١) أن صارت إلى أيدي عصابات من المغامرين الأنجلو - نورمانيين ، ومنذئذ بدأت المتاعب الحقيقية للغالبين والمغلوبين ، إذ أضحي الغالبون أصحاب الأراضي الأيرلندية ، وتزوج كثير منهم نساء أيرلنديات ، كما تعلم معظمهم اللسان الأيرلندي . وانطبع أولئك الغالبون - آل بتلر ، وفترجرالد ، ودى كورسيه ، ودى بره - بطابع ما حاطهم من مناظر أيرلندا وأنعامها وبيئتها ، وأخذوا يصطبغون بصبغة الأيرلنديين ؛ وبذا تكررت القصة القديمة التي تقول بأن الغالب يغدو أحياناً أسيراً للمغلوب . أما أيرلندا القديمة وأهلها المغلوبون ، فظلت على حالها وقوانينها كما كانت قديماً ، من حيث العرف والعادات القبلية ؛ وبقي الأيرلنديون على لغتهم وأديباتهم ، تحدهم بقية بغية من الوحشية والهمجية - أى أن أيرلندا بقيت حية - برغم ما ذهب عنها من عنجهيتها القديمة ، بعد أن أضحت خاضعة للأنجلو - نورمانيين .

غير أن أولئك الأنجلو - نورمانيين لم يستطيعوا أن يغيروا شيئاً من صفات الأيرلنديين ، بل كان أقصى ما استطاعوا أنهم أصبحوا في أيرلندا طبقة أرستقراطية . لا هي إنجليزية كأصلها ، ولا أيرلندية بحكم بيئتها ، بل خليط وسط في صفاته ومكانته بين الاثنين . واشتهرت هذه الأرستقراطية الأيرلندية بكثرة الاضطراب الفكري ، وكثرة التغيّب عن أيرلندا ، كما اشتهر ملوك إنجلترا بعدم الاهتمام بهذه الجزيرة الخضراء ، ما عدا رتشارد الثاني الذي عزم على معالجة شؤونها في شيء من الجدية . ومنشأ ذلك الموقف الذي وقفه ملوك إنجلترا من أيرلندا وقتذاك أن سكانها من المتوطنين الإنجليز ، والتجار في الثغور ، والأرستقراطيين الأنجلو - أيرلنديين أصحاب الأراضي ، والأيرلنديين الوطنيين القبليين . عاشوا منفصلين بعضهم عن بعض تمام الانفصال ، ولم يكن باستطاعة أداة سياسية - باللغة ما تبلغ من الحكمة

(١) اسم هذه المدن في الأصل الإنجليزي (Ostman Towns) ، وهي مجموعة من المدن الواقعة في الجزء الشرق والجنوبى الشرق من أيرلندا ، وترجع تسميتها بذلك إلى اسم سكانها الأصليين من النرويجيين أو الدانين . زيادة .

والسداد - أن تجعل من تلك العناصر المتنافرة مزيجاً قادراً على التآلف والاستقرار والانسجام .

ثم خلت إنجلترا من المشاكل الأوربية ، على عهد إدوارد الأول ، فاستطاعت أن تسهم في تنمية التجارة الأيرلندية ، وتوسّعت في تطبيق التنظيم الإقليمي بين قبائل الأيرلنديين ؛ وكان ذلك النظام في الواقع أهمّ الصادرات السياسية الإنجليزية في العصور الوسطى . ولو كان في الإمكان أن تبقى الحال على ذلك المنوال الهادئ ، وأن يظلّ الإنجليز على توغلهم السلمي قرناً من الزمان ، لتحققت الوحدة بين إنجلترا وأيرلندا - أكبر الظن - أتمّ تحقيق . لكن سوء الحظ لحق أيرلندا مرّة أخرى ، ففي السنة الثالثة لمعركة بانوكوبن^(١) - أي سنة ١٣١٥ م - غزا إدوارد بروس شقيق روبرت زعيم الاسكتلنديين جزيرة أيرلندا غزوة عنيفة ، إمعاناً في مناوأة الإنجليز ، وتبعه روبرت إلى أيرلندا سنة ١٣١٦ م . وبذلك انكبّ الاثنان أيرلندا المنكوبة بحرب وحشية طاحنة ، فذوت بشائر التقدم الأيرلندي قبل أن يستوى عودها الرطيب ، وانحسر النفوذ الإنجليزي حتى أمسى قاصراً على إقليم ضيق بشرق أيرلندا ، وتعطل فجأة ما جاء به قرن كامل من مقومات السلام . ثم لم تشأ المقادير أن تصلح شيئاً من تلك الكوارث ، إذ صرفت حرب المائة عام أنظار الحكومة الإنجليزية عن أيرلندا - وحاجاتها التي لا تنتهى - إلى الجرى وراء الحصول على التاج الفرنسي ، وما في ذلك الجرى من مجد . واختفت أيرلندا في لجة من ضبابها الغربي الكثيف ، حتى إذا كان القرن السادس عشر الميلادي ، وحاول التيودوريون فتح البلاد مرّة أخرى للحضارة الإنجليزية ، تعثرت محاولتهم بعقبة هائلة جديدة في ثنايا العقبات القديمة ، إذ غدت إنجلترا تدين بالمذهب البروتستنتي ، على حين ظلت أيرلندا ثابتة على الكاثوليكية .

سحبه الباحث عماد أمير ونسقه جروب مُعين التاريخ لأهل اتاريخ

بعض المراجع لهذا الفصل

Hume Brown, (P.) : History of Scotland. 1899-1909.

Green, (Mrs. J.R.) : The Making of Ireland and its Undoing. 1908.

Edwards (O) : Wales. 1901.

Lang. (A.) : History of Scotland. 1900-1907.

Little. (A.G.) : Mediaeval Wales.

Lloyd. (J.E.) : History of Wales. 2 vols. 1911.

Trevelyan (G.M.) : History of England. 1926.

الفصل العشرون

حرب المائة عام

موقف الإنجليز من الحرب مع فرنسا — الجيش الإنجليزي — مظاهر القوة والضعف في فرنسا — حملة سنة ١٣٤٦ م — الوباء الأسود . السنوات العشر الحرجة — معاهدة كاليه — إفاقة فرنسا على عهد شارل الخامس — نكسة فرنسا مرة أخرى — البرجنديون والأرمنياك — رتشارد الثاني — أسرة لانكستر — هنري الخامس ووقعة أجنكورت — معاهدة تروي — مساوىء برجنديا — جان دارك — انتهاء الحرب — روح الحرب ونتائجها — حروب الوردتين — العبقرية الإنجليزية .

* * *

تبدو حرب المائة عام للعقل الإنجليزي في العصر الحاضر سلسلة من الحماقات الفاجعة ، على عكس ما بدت في عيون أجدادهم ، وهم الذين شهدوا عصر الملك إدوارد الثالث وهنرى الخامس ، واعتقدوا أنه ليس من الغرابة في شيء أن يطلب ملك من ملوك إنجلترا عرش فرنسا لنفسه ، أو أن يعمل على إخضاع البلاد الفرنسية لسيادته . ولم يغضب أولئك الأجداد لإثارة تلك الحرب ، ولم يطلبوا حين تبددت الآمال في الانتصار — أن يستبدل الملك بحكومته حكومة مسالمة ينتهى على يدها القتال ، بل غضبوا على الوزراء الذين حامت حولهم مسئولية الخيبة في الحرب أو الإمعان في ابتزاز الأموال ؛ وكان غضبهم واضحاً في الثورتين الشعبيتين سنة ١٣٨١ م وسنة ١٤٥٠ م . وفي أثناء تلك الحرب اجتمع البرلمان الإنجليزي في مواعيده المقررة ، لأن الملك لا يستطيع بغير البرلمان أن يحصل على الضرائب التي تغذى من حصيلتها جيوش المملكة . غير أن البرلمان لم يرفض الموافقة على تلك الضرائب ، ولم ينهض ناقد ليقول إن إنجلترا تهمل ما تحت يدها من المصالح في الغال واسكتلندا وأيرلندا ، من أجل ضالة عقيمة في فرنسا . كل ذلك لأن الحرب ضد الفرنسيين أضحت أساساً من الأسس القومية في إنجلترا ، وغدت في عقول الإنجليز كأنها من المقدور

المكتوب على الجبين ، برغم ما تخلل أدوارها من ضرائب مالية مفضية . وربما كان بعض السرّ فيها لقيت هذه الحرب من هوى في النفوس أن الإنجليز - وهم البادئون بالعدوان - ظلوا يخربون في أرض أجنبية . فبينما تحملت فرنسا كل رزايا الغزو ومصائبه ، تمتعت إنجلترا بجميع ما يجلب السلب والنهب من بلد غنى خصيب ، لا يفصله عن السواحل الإنجليزية سوى بحر المانش . ثم إن الإنجليز تعوّضوا عن عبء الضرائب التي أثقلت كواهلهم ، لا بنشوة الانتصار في حرب خارجية فحسب ، بل بتغلغل الاعتقاد في نفوسهم بأن الحرب تفيد التجارة ، إذ مكنت لإنجلترا بيع أصواف أغنامها بأسواق بروج وحتت ببلجيكا الحالية ، وسهلت عليها شراء الألبنة التي تريدها من بوردو ، مع إيجاد أسواق بالقارة الأوربية لقصديرها وحديدتها وجلودها . وزاد في تلك الروح العامة المتحمسة للحرب ما اتصفت به الجيوش الإنجليزية من صفات جديدة ، بعد أن حلّت النظم المستندة إلى الخدمة الحربية في جيش ملكي ثابت محلّ النظم الإقطاعية القديمة القائمة على العهد الإقطاعي وشروطه ، وبعد أن باتت كتائب المشاة مكونة من المزارعين الإنجليز والرماة من أهل الغال . ومعنى ذلك أن الجيش الإنجليزي في القرن الرابع عشر الميلادي غدا ممثلاً للأمة ، لا لطبقة من الطبقات ، كما كان الحال في الجيش الفرنسي الإقطاعي ، وأن فئات الخيالة الثقيلة لم تعدّ السلاح الوحيد أو الأكثر أهمية في الجيش . ولأول مرة في تاريخ الحروب الأوربية في العصور الوسطى ظهرت كتائب المشاة البريطانية التي تكونت من أواسط طبقات المجتمع ، وأفسدت حساب أمهر القادة في ميادين القتال ، إذا استخدمت جنود هذه الكتائب سلاحاً فاق نظائره من الأسلحة في الرمي والمتانة ، وأكسبها سابق مرانها على استخدامها في مروج القرى الإنجليزية زمن السلم مهارة ليس بعدها مهارة . وذلك السلاح هو القوس الطويل (Longbow) الذي انتصر به أولئك الجنود في وقتي كريسى سنة ١٣٤٦ م ، وأجنكورت سنة ١٤١٥ م ، حين حصدت السهام الإنجليزية خيل الفرسان الفرنسيين ، وهم يزحفون إلى ساحة المعركة في زرودهم وأسلحتهم الثقيلة ، فلم تكن إلا هنية حتى توقّف الزحف دون قتال ، وتقطّر الفرسان الفرنسيون عن خيلهم ، وهاموا على وجوههم ، لا يستطيعون إلا أن يكونوا غنيمة سائغة للإنجليز .

هذه خلاصة عاجلة لحرب المائة عام ؛ غير أن فرنسا التي لزمها الخذلان

في تلك الحرب بدت أوائل القرن الرابع عشر الميلادي أمة ينيء كل شيء فيها عن مستقبل باهر عظيم ، فأرضها خصبة وزراعتها متنوعة ، وأهلها من الفلاحين وأبناء المدن مدبرون في معاشهم ، مجدّون في أعمالهم . وباستثناء جمهورية البندقية ، لم يوجد بأوروبا في العصور الوسطى بلد عرف أهله فنون الحياة المتمدنية أحسن معرفة ، وسار على هدى تلك المعرفة أعدل سير ، مثل فرنسا والفرنسيين الذين أضحووا ولا ريب أرق حاشية من الإنجليز ، وأرحب صدرًا من الألمان ، وأكثر قبولًا للمؤثرات الخارجية من الإسبان ، وأقل ميلًا إلى النزاع الداخلي والعنف من الإيطاليين . ولدة قرنين من الزمن — وهما الثاني عشر والثالث عشر الميلادي — لم تنبت أرض أوربية نماذج للفكر الأوربي مثل الأرض الفرنسية التي أنبتت أيبيلارد ، والقديس برنارد ، والحروب الصليبية ، والفروسية ، والفلسفة المدرسية . على أن فرنسا تدين بكثير من هذه العظمة إلى حسن الحظ والتوفيق ، إذ جعلتها أسرتها الملكية — أسرة كاييه — بنجوة من شرور الثورات والمنازعات حول التاج ، لثلاثة قرون حسوًا متتابعة ، بفضل ما أنجبت لورثة العرش من ذكور متعاقبة . ثم إن فرنسا أمدّت إنجلترا وصقلية بأسرات ملكية ، كما أمدّت الجبر ونابلي بعدهما بملوك من أمراء أسرة آنجو . وبلغ من إعجاب ملك بوهيميا بكل ماهو فرنسي مبلغ الاعتقاد بأنه ليس في الدنيا مدنية تحكى باريس في جمالها ، بل غدت البابوية فرنسية منذ استقرّ كرسيها في أفينيون — وهي التي لا يفصلها عن أرض فرنسا سوى مجرى نهر الرون ، وأضحى البابا فرنسيًا تحوطه هيئة من الكرادلة معظمها من الفرنسيين .

غير أن تلك العظمة شابتها ثلاثة عيوب هامة ، أولها أن الاستقرار الذي تمتعت به فرنسا على عهد أسرة كاييه لم يكتب له الدوام ، إذ مات الملك لويس العاشر ابن فيليب الجميل سنة ١٣١٦ م عن ابنة واحدة ، دون أن يعقب وارثًا ذكرًا ، فخلفه على العرش أخواه فيليب الخامس ، وشارل الرابع ، بعد أن أقيى القانونيون الفرنسيون بجرمان الإناث من وراثة العرش الفرنسي ، عملاً بقانون الفرنجة السالين الذين حكموا فرنسا أوائل العصور الوسطى ^(١) . فلما مات شارل الرابع سنة ١٣٢٨ م ، دون أن يعقب هو كذلك ذكرًا ، خلفه ابن عمه فيليب قالوا (Valois) . لكن أحقية أسرة فالوا في العرش لم تلق قبولًا لدى إدوارد الثالث ملك إنجلترا ، لأن أمه إيزابلا بنت فيليب الجميل ؛ وأعلن إدوارد أنه إذا لم يكن للأثني حق في

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٣٥ - ٣٦ . زيادة .

عرش فرنسا بحكم القانون ، فالقانون لا يحرمها من نقل حقها في العرش إلى أبنائها المذكور ؛ ولأول مرة في تاريخ فرنسا — منذ أوائل القرن الحادى عشر الميلادى — تعرضت أحقية الجالس على العرش الفرنسى للشك الكثير .

أما العيب الثانى فكان أعظم شأنًا ، وهو أن نبلاء فرنسا أمسوا بعد انتهاء الحروب الصليبية يعيشون في عافية إقطاعية ، فطلع عليهم القرن الرابع عشر الميلادى دون أن يتعلموا شيئاً أو ينسوا شيئاً ، أو تصبونفسهم إلى شيء . وانغمسوا في حروب محلية ، كأن لم تكن الدولة الفرنسية في خطر ، وأخذوا يسومون الفلاحين أقنانهم ألوان الخسف والظلم ، كأن لم يكن المعروف لديهم أن حياة فرنسا تعتمد كل الاعتماد على عرق الفلاحين . والعجيب كذلك أنهم غفلوا عما صار إليه أعداؤهم الإنجليز من التماسك بفضل التخليط الاجتماعى الذى حدث بين الطبقات في إنجلترا ، وسوى بين أغنى البارونات وأفق المزارعين الإنجليز في التعرض لأخطار الحياة الجندية في ميادين القتال . ولم يفقه أولئك السادة الفرنسيون هذا الدرس ، برغم تغلب المشاة الإنجليز مرة بعد مرة على أروع الفرسان الفرنسيين ، كما حدث في وقعة كورتريه سنة ١٣٠٢ م ، ثم وقعة كريسى سنة ١٣٤٦ م ، وما كان لهم أن يفقهوا شيئاً ألبتة إلا بعد أن رأوا ملك فرنسا يروح أسيراً إلى لندن ، وبعد أن شهدوا ملك إنجلترا يضع تاج فرنسا على رأسه في باريس .

ومن العجيب الدال على عجز الأرستقراطية الفرنسية عن إدراك ذلك الدرس ، وغيره من الدروس الحربية الناتجة عن التجربة المبررة ، أنه برغم استخدام الإنجليز نوعاً من مدفعية المجانيق في واقعة كريسى سنة ١٣٤٦ م ، لم يعتمد الفرنسيون إلى استخدام ذلك السلاح إلا سنة ١٤٥٥ م ، في وقعة فورمى (Formigny) ، حيث فاقت رمية المجانيق الفرنسية رمية السهام الإنجليزية .

أما العيب الثالث فكان عيباً عضالاً ، ظل مستعصى العلاج خلال القرون حتى شفته انفجارات الثورة الفرنسية ، في القرن الثامن عشر الميلادى . ذلك أن الفرنسيين — على نباهتهم المعروفة — لم يقبلوا يوماً من الأيام أن تفرض عليهم حكوماتهم ضريبة طيبة ، أو أن يؤدوا لحكومتهم ضريبة رديئة . وبقي النظام المالى الفرنسى فاسداً كل الفساد طوال العصور الوسطى ، إذ جمعت الضرائب بطريق التضمين ، فابتز الضمان من دافعيها أموالاً أكثر مما حملوا هم إلى خزائن الدولة ، وناءت كواهل الفقراء بضريبة الملح المعروفة باسم الجابيل (Gabelle) ، وضاق التجار

بمختلف المكوس على المبيعات ، وألوان العبث بأسعار النقود ؛ وزاد في ضيق الفرنسيين ما فرضه الملك شارل الخامس وخلفاؤه من ضرائب جمركية محلية . ثم إن شارل الخامس أحيانا النظام البغيض الذى ابتكره فيليب الجميل لبيع الوظائف ، فاشتعل بذلك داء الإعفاءات المالية ، ولم يلبث خبث الإعفاءات والمحسوبيات أن سرى فى النظام المالى الفرنسى كله سريان العفن فى جسم الإنسان . ومن أوضح الأدلة على ما أمست المالية الفرنسية فيه من الضعف ، أن الحكومة الفرنسية لم تجد وسيلة لأداء القدية الكبيرة التى طلبتها إنجلترا ، مقابل إطلاق سراح حنا ملك فرنسا من أسره فى وقعة بواتييه ، سوى الرضا بزواج أميرة فرنسية من غنى وضعيع حديث النعمة ، هو جاليا ترو فسكونتى الإيطالى ، دوق ميلان .

أما الحرب بين فرنسا وإنجلترا فلم تنشب نتيجة اصطدام بين البحارة الفرنسيين والإنجليز فى ميناء من موانئ بحر المانش ، أو بسبب إغارة فرنسية على أطراف أقطانيا ، أو مساعدة فرنسا بجنودها علناً (١٣٣٦ م) لحزب دافيد بروس وقضية الاستقلال الاسكتلندى ، أو إغارة الجنود الفرنسيين الملحقين بالجيوش الاسكتلندية على أطراف إنجلترا الشمالية . وإنما نشبت هذه الحرب نتيجة حادث وقع فى بلاد الفلاندرز التابعة للتاج الفرنسى تبعية إقطاعية ، ففى ١٣٣٦ م ألقى الكونت لويس صاحب الفلاندرز القبض على جميع المقيمين ببلاده أو العابرين عليها من الإنجليز ، وزج بهم فى السجون ، بناء على تعليمات صدرت إليه من باريس . وردت إنجلترا على ذلك الاعتداء الشنيع رداً كفيلاً بهدم صناعة فلاندرز الزاهرة رأساً على عقب ، إذ منعت تصدير الأصواف الإنجليزية إلى بلاد فلاندرز ، كما منعت الأسواق الإنجليزية من استيراد الأقمشة الفلمنكية . وفى غضون هذا الموقف الحرج استطاع تاجر فلمنكى حازم بصير - وهو يعقوب فان أرتفلد صاحب التجارة الواسعة فى المنسوجات بمدينة جنت - أن يرسم خيوط السياسة فى غرب أوروبا لعدة أجيال . ذلك أنه فضّل رخاءاً اقتصادياً فى ظلّ تحالف حرّ - مع إدوارد الثالث ملك إنجلترا - على خراب اقتصادى فى ظلّ تبعية إقطاعية لفيليب ملك فرنسا . وما زال يعقوب فان أرتفلد يعمل حتى طرد الكونت لويس والسيادة الفرنسية عن الفلاندرز ، وأقنع الملك إدوارد الثالث بوجوب المطالبة بالتاج الفرنسى ، بعد أن عقد معه معاهدة لعودة تصدير الأصواف الإنجليزية إلى جنت ، تهدئة لخواطر الفلمنكيين عامة ؛ وبهذا نشبت حرب المائة سنة بين فرنسا وإنجلترا .

وكان أول الوقائع الكبيرة في تلك الحرب وقعة بحرية سنة ١٣٤٠ م، عند سلويز شرق أوستند الحالية ، حيث انتصر الإنجليز انتصاراً جعلهم وتجارتهم سادة بحر المانش مدى ثلاثين عاماً . غير أن إنجلترا لم تحاول أن تستغل ذلك النصر لبضع سنين ، لأنها لم تجد ما يدعو إلى غزو فرنسا بعد زوال الخطر الذي يهدد التجارة الإنجليزية مع الفلاندرز ، وبعد أن أمست فرنسا نفسها عاجزة - ولو إلى حين - عن غزو إنجلترا . على أن ما بين فرنسا وإنجلترا من ضغن لم يقتصر على مشكلة الفلاندرز وتجارة الأصواف ، بل تعداه إلى مشاكل كثيرة في جهات مختلفة ، فلم تلبث جنوة العداء التي انطفأت في مياه سلويز أن اشتعلت في جهة أخرى ، وهي دوقية بريتانى . ذلك أن التنافس على الدوقية أدى إلى اصطدام إنجلترا وفرنسا من جديد ، بسبب تأييد كل منهما لأحد المتنافسين ، إذ وقف فيليب السادس ملك فرنسا إلى جانب شارل بلوا (Charles Blois) ، ووقف إدوارد الثالث ملك إنجلترا إلى جانب حنا منتفرت ، وهوزعيم القسم الذى تسوده اللغة الكلتية والسكان الكلتيين من الدوقية ، أى القسم الكاره للنفوذ الفرنسى وعدوانه الجائر .

وهكذا وضحت ميادين الصراع الكبير بين فرنسا وإنجلترا ، في بلاد الفلاندرز وبريتانى ، وفي أقطانيا واسكتلندا كذلك ، وقفت جيوش الدولتين وجهاً لوجه . وإذا بدت حركات الجيوش الإنجليزية من نورمانديا وبريتانى وأقطانيا كأنها حركات تجمعية غرضها وسط فرنسا ، في غير خطة مرسومة أو اهتمام سابق بالتفاصيل ، شأنها في ذلك شأن الخطط الحربية في العصور الوسطى . فإن هذه الحركات كشفت عن توفيقات حربية جعلت سنة ١٣٤٦ م عام العجائب (annus mirabilis) في تاريخ إنجلترا ، حين نهب الإنجليز پواتيه ، وكسبوا معركة كريسى ، وحاصروا كاليه ، وسحقوا الاسكتلنديين عند نقلز كروس ، في يوركشير الحالية . ومع هذا لم تجن إنجلترا من هذه التوفيقات الحربية المتراصة فائدة ذات قيمة كبيرة ، ماعدا كاليه التى أضحت مدينة إنجليزية منذ ١٣٤٧ م ، وظلت كذلك حتى عهد الملكة ماري التيودورية في القرن السادس عشر الميلادى ، حين استردها الفرنسيون نهائياً من إنجلترا .

غير أن السنة التى شهدت سقوط كاليه في يد الإنجليز ، شهدت كذلك حلول كارثة أوربية عامة حصدت من الناس أكثر مما أفتته مائة سنة من الحروب في العصور الوسطى ، إذ امتد " الموت الأسود " - وهوطاعون دُملى - من أحد

مواطنه بالشرق الأقصى عبر طرق التجارة الدولية في تلك العصور إلى أوروبا ، فانتقل من آسيا الصغرى^(١) إلى إيطاليا وإسبانيا ، ثم زحف إلى فرنسا عن طريق مرسيليا ، ودخل إنجلترا عن طريق مقاطعة دورستشر ، ثم تحول شرقاً فاجتاز ألمانيا وبلاد شبه جزيرة اسكنديناوة ، ومنها اشتعل في بولندا والنمسا وروسيا . أما الأرقام التي بنى عليها مؤرخ حديث أن ربع سكان أوروبا في بسبب ذلك الطاعون ، فهي من أرقام العصور الوسطى ، وهي على أية حال بعيدة كل البعد عن التصديق . ثم إنه ليس لدينا من الوسائل ما يكفل تحقيق نص الروايات المعاصرة أن مائة ألف نسمة في كل من البندقية وفلورنسا ولندن ، وستين ألفاً في أفينيون ، وسبعاً وخمسين ألفاً في نرتش بإنجلترا ، ماتوا بسبب ذلك الوباء ، وأن عدد الوفيات في ألمانيا بلغ مليوناً وربع مليون ، مع العلم بأنها قاست أقل من كل من فرنسا وإيطاليا . على أن الأمر الذي لا يتطرق إليه الشك أن الوفيات بلغت مقياساً هائلاً كافيلاً بأن يخلف وراءه فوضى أخلاقية خطيرة ، واضطرابات اجتماعية مستطيرة ، مما يحدث دائماً حين تنزل بالبشر نقمة طبيعية شاملة ، مما لا يستطيع البشر التنبؤ به أو تقديره ، أو العمل على تخفيف ويلاته .

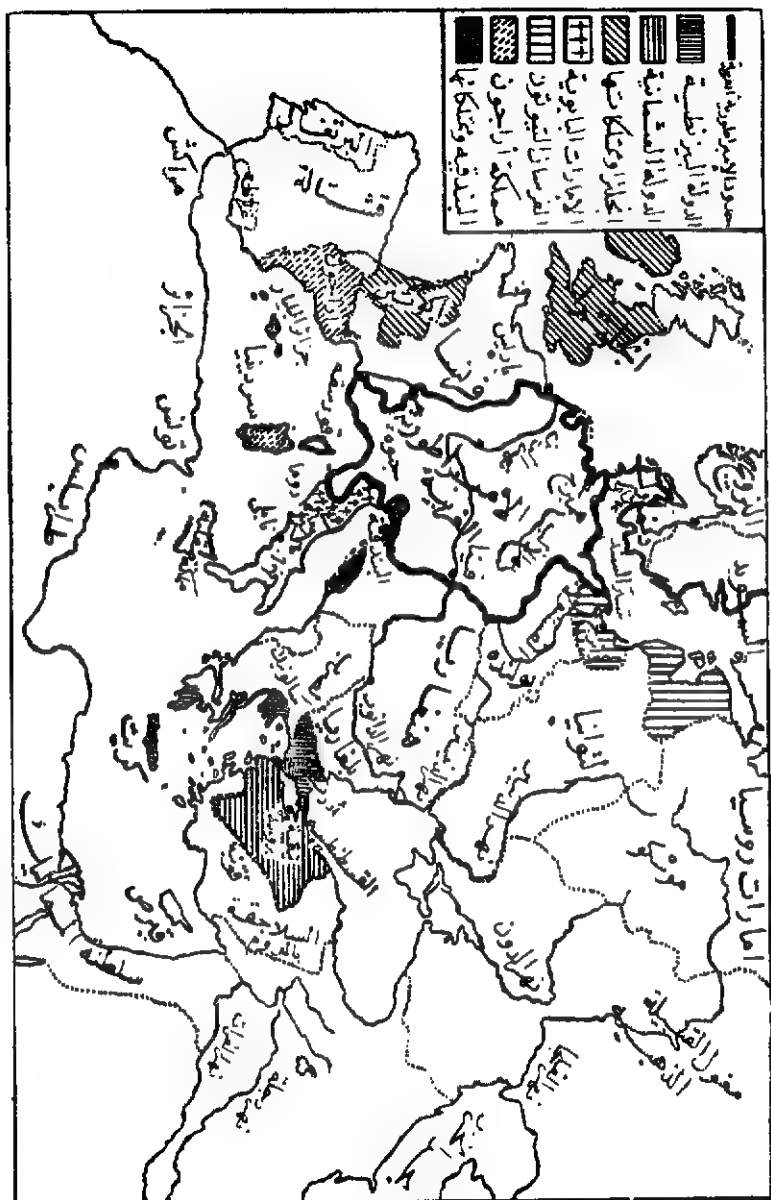
وبما شهد المعاصرون أن ذلك الطاعون عكف على اختيار الشباب والأقوياء ، دون غيرهم من الناس ، وأنه أشفق بضحاياهم فأخذهم أخذاً سريعاً بعض الأحيان ، ولكنه كثيراً ما أوردى فريسته في جحيم من الأوجاع بضع ساعات فحسب . وفي أفينيون — حيث عصف الطاعون بالسكان سبعة أشهر متوالية — حاول بعض أرباب الطب محاولة جريئة فريدة — في ذلك العصر — لتشخيص أسباب الطاعون ، فنبشت قبور وأخرجت جثث للفحص بأمر البابا ، لكن في غير جدوى . وظل الطاعون يزحف زحفه اللزيع المريع ، وييده منجل الفناء ، ليحصد ما شاء من حارات العصور الوسطى وقتلها ، ومن ظهور السفن التي حملتها الأمواج على غير هدى بعد اشتعال الوجد بين بحارتها ، ومن جوانب الحقول التي أضحت خالية من الأيدي العاملة اللازمة للحرث وجمع المحاصيل ورعى الماشية . ومن أسوأ النتائج الاجتماعية التي نجمت عن هذه الكارثة البشرية الطامة قيام

(١) وصل هذا الطاعون إلى مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط ، واشتعل بالبلاد اشتعالا وصف المؤرخون المعاصرون مداه في حولياتهم المعروفة ، وهو غير الفناء الكبير على أواخر عهد الفاطميين في مصر . زيادة .

كثير من المدن الأوروبية بسلسلة من الفظائع ضد سكانها من اليهود ، إذ أحرق الدهماء في ماينتز وغيرها من المدن الألمانية المئات والألوف من اليهود ، اعتقاداً منهم بأن الطاعون مكيدة خبيثة من الجنس السامى للقضاء على المسيحية الكاثوليكية . وترتب على هذه الوحشية الأوروبية الغربية أمرٌ على جانب من الأهمية في التاريخ الأوروبي ، إذ وجد اليهود الذين اضطهدتهم مدن الرين من مملكة بولندا ملجأ وقت ذاك ، كما وجدوا منها في أحوال سابقة ، وانتز ملكها كازيمير (١٣٣٣ - ١٣٧٠ م) الفرصة ليجدد الحماية التي منحها لطائفة اليهود سلفاً له سنة ١٢٦٠ م . وإلى هذه السياسة - حين لم يكن أحد من اليهود في غرب أوروبا بنجوة من غضب الدهماء الكاثوليكين - يُعزى وجود الأعداد الكبيرة من اليهود في بولندا الحالية .

ولكارثة الطاعون نتائج أخرى أقل بشاعة من حوادث إحراق اليهود ، ففي فلورنسا - نقلاً عن الوصف المعروف الذى كتبه بوكاشيو في الطاعون بتلك المدينة - أسلم البعض أنفسهم لأنواع الملذات ، واستولى على البعض طوف دينى ، وأولئك هم السباطيون (Flagellants) الذين ساروا جماعات في طرقات المدينة يضربون أنفسهم بسياط من حديد ، تكفيراً عن ذنوب المذنبين من الناس ، على حين اتخذ فريق لم يكونوا من هؤلاء ولا هؤلاء حياة اللصوصية وقطع الطرق سبيلاً للعيش . غير أن نتائج الطاعون لم تقتصر على هذه الظواهر العابرة التى انتهت بانتهاك أسبابها المثيرة ، بل تعدتها إلى نتائج ثابتة معروفة ، حتى إذا انقشع الوباء سنة ١٣٥٠ م إلى غير رجعة ، ما عدا فينات قصيرة على مقياس أصغر ، وعاد الناس إلى الحياة العادية ، بدا المجتمع الأوروبى في حال غير حاله السابقة .

على أن الحال الجديدة لم تأت بانقلابات مفاجئة للمجتمع الأوروبى ، إذ الأقرب للحقيقة والواقع هو أن الفناء الذى تعرضت له البشرية ، ولا سيما في الأديرة ، حرك سلسلة من التغيرات التى بلغت في مجموعتها ونتائجها مبلغ الانقلاب العام . وربما وضحت هذه التغيرات في إنجلترا عن غيرها من البلاد ؛ ففي الأديرة الإنجليزية اضمحل النشاط الأدبى ، وفسد النظام الديرى ؛ وفي المقاطعات الإنجليزية التى أباد الوباء معظم أهلها أقفرت كنائس الأبرشيات من القسس ، والمصلين كذلك ؛ وفي المدارس كذلك الإنجليزية محلّ الفرنسية ، وقام على التعليم طبقة جديدة من المعلمين ؛ وفي العمارة وهندسة البناء غلب الطراز المتعادم على



الطراز القوطى القديم ، لبساطة التعامد وسهولة أشكاله وملاءمته لطاقات المعمارين ، لأنهم غدوا فئة قليلة بعد الطاعون حتى اضطروا إلى التنقل بين البلاد^(١) . وفى مزارع إنجلترا كذلك خطت حركة استبدال الأجور بالخدمة فى الحقول خطوات بالغة السرعة . وهى الحركة التى أدت أخيراً إلى اختفاء القنّية من القرى ، وتحطيم نظام فلاحية الأرض فى العصور الوسطى .

أما الفصل فى هذه الحركة التى لم تقتصر على إنجلترا ، ففرجه قلة الأيدى العاملة فى الزراعة بسبب الطاعون . ومطالبة الفلاح بأجر أحسن أكثر إغراء من الخدمة فى الأرض ثمناً لعرق جبينه . مما جعل اللوردات أصحاب الضياع غير قادرين على فلاحه أراضيهم إلا بتأجير الفلاحين ، من مختلف الجهات الخارجة عن حيازتهم الإقطاعية . وتراءت هذه الحال الجديدة للطبقة الحاكمة فى إنجلترا وفرنسا ، وأفرعهم ما سوف يترتب عليها من نتائج ثورية . فسنت فرنسا قوانين حرّمت على الفلاحين وسائر العمال أن يأخذوا أكثر من الثلث فوق أجورهم .

قبل الطاعون . وقرّر البرلمان فى إنجلترا عودة الفلاحين وأرباب الحرف إلى أجورهم القديمة . كما حرّم عليهم الانتقال من جهة إلى أخرى . غير أن نواميس الاقتصاد كنواميس الطبيعة ، لا بد أن ترجع يوماً إلى شيمتها من النشاط ، وإن كان من المستطاع تعطيلها إلى حين . ولذا عجزت التشريعات التى سنّها برلمانان الإدوارديين فى إنجلترا عن تعويق حركة أنشطتها الأحوال الاقتصادية المعاصرة ، بل بقدر ما قلّت الفلاحية خدمةً فى أرض اللوردات ، بقدر ما وضحت فائدة استخدام الفلاحين من مختلف الجهات على قاعدة الأجور النقدية . وهكذا أخذت العوامل الاقتصادية الجديدة تقوّض من دعائم النظم الإقطاعية شيئاً فشيئاً ، حتى إذا تحلل الفلاح القنّ بما يربطه بالأرض من قيود ، وغدا حراً فى تسعير خدماته فى سوق العمل ، ارتفعت الأصوات متحدة النظام الاجتماعى القائم ، وأخذت الجماعات تسأل السؤال الذى طالما سألته أنصار العدالة الاجتماعية على مرّ الأجيال فى صيغ ثرية أو نظمية متنوعة الألفاظ لا المعانى ، وهى فى الأدب الإنجليزى

(١) هذه ملحوظة جديرة بالفتن المعنيين بدراسة الآثر والفنون الإسلامية ، فى أطوارها ومراحلها المختلفة ، فى مصر وغيرها من بلاد الشرق الأوسط . زيادة .

في العصور الوسطى كالآتي بعد تعريبها^(١).

إذا ما آدم زرع الأراضي وعاشت أمنا حواء تغزل
فن ذا يا تُرى ربّ الديار ؟

ومع هذا كله لم تكبح كارثة الطاعون شيئاً من طيش الأرستقراطيتين الفرنسية والإنجليزية ، أو تخفف من حدة المنافسات بينهما ، فلم تلبث الحرب أن نشبت بين الدولتين في صورة وحشية قاسية ، على حساب الفلاحين الفرنسيين البؤساء . ولذا كُتبت حوادث السنوات العشر (١٣٥٠ - ١٣٦٠ م) التي تلت قيام الملك حنا الكريم على عرش فرنسا بسطور من الدماء والنيران ، مصداقها قول بترارك الذي زار فرنسا بعد أربع سنوات أو خمس من وقعة بواتييه ، بأن البلاد الفرنسية أضحت من الخراب والدمار — على يد الجيوش الإنجليزية — ما خيل إليه أنه يرى بلاداً غير البلاد التي عرف ربوعها الباسمة قبلاً . والواقع أن آثار الحرائق وأعمال النهب والقتل والسبي ، فضلاً عن إبادة المحاصيل والماشية ، هي كل ما خلفت الجيوش الإنجليزية وتوابعها في أرض فرنسا ؛ وفي هذه الحوادث المتبربرة أحرز الأمير الأسود — وهو إدوارد^(٢) بن رتشارد الثالث ملك إنجلترا — من قصب السبق ما جعل له بغرب فرنسا اسماً لا تمحوه الأيام .

ودلت حوادث تلك السنوات العشر أوضح دلالة للقارة الأوروبية أن سكان إنجلترا الذين بقيت هزيمتهم على يد الاسكتلنديين في معركة بانوكبرن ماثلة في الأذهان ، غلدوا أمة حربية عظيمة في جيل أو بعض جيل من هذا المعركة . ففي سلسلة من الانتصارات التي لم يتوقع أحد حدوثها ، قضى أولئك الإنجليز على مجد فرنسا الحربي التليد ، وتم انتصارهم أحياناً — كما حدث في بواتييه — على جيوش تفوقهم في العدد والعدة ؛ وفي بواتييه كان أسر الملك حنا الثاني . ثم إن جيشاً إنجليزياً بقيادة الملك رتشارد الثالث استطاع أن يتقدم نحو أسوار ريمس وباريس ، كما استطاع جيش إنجليزي آخر أن يزحف من بوردو شرقاً ،

(١) النص الإنجليزي بيت واحد من الشعر ،

When Adam delved, and Eve span,

Who was then the gentleman ?

وهو بيت مشهور يجري على ألسنة الإنجليز حتى العصر الحاضر . زيادة .

(٢) اشتهر إدوارد بهذه التسمية لأباه على لبس لامة حربية سوداء . زيادة .

وأن يُعمل السيف والنار في أحراش الزيتون وبساتين الكروم في أقاليم لانجدوك ،
 أى أقاليم فرنسا الوسطى وحدائقها ومزارعها . وبذا خربت أغنى منابع الإيراد
 في فرنسا ، وأمسّت الملكية الفرنسية في أشد حالات الحرج والإعسار والبؤس العام .
 والخلاصة أنه يصعب على الباحث أن يتصوّر من ألوان المذلة لونا لم تذق
 الأمة الفرنسية طعمه تلك السنوات المريعة — وهى الأمة التى بدت أعز الأمم الأوروبية
 قبل ذلك بجيل واحد — ، إذ غدا ملك فرنسا أسيراً في إنجلترا ، وفرض الإنجليز على
 الشعب الفرنسى جزية باهظة لأداء القدية المقررة لإطلاق سراحه ، وأخذ المسرّحون
 من جند المملكتين يؤفنون عصابات ومناسر تهب البلاد ، وتبلغ بها الجحراة أن
 تستدفع البابا إنوسنت السادس الأموال ثمناً لرفع حصارها عن المدينة البابوية
 أفنيون . وقام الفلاحون الفرنسيون أهل الصبر والاستكانة ، والنصيب الأكبر من
 ويلات هذه الحروب الغاشمة ، بثورة كاسحة في وجه النبلاء الذين أضاعوا
 فرنسا للإنجليز ؛ وهذه هى ثورة الجاكييرى^(١) (١٣٥٨ م) التى اتصفت بكل
 صفات العنف والوحشية ، شأن ثورات البؤساء اليائسين . ومع أن هذه الثورة
 أخذت في سهولة وسرعة ، لم تجن البلاد شيئاً من وراء نصر النبلاء على الفلاحين ،
 أو من وراء ما تخلف عن ذلك النصر الرخيص من هوة اجتماعية هائلة . بعبارة
 أخرى بدت فرنسا جثة هامدة بسبب الحروب وأعقابها ، ولم يخفف من حالها سوى أن
 باريس نجت من محالب العدو ، وما دامت باريس في أيدي الفرنسيين فلن تكون
 فرنسا طعمة سائغة للإنجليز . غير أن ثورة شعبية في باريس نفسها كادت تنجح
 في عزل ولي عهد المملكة الفرنسية ، وتولية شارل ملك ناغار ملكاً على فرنسا ، وهو
 الدساس المداهية الخائن الذى عكف على خدمة الإنجليز ، بعد أن أخذ على
 نفسه عهداً سرياً مكتوباً أن يعتلى العرش الفرنسى على قاعدة التبعية لملك إنجلترا .
 ثم أدرك الفرنسيون أن تجنب الاشتباك مع الإنجليز في معارك فاصلة هو
 السبيل إلى إرهاق الحيوش الإنجليزية في فرنسا ، فظلت الحرب بين الطرفين على
 ذلك النمط حتى أدرك الإنجليز بدورهم أن الحكمة تقتضى عقد صلح مع الفرنسيين .
 ولذا تمت معاهدة كاليه سنة ١٣٦٠ م ، وبمقتضاها أخذت فرنسا نورمانديا .

(١) أطلق النبلاء الفرنسيون هذا الاسم على هذه الثورة من باب السخرية بالفلاحين المخلافين
 الصعاليك (Jacques Bonhommes) ، على قول النبلاء الفرنسيين أنفسهم ، وأبقى التاريخ هذه التسمية
 الساخرة . زيادة .

على حين بقيت إنجلترا في أكويتانيا وكاليه وبونتيو . ومن الواضح أن هذه المعاهدة نالت من عزة فرنسا ، لكنها أتاحت لها بضع سنوات تستعيد أنفاسها ، حتى إذا عاد الفريقان إلى النضال لم تعد كفة إنجلترا هي الراجحة كل الرجحان ، إذ كان شارل الخامس ملك فرنسا وقتئذ (١٣٦٤-١٣٨٠) رجلاً يختلف تمام الاختلاف عن أبيه المسرف المتلاف . وإذا جاز للملك قليل المعرفة بشئون المالية أن يرتفع إلى مرتبة الملوك الصالحين للحكم ، فإن شارل الخامس - وهو المعروف بالرشيد - ممن يستحق أن يرقى إلى ذلك المستوى . ذلك أنه شهد من تسلط الغوغاء في الأيام السود التي تلت كارثة هواتيه ما جعله يمحى أي نوع من أنواع الحكومة الشعبية ، ولذا ترسست سياسته لإنهاض فرنسا طريقاً غير مجلس طبقات الأمة الذي لم ينعقد - مدة حكمه كله - سوى مرة واحدة . وسرّ نجاح شارل الخامس أنه زكن الوسائل التي تكفل له الفوز على الإنجليز ، وهي أسطول ينازع إنجلترا سيادة البحار في غرب أوروبا، وجيش يلحق الخسائر بالجيش الإنجليزي دون أن يشترك معه في المعامع ، وأمة تؤازر الملكية بما فيها من عائد الولاء والأمل .

دلّ شارل الخامس على أنه يستطيع ذلك كله، بل هو أول ملك فرنسي عمل على تحييب الفرنسيين في ركوب البحار، حين دأب على زياره الموانئ وأحواض السفن، وحضّ أعيان المملكة على القيام بذلك نيابة عنه ، ليحصل منهم على الأموال اللازمة لبناء السفن . ثم إنه عكف على منح الامتيازات للمدن ، وعلى إغداق الألقاب لأغنياء المدن ، كما عكف على الاقتصاد في مصاريف الحكم والإدارة ، وبذا أرضى الناس جميعاً . يضاف إلى ذلك أن البلاد تخلصت من الوباء الأسود على أيامه ، ومن جماعات الجنود المشرحين المفسدين ، إذ أغرامهم الملك شارل الخامس بالذهاب إلى إسبانيا للاندماج في الحرب الأهلية الناشبة بين القطلانيين ، فلقوا فيها حتفهم بعيدين عن فرنسا . أما الجيش ، فأُسند شارل قيادته إلى برتران دي جوسكلان الذي حذق الأساليب الفاييوسية ^(١) في الحروب ، فأجلى جوسكلان جيوش إنجلترا بهذه الأساليب عن جميع ممتلكاتها في فرنسا - عدا بايون وبوردو وكاليه - في الحملة التي قام عليها بين ١٣٦٩ و ١٣٧٥ م .

(١) تنسب الأساليب الفاييوسية في الحروب إلى القائد الروماني فاييوس ، وهي تقوم على خطة اجتناب المعارك في ميادين القتال ، مع الدأب على إلحاق الخسائر بمؤخرة العدو . انظر راوس : التاريخ الإنجليزي ، ص ٥٥ . (مكتبة النهضة المصرية . القاهرة) . زيادة .

واستطاعت سفن فرنسية - وشارل الخامس على قيد الحياة - أن تغير على طول الساحل الإنجليزي ، كما استطاعت سفن قسطنطينية حليفة لفرنسا أن تلقى مراسيها في نهر التيمز . وكل ذلك بعد وفاة الأمير الأسود سنة ١٣٧٦ م ، وكذلك إدوارد الثالث في السنة التالية . ثم تولى عرش إنجلترا ريتشارد الثاني سنة ١٣٨٠ م ، وكان صبيّاً في الثالثة عشرة من عمره ، وشئون المملكة بيد أوصياء ضعفاء . فبدأ طالع الملكية الفرنسية في الصعود ، ولولا ما هو معروف من قيام شارل الخامس بحملة للاستيلاء على بريتانى حليفة لإنجلترا ، وتصفية ما بين الفرنسيين والإنجليز نهائياً ، لترأى للناظر في التاريخ الفرنسى - أواخر القرن الرابع عشر الميلادى - أن فرنسا أصبحت خالية من الاحتلال الأجنبي على عهد هذا الملك الرشيد الذى كانت وفاته سنة ١٣٨٠ م .

غير أن عهداً من أفجع العهود في تاريخ فرنسا أعقب وفاة شارل الخامس ، فذهبت جميع المكاسب التى كسبها الفرنسيون أواخر حكمه مع الريح ، وتعرض كيان الأمة الفرنسية للخطر مرة أخرى . ويتضح مصدر هذا الانتكاس المريع في مجموعة من البلايا لم تكن في الحسبان ، وهى وصاية طويلة على ملك قاصر هو شارل السادس ، ثم ملك مجنون هو شارل السادس هذا ، ثم تنافس شديد وحزبية بين أبناء البيت المالك والتابعين لهم من النبلاء ، واطمئنان إنجلترا وقتذاك إلى معونة أقوى شخصية في فرنسا مدة ست عشرة سنة متتابعة . وتفصيل هذه البلوى الأخيرة أن ملوك فرنسا اعتادوا أن يمنحوا أمراء العائلة المالكة أخباراً^(١) (Appanages) - أى إقطاعات كبيرة من الأراضى - رغبة في شىء من اللامركزية ، وللتخفيف من أعباء الحكم في مملكة واسعة ، وهى رغبة لا تخلو غالباً من الفائدة ، كما لا تخلو من الخطر بعض الأحيان . ومن هذه الإقطاعات أقطع الملك حنا الكريم (١٣٥٠ - ١٣٦٤ م) أصغر أبنائه فيليب دوقية برجنديا (١٣٦٣ - ١٤٠٤ م) . في سلامة نيه وقلة بصيرة ؛ وفيليب هذا هو الذى أكسبته شجاعته في وقعة بواتييه لقب الجسور (The Bold) . أما دوقية برجنديا فكانت إقطاعاً جليلاً في ذاته ، شهيراً بأبذته وألوان أطعمته ،

(١) هذا اللفظ من مصطلح الإقطاع في مصر العصور الوسطى ، ومرادفه الإقطاعى الإنجليزي المثبت بالمتن مشتق من أصل لاتينى (panis) معناه الخبز كذلك ، ومصدره في لاتينى العصور الوسطى (appanare) ، ومعناه إعطاء الخبز . انظر المقرئى : كتاب السلوك ، ج ١ ، ص ٦٥ ، حاشية ١ . زيادة .

فرنسياً صميم الفرنسية من أقصاه إلى أقصاه . لكن شاعت المقادير أن تؤدي ثلاث زيجات شهيرة إلى انضمام إقليم برجنديا الفرنسى الصميم إلى أقاليم أكثر منه غنى وعمراناً ، ومعظمها يختلف عن برجنديا من حيث الجنس واللغة ، ومن حيث الصلات التجارية والسياسية . بعبارة أوضح تزوج فيليب الجصور سنة ١٣٦٩ م من وريثة بلاد فلاندرز (بلجيكا الحالية) ، كما زوج ابنته وابنته سنة ١٣٨٥ م من بيت وتلسباخ ، أصحاب الجزء الأكبر من البلاد التى هى مملكة هولندا فى العصر الحاضر . غير أن المحالفات التى نتجت عن هذه الزيجات غدت شتوفاً على فرنسا ، وإن تراءى للملك شارل الخامس أن زواج أخيه دوق برجنديا من وريثة فلاندرز سوف يجتذب المدن الفلمنكية الغنية إلى دائرة النفوذ الفرنسى . ذلك أن الذى حدث كان نقيض ذلك ، إذ برهنت بلاد فلاندرز بغناها الوفير على أنها أحسن مكاناً ورثياً من برجنديا ، وأن بروكسل أكثر بهاء وجاذبية من ديجون الفرنسية ، وأن الاحتفاظ بود إنجلترا أعظم أهمية من صداقة فرنسا . ثم لم يلبث دوقات برجنديا أن استجابوا إلى بيثتهم الفلمنكية الجديدة ، فغدوا فلمنكيين أكثر منهم فرنسيين ، وسلكوا مسلك السادة فى دولة مستقلة عن فرنسا ، مناهضة لها على طول أطرافها الشرقية .

فلو أن رجلاً حازماً جاء إلى عرش فرنسا بعد شارل الخامس ، لما ترتب على قيام هذه الدولة البرجنندية الجديدة أى خطر كبير . لكن خليفة شارل الخامس على العرش الفرنسى سنة ١٣٨٠ م كان طفلاً ناقص العقل أثماً ، وهو شارل السادس الذى لم يكد يصل إلى سن البلوغ حتى انقلب إلى حال من الجنون الشديد ، فباتت الحكومة وشئون الحكم فى فرنسا آخر الأمر بسبب هذه الحال مجالاً للتنازع بين لويس دوق أورليان أصغر أخوة الملك ، وحنا المقدام (The Fearless) دوق برجنديا ابن عمه . وكان لويس شاباً وسم الطاعة ، ممتلئاً بروح النهضة الأوربية الجديدة عن طريق زوجته الإيطالية فالنتينا فيسكونتى ، على حين كان حنا المقدام (١٠٤٤ - ١٤١٩ م) عنيفاً غليظ القلب . وجتد لويس سياسة العمل الجدى ضد إنجلترا عدوة فرنسا ، على حين أدرك حنا مدى الترابط الاقتصادى بين فلاندرز وإنجلترا . ووقف هذان الزعيمان على طرفى نقيض كلما ظهرت مشكلة من المشاكل على مسرح السياسة الفرنسية ، مثل مشكلة الانقسام البابوى ، بسبب انتخاب اثنين من البابوات المتنافسين . لذا وقف لويس إلى جانب البابا الفرنسى بنديكت المقيم فى

أفنيون ، على حين لزم حنا المقدم سياسة الحياد ، بحجارة لرغبات العاصمة الفرنسية ، فأرضى بذلك علماء باريس وطلابها وغوغائها ، ودلّ على بصيرة نافذة ، مع ما هو معروف عنه من عنف شديد .

وفي ليلة من ليالى سنة ١٤٠٧ م ، وقعت جريمة من الجرائم السياسية المروعة التى تدلّ في أوقات الحرج على نفاذ الصبر بين الناس ، إذ اغتيل دوق أورليان في شارع من شوارع باريس . ولم يكن ثمة شك في مصدر هذه الجريمة ، لأن اللوق حنا اعترف بصلورها عنه ، ولأن عالماً من علماء اللاهوت بجامعة باريس انبرى لتبريرها ، كما أنه ليس ثمة شك في أهميتها ، بالنظر إلى ما ترتب عليها من انقسام فرنسا قسمين بلغ من شدة التناحر بينهما أن شال فرنسا بما في ذلك باريس بات في قبضة هنرى الخامس ملك إنجلترا ، سنة ١٤٢٠ م .

ومن الحقائق المتكررة في ثنايا التاريخ الفرنسى أن باريس شهدت من مظاهر العنف والتطاحن الحزبى تلك السنوات ما لم تشهد مدينة أخرى في فرنسا ، أى أن العاصمة التى ينبغي لها أن تبدو موطن الأمن والنظام والاتزان بدت على العكس بؤرة العاصفة والصخب والفوضى . تلك كانت شيمة باريس بعد وقعة بواتيه ، حين قضت حوادث الإرهاب والحيانة على الإصلاحات الدستورية التى شرعها مجلس طبقات الأمة ، مدة أسر الملك حنا الكريم ؛ وتلك كانت شيمتها بعد مقتل دوق أورليان ، حين حالفت طوائف الطلاب بجامعة باريس نقابة الجزائريين ، وهبّ الكل ومن ورائهم دوق برجنديا ، فحاصروا الباستيل ، وحاولوا القبض على أفراد الأسرة المالكة ، وقاموا بمظاهرات ثورية شبيه بها في كثير من تفاصيلها حوادث الثورة الفرنسية في القرن التاسع عشر الميلادى ، وحوادث الثورة الإسبانية في العصر الحاضر (١) .

ولم تكن إنجلترا أحسن حالا من ذلك منذ وفاة إدوارد الثالث ، ولئن مضى عهد رتشارد الثانى (١٣٧٧ - ١٣٩٩ م) ابن الأمير الأسود في أمان ، لا لسبب سوى الصلح بين فرنسا وإنجلترا والمحافظة على شروطه من الجانيين ، فإن ذلك العهد امتلأ بالقلق الشديد والحزبية العنيفة ، فضلاً عن التقلب السياسى في غير تمهيد أو إنذار ، مع السخط الاجتماعى المنتشر بأرجاء البلاد ، والهرطقة الدينية التى أخذت تتحدى النظام البابوى والكنيسة البابوية . على أن المشكلة التى هددت

(١) يشير المؤلف إلى الثورة الإسبانية التى سبقت الحرب العالمية الثانية . زيادة .

السلام الداخلى فى إنجلترا وقت ذاك هى مشكلة الحريات الدستورية وما اعترضها من أخطار فى السنتين الأخيرتين من عهد رتشارد ، حين تجلى من نيات الملك أنه يريد تعطيل الحكم البرلمانى . وربما كان مرجع ذلك زواج رتشارد من كاترين الفرنسية ، وتأثره بما حدث فى فرنسا على عهد شارل الخامس من عدم انعقاد مجلس طبقات الأمة إلا مرة واحدة فى ذلك العهد ، كما تقدم^(١) ؛ أو ربما كان مرجعه ما استولى على رتشارد من ملل وغيظ ، مما يصيب ذوى الأمزجة المتقلبة كثيراً من الأحيان . غير أن رتشارد أخطأ على أية حال فى تقدير طباع الإنجليز فى موقفه هذا ، بعد أن اعتاد البرلمان الإنجليزى الاجتماع للموافقة على إمداد الملكية بالأموال اللازمة لمواصلة الحرب فى فرنسا ، وبعد أن صار البرلمان مجلسين منفصلين منذ أيام إدوارد الثالث ، مغدا البارونات والأساقفة فى مجلس اللوردات ، ومثلوا المدن وفرسان المقاطعات فى مجلس العموم ، وكل من المجلسين صاحب حق مقرر فى إدارة شئون البلاد .

بعبارة أخرى لم يكن فى استطاعة رتشارد أن يلغى هذه التقاليد وأدواتها التى أضحت جزءاً هاماً من الحياة الإنجليزية ؛ وإذ عُزل إدوارد الثانى ثم قتل سنة ١٣٢٧ م ، لتفريطه فى شئون الحكم ، فلا أقل من عزل رتشارد الثانى وقتله كذلك ، لاستثنائه بدفة الأمور . هكذا لى رتشارد الثانى حتفه على يد هنرى دوق لانكستر سنة ١٤٠٠ م ، جزاء إفراطه فى النيل من الحريات الدستورية ، وهو الذى عاش وحيداً يحذوه الإقدام والإسراف ، مع الإنسانية والمروءة ، بالقياس إلى الكارهين فرنسا من النبلاء المحيطين به .

وحلّ هنرى الرابع لانكستر محلّ رتشارد الثانى على عرش إنجلترا ، وكان بيت لانكستر رمز المحافظة الدينية والحكومة الدستورية ، وهما القاعدتان اللتان تمنى الإنجليز مراعاتهما وقت ذاك . ولذا استبدل اللانكستريون سياسة الاضطهاد بسياسة التسامح التى أذنت قبلهم هرطيق من الهرطقة — هو حنا وكلف — أن يظلّ على هرطقته حتى وفاته سنة ١٣٧٤ م ، بين أهله لا بين أخطاب مشتعلة النيران . ولم تلبث سياسة الاضطهاد التى لزمها اللانكستريون أن أبعدت أهل العلم وأصحاب الحياة الهادئة عن اللولارديين وحركتهم ، فأخذت اللولادية^(٢) تهوى إلى مهاوى الضلالة

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٢٤ . زيادة .

(٢) اللولادية اسم للحركة الإصلاحية الدينية فى إنجلترا فى القرن الرابع عشر الميلادى ، ومن رجالها حنا وكلف المذكور هنا بالمتن . والمبادئ اللولادية أصل من أصول الإصلاح الدينى الكبير فى إنجلترا ، فى القرن السادس عشر الميلادى . نظر كذلك ما يلى هنا فى الفصل الذى عنوانه النقاد والمصلحون . زيادة .

والجهل . غير أنه على حين أدت هذه السياسة إلى كبت الحرية الفكرية في إنجلترا على عهد اللانكستريين ، انتهزت البرلمانات اللانكستريّة قيام هذا البيت في الملك لتجعل الإشراف على التشريع والمال ركناً من أركان الدستور الإنجليزي . لكن التقدم الدستوري الذي يرجع إلى اللانكستريين لم يستمرّ بعدهم ، لأن الحرية تعتمد على حبّ النظام ، ولأن سوء النظام هي الصفة التي اتصفت بها الحكومات الإنجليزية في القرن الخامس عشر الميلادي ، بسبب عجزها عن تطبيق القانون على جميع طبقات الناس . ومع هذا فما لا شك فيه أن السوابق التي أقرتها البرلمانات اللانكستريّة لم يعثرها النسيان ، بدليل أن هذه السوابق هي التي استند إليها رجال القانون أثناء الصراع الشهير بين التاج والبرلمان في إنجلترا ، في القرن السابع عشر الميلادي .

ومهما قيل في هذا الصدد ، فالمعروف أن إنجلترا لم تكن يوماً من الأيام بلداً تسلس حكومتها لأحد ، إذ قال عنها ريتشارد الثاني وهو في غياهب السجن بيرج لندن : "هذه بلاد عجيبة لا تستقرّ على قرار ، وطالما نفت أو قتلت أو أقرت الكثيرين من الملوك والحكام والعظماء ، وهي على الدوام والغة في المنازعات والاختلافات والأحقاد" . وكذلك ألفاها هنري الرابع (١٣٩٩ - ١٤١٣ م) ، بعد أن تبين له أن حكمها ليس أمراً سهلاً ، وهو الجندي العبوس الهادي الذي أنهكته حروبه في بروسيا والنجر ، وأتعبته أمراضه المستعصية أواخر حياته . وكيف يرى هنري الرابع غير ذلك ، وهو قبالة مشاكل اللولارديين والاسكتلنديين ، والغالين الثائرين بزعامة أوين جلندور ، فضلاً عن آل پرسی الذين أحدثوا بشمال إنجلترا من الاضطراب ما حمل هنري على التشكيل بهم في وقعة حربية حاسمة عند شروزبري . ولو أن سياسياً رزيناً خَلَفَ هنري الرابع على عرش إنجلترا ، لوضح له أن أهم ما يدعم الأسرة الجلديدة هو مسألة الدول الأجنبية . غير أن هنري الخامس (١٤١٣ - ١٤٢٢ م) لم يكن من الرزاة في شيء ، بل كان كله شعلة وحاسة حرية ، على قول شكسبير في إحدى دراماته ، وهو ما تحمّد الإنجليزي للملكهم الجلديد من الصفات . ولئن بدت إنجلترا وقتذاك بلداً عسيرة الحكم والقياد ، فإنها كانت أمة متحدة على عكس الأمة الفرنسية المنقسمة على نفسها أسوأ الانقسام . ففي إنجلترا نعمت الملكية بتأييد البارونات ورجال الدين ، ولم يؤدّ الانفصال البابوي في إنجلترا مثلما أدى إليه في فرنسا . برغم طمع جماعة من البارونات في الأملاك

الكنسية ؛ ولم يوجد في إنجلترا مشكلة من المشاكل الداخلية إلا زالت أمام الأمل في تجديد الحرب ضد فرنسا . ودل هنرى بإعلانه أحقيته في عرش فرنسا استناداً إلى حق^(١) جدّه إدوارد الثالث أن الأمل في تجديد الحرب وشيك التحقيق . وفأوضح هنرى كلاً من البرجنديين والأورليانيين (الأرمنياك^(٢)) في وقت واحد ، فدلّ على استعداده لمعاونة أحسن الفريقين شروطاً ، ولم يتشكك لحظة واحدة في الانتصار ، نظراً لما امتلأت به فرنسا من الانقسام .

ثم عبر هنرى إلى فرنسا ، فكان استيلاؤه على هارفليز . وانتصاره عند أجنكورت . سنة ١٤١٥ م . باكورة لما استقرّ عليه عزم الملك الشاب من إعادة مجد كريسي وبواتيه ، فضلاً عن التدليل على أن أبيت لانكستر من البسالة الحربية ما يجعله قمينا باعتلاء العرش الإنجليزي ؛ ولم يكن لدى الفرنسيين جيش أو أسطول لدفع الغزاة . وفي أجنكورت بذلت فئة من النبلاء الفرنسيين الأورليانيين أرواحها دون جدوى ، كما بذل إخوانهم أرواحهم من قبل في كريسي وبواتيه ، وفي نيقوبولس الكبرى ضدّ الأتراك العثمانيين سنة ١٣٩٦ م . غير أن ما أحرزه هنرى الخامس من ظفر ، وما تمّ له بعدئذ من فتح نورمانديا ، لم يكن يغنى عنه شيئاً لولا ما استمرّ من روح الانتقام بين الأحزاب المتناحرة في فرنسا نفسها . فالبرجنديون الذين وقفوا من حملة أجنكورت وقفة المبتعد عن القتال ، وشهدوا سقوط روان في يد الإنجليز شهود المحايدين ، انحازوا أخيراً إلى الجانب الإنجليزي بسبب جريمة سياسية خطيرة ، وهي اغتيال تانيجوى دى شاستيل صديق ولى العهد في المملكة الفرنسية دوق برجنديا حنا المقدام ، عند جسر مونثرو سنة ١٤١٩ م . فاندلع بذلك لهيب الحرب الأهلية من جديد . ومن ثمّ غدا ولى العهد بغيضاً لدى البرجنديين وأهل باريس ، فأقسموا على حرمانه من اعتلاء العرش ، وجعلوا هنرى الخامس ملك إنجلترا حق الوصاية والوراثة في عرش فرنسا . بمقتضى معاهدة تروا سنة ١٤٢٠ م ، على أن يتزوج من أميرة فرنسية ؛ أما برجنديا فقام على دوقيتها فيليب الطيب (The Good) . بعد أبيه حنا المقدام .

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣١٥ . زيادة .

(٢) سرى اسم الأرمنياك على حزب الأورليانيين ، بعد أن تزوج دوق أورليان سنة ١٤١١ م من ابنة كونت أرمنياك ، وصار هذا الكونت بشخصيته زعيم الأورليانيين . زيادة .

ومن المعلوم أن معظم الفضل في انتصار الإنجليز خلال جميع حروبهم في فرنسا يرجع إلى حلفائهم من طوائف الفرنسيين ، والبريتانيين ، والفلمنكيين ، وغيرهم . فالجيش الشهير الذي انتصر به الأمير الأسود في بواتيه جاء معظمه من جسقةونيا ، وكان نبيل جسقوني أحد البارزين بين قادة ذلك الجيش . وعندما أحيا هنرى الخامس مشروع توحيد إنجلترا وفرنسا في تاج مشترك ، كان العامل المسيطر على الموقف مرة أخرى صداقة حزب من الأحزاب الفرنسية البرجندية لإنجلترا ، فضلاً عن صداقة الفلمنكيين ، بل اعتمد كل شيء على استمرار صداقة ذلك الحزب الفرنسى الذى تصور أن الإنجليز لن يكونوا أبغض إليه من الأرمنياك .

ولما وجد فيليب الطيب مصلحته في تأييد هنرى الخامس بقيت الحاميات الإنجليزية المرباطة بشمال فرنسا كأنها طوائف تابعة لحزب البرجنديين ، لا جيوشاً أجنبية تسند ملكاً اغتصبت له الوصاية والوارثة في عرش فرنسا . غير أن الموقف تغير تماماً حين غير البرجنديون رأيهم نتيجة معاهدة أراس سنة ١٤٣٥ م ، فندذئذ لم يعد محور المسألة استطاعة إنجلترا أن تحفظ مركزها في فرنسا ، لأنه لم يكن في استطاعتها شيء ألبتة بغير تأييد البرجنديين ، ما عدا تقرير انسحابها الاضطرارى من الأراضي الفرنسية .

على أن هذا كله من سبق الحوادث ، والحوادث هنا تطالب الرجوع إلى أصل من أصول التاريخ الفرنسى . ففي كاتدرائية ريمس حيث مقبرة القديس ريمى خلف المذبح الكبير ، يوجد سقف يشبه شكل يمامة ، به وعاء بلورى ، وبالعواء زيت مقدس نزلت به يمامة من السماء لمسح كلوثس يوم تنويجه أول ملك مسيحي على الفرنجة . وبهذا الزيت المقدس الذى حفظت كميته المقدسة معجزة خارقة ، مُسحت رءوس شارلمان ولويس التاسع وغيرهما من ملوك فرنسا الذين لم يبلغوا هذين الملكين من القداسة في التاريخ الفرنسى ، وأقسم كل منهم يوم تنويجه أن يحكم قومه بالعدل والرحمة . هكذا أضحي الملك من ملوك فرنسا لا يُعدّ ملكاً شرعياً في نظر الفرنسيين إذا هو لم يُحتفل به على هذا النمط بكتدرائية ريمس ، وهنرى الخامس ملك إنجلترا وصاحب مشروع توحيد إنجلترا وفرنسا في تاج مشترك لم يُحتفل به على هذا النمط ، بل وافته منيته . فمات مسموماً بسحر تعاويد الأرمنياك ، على قول الجند الإنجليز . ولم يخلف هنرى الخامس وريثاً سوى ابن عمره تسعة أشهر ، وسوف يظل هذا الصغير طويلاً دون أن يستطيع احتمال المراسيم اللازمة لتنصيبه

ملكاً جديداً على فرنسا . وبدا خلا الجوّ للأمير الفرنسى شارل زعيم الأرمنياك ، وهو ولى العهد ، لأنه الحادى عشر من أبناء الملك المجنون شارل السادس الذى أدركته منيته كذلك سنة ١٤٢٢ م . وكان شارل هذا شاباً عليلاً حياً تقياً ، يخشى بطش الإنجليز ، ويسهده عنف الأهواء التى ملأت بلاطه المضطرب بين بورج وبواتييه وشينون . ولكنه على أية حال زعيم بيت قالوا ، وسليل آل كاييه ملوك فرنسا الأقدمين .

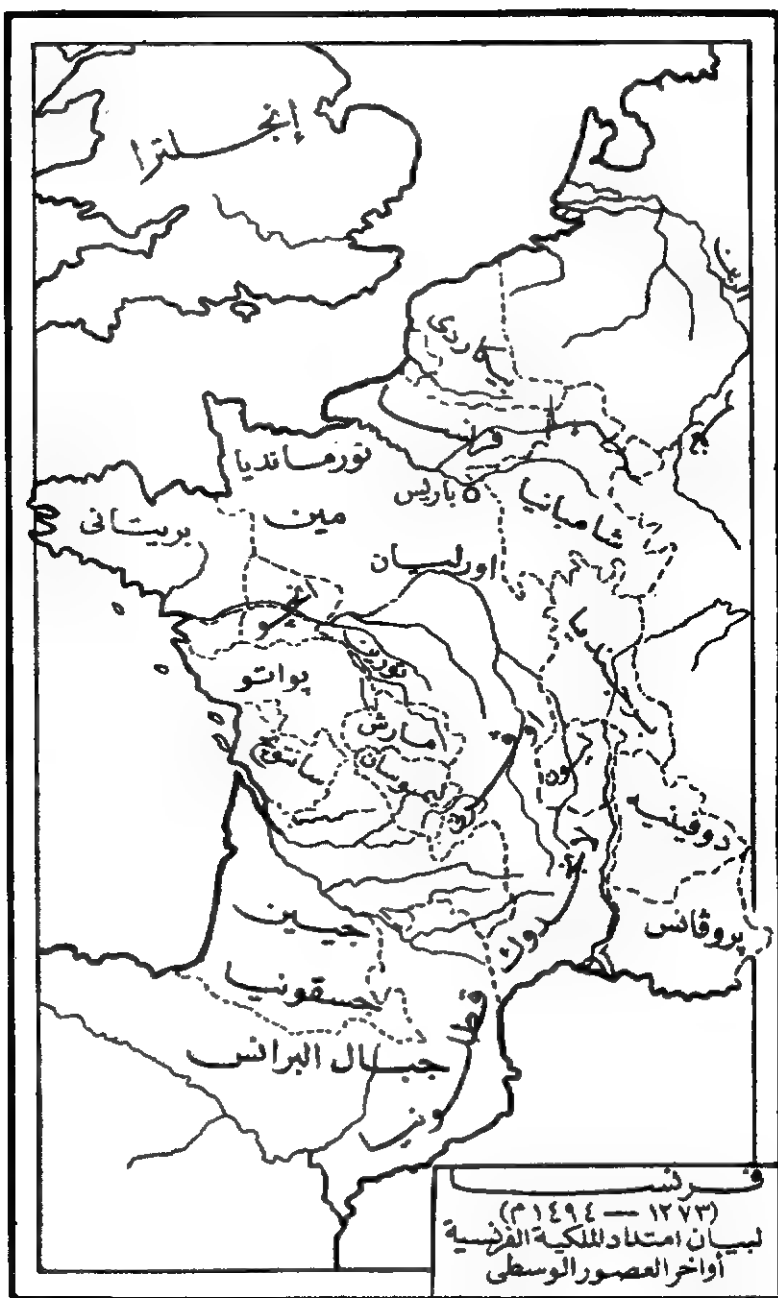
وأنبات الفتاة الفرنسية جان دارك أن شارل سوف يتوّج فى ريمس ، ما من ذلك بدّ ، إذ نادتها أصوات من السماء وهى تغدو بين أعمالها المتزلية ورعى أغنام أبيها بقرية دومرى باللورين ، وأوحت إليها أن تبرح قريتها إلى فرنسا لتخليص مدينة أورليان التى ضرب الإنجليز عليها الحصار، وأن تصحب ولى العهد شارل بعدئذ إلى ريمس حتى تتوجه ملكاً بكتدرائيتها . وحققت جان دارك هاتين الرسالتين فى عزيمة ساذجة رفيعة ، فخلصت أورليان بعد تسعة أيام على وصولها الأسوار (مايو سنة ١٤٢٩ م) ، وهى التى ظلّ الإنجليز على حصارها نيفاً وسبعة أشهر، وألقت من روح الثقة بالنفس فى نفس ولى العهد الذى تشكك فى كل شيء حتى شرعية بنوته . وصحبته إلى حفلة التتويج التى بها اكتملت أحقيته فى العرش الفرنسى . وبها جعلته شارل السابع . غير أنه من الغباوة أن يدعى أحد بأن هذه الفتاة التى لم تجاوز الثامنة عشرة من العمر كانت خيرة بفن الحرب، إذ الحقيقة أن فئة من خيرة الفرنسيين العسكريين التفوا حولها ، وأن أساليبها كانت روحية بجحة ، وأن حماسها وعزيمتها الحالية من التردد خلقت بين الجند من صفات الشجاعة والتضحية والابتهاج ما أحيا الأمل فى قضية يائسة .

ويتجلى نجاح جان دارك فى مقدار ما أثارتة فى نفوس خصومها من رعب وكراهية ، فبينما اعتبرها الأرمنياك بطلة قديسة ، قال البرجنديون والإنجليز بأنها ساحرة بالغة السحر ، وهرة طيقة دون جدال . وإلا ، فكيف يفسرون ما طرأ على الحرب كلها من تغير فجائى نجّم عنه تخليص مدينة أورليان ، وهزيمة وقعة باتاى ، واسترجاع مدينة تروا ، وتتويج الملك شارل السابع فى ريمس ، وتهديد باريس ، فضلاً عن حلول الثقة والأمل محل الاكتئاب والقنوط فى صفوف الأرمنياك ؟ . وقال البرجنديون والإنجليز كذلك إن فتاة لا تستطيع أن تجلب النصر والفتح لفئة خاسرة ، إلا أن تكون الفتاة مخلوقة من الشيطان الرجيم . واعتقدت جامعة باريس

البرجندية قلباً وقالياً أن جان دارك ساحرة ، وهى الجامعة التى لم تحجم عن مخالفة الجزائرين وتقاتبهم للدفاع عن الآراء البرجندية .

كذا انتهت رسالة جان دارك بتنصيب شارل السابع ملكاً على فرنسا ، وغدا من المستطاع بلونها أن تسير أعمال التحرير القوي التى بثت فيها من روحها القوية . ثم وقعت جان دارك أسيرة فى يد أعدائها البرجنديين عند بلدة كومبيين ، فسلموها إلى قادة الحملة الإنجليزية ، واستطاع هؤلاء بفضل المساعدة الناشطة التى تلقوها من صنيعهم بطرس كوشون أسقف بوفيه ، ومن أساتذة جامعة باريس ، ومن آخرين من أقطاب الدينيين الفرنسيين ، أن يعدموا جان دارك الساحرة المارقة عن الدين حرقاً بالنار علناً ، وسط السوق بمدينة روان ، يوم الثامن والعشرين من مايو سنة ١٤٣١ م . وما يوجب الالتفات أن شارل السابع الذى يدين بكل شيء لتلك الفتاة لم يحرك ساكناً للأخذ بيدها فى محنتها ، لأن شاباً من فلاحى بلدة جيفودان ادعى أنه كذلك من أهل الكشف والحياة التبتلية الطاهرة ، ووعد شارل النصر حيثما حل ، فغدا من الممكن لديه أن يستغنى عن مساعدات جان دارك . وكيفما كان الأمر تراءت جان دارك لأعدائها الإنجليز (كما صورها شكسبير فى درامته هنرى السادس) ساحرة آثمة ، استخدمتها فئة من الأشرار لإثارة المتاعب لإنجلترا وجنودها الأخيار ، الأتماء الشجعان ، الذين قارعوا السيف بالسيف دائماً فى الحرب ، ولكنهم لم يتصفوا يوماً من الأيام بصفة تجعلهم قادرين على مقابلة السحربالسحر . أما استشهاد جان دارك فإنه خلق بين الفرنسيين روحاً من الوحدة لم تعرفها فرنسا قبلاً ، فما لبثت إنجلترا أن فقدت جميع المزايا التى اعتمدت عليها أوائل مراحل الحرب فى الأراضى الفرنسية ، إذ سوى البرجنديون مشاكلهم مع فرنسا سنة ١٤٣٥ م ، ورجعت باريس إلى أهلها سنة ١٤٣٦ م ، واستطاع شارل السابع أن يبنى لفرنسا أداة حكومية رشيدة بفطنته التى أنضجتها السنون ، وبفضل الكفايات التى التفت حوله ، ومنها چاك كير المالى الكبير ، وچان بورو المهندس الخبير باستخدام المدفعية فى الحروب ، وهو السلاح الذى أربع به نابليون أنحاء أوربا فى القرن التاسع عشر الميلادى .

وأصدر شارل السابع قانون الجيش سنة ١٤٣٩ م ، وبمقتضاه جعل لفرنسا جيشاً نظامياً يقوده ضباط معينون من قبل الملك ، لا فرسان من الإقطاعيين . وخصص شارل للإنفاق على الجيش ضريبة ملكية من ضرائب الدخل اسمها التاى (Taille) ،



كما عمد إلى النيل من النبلاء الذين طالما أوضاعوا في الفتنة والخروج على القانون ، فحرّم عليهم فرض الضرائب في إقطاعاتهم ، أو تكوين الجيوش دون براءة ملكية ، أو إثارة الحروب الإقطاعية الخاصة . ولم يكن عجباً أن يثور كبار النبلاء في فرنسا سنة ١٤٤٠م ضدّ هذه الإصلاحات اللازمة لهضبة الأمة الفرنسية ، وسلامتها ، على أن ثورتهم هذه ، وهى المعروفة باسم البراجيرى ^(١) لم تلبث أن تهلمت ، إذ انبرى الجيش الملكى الفرنسى لحربهم بوحداته من الفرسان والمشاة والمدفعية التى أنشأها شارل السابع ، تحدياً لتقاليد الإقطاعية القديمة . ودلّ شارل السابع بانتصاره في آخر معركة من معارك هذه الحرب الطويلة ، أن عصر البارود والمدفعية آن أوانه ، فسقطت روان وبايون وبوردو ، واحدة بعد أخرى ، أمام القوى النظامية التى أنجبها فرنسا الوطنية . ولم يبق لإنجلترا من جميع ممتلكاتها سوى كاليه ، بعد إبرام الصلح بين الإنجليز والفرنسيين سنة ١٤٥٣ م .

هذا ما كان من أمر حرب المائة سنة ومراحلها ، وبعض ظواهرها . وثمة ظاهرة من بعض ظواهر هذه الحرب الطويلة ، أن روح المباراة الفردية بقيت بين المتحاربين رغم القذائف الوحشية التى ملأت ميادين القتال . ذلك أن الحرب في العصور الوسطى — وإن ظلت من الناحية العملية مجال النضال واليران والأسلاب والأنهاب — ظلت في نظر المجتمع ملهاة الملوك ، ومجمع الأبطال ، وسبيل الله في امتحان الأمم . فنازل إدوارد الثالث فيليب الرابع ، ونازل هنرى الخامس لويس ولى العهد ، لتسوية ما بين إنجلترا وفرنسا من حرب عامة ، في مبارزة فردية خاصة . ومعنى ذلك أن إظهار الشجاعة الشخصية ، ومراعاة تقاليد الفروسية ، كان أعظم أهمية للزمالة الحربية الأنجلو — فرنسية من فضائل الرحمة أو النظام ، لأن هذه الفضائل من القيمة الثانوية في الحروب على أية حال . ومن الأمثلة على ذلك أن الأمير الأسود الذى لم يتردد في قتل أهالى ليوج ذبحاً — دون اعتبار الجنس أو السن — ليلة معركة هواتيه ، قام على خدمة الطعام لأسيره حنا الكريم ملك فرنسا ، واحتفى به أكبر الحفاوة .

والواقع أن الزمالة الرفيعة بين نبلاء تشابهت ألسنتهم وملاهيهم ، فضلاً عن شعائرتهم الدينية وقوانينهم السلوكية في المجتمع ، خففت من حدة الحرب بين

(١) سرت هذه التسمية على ثورة النبلاء الفرنسيين سنة ١٤٤٠م ، لمشابهاة ثورة سابقة قام بها نبلاء بوهيميا بمدينة براغ . زيادة .

الإنجليز والفرنسيين في ساحات القتال ، باستثناء معارك البحار التي لم تعرف أمواجهاً شيئاً من لزوميات الفروسية في العصور الوسطى ، أو غيرها من العصور . ومن الأمثلة الدالة على روح تلك العصور كذلك أن أرمل إيرل آيبر بمبروك - وهي الفرنسية الأصل - أسست في السنة التالية لمقتل زوجها بمعركة كريسى كلية في جامعة كمبردج ، يكون للطلبة الفرنسيين فيها الأفضلية في الدراسة والسكنى ، ولا تزال هذه الكلية تحمل اسم بمبروك حتى العصر الحاضر . ومن الأمثلة كذلك أن شارل السادس ملك فرنسا أمر بالصلاة على روح إدوارد الثالث ملك إنجلترا بكنيسة سانت شابيل ، غداة وصول الخبر إلى باريس بوفاة ، تخليداً لذكرى بطل عظيم كان في حياته ألد أعدائه ، وأشدهم خطراً على مملكته .

غير أنه نتج عن حرب المائة عام أن وقفت عملية التبادل الحضارى التي ساعدت على تكوين إنجلترا منذ الفتح النورمانى ، كما ساعدت على تنظيم الإدارة الفرنسية عن طريق الإمبراطورية الأنجوية ، وجلبت على كل من إنجلترا وفرنسا كثيراً من الخير والشر والقابلية في الداحيتين . ففي إنجلترا أخذت اللغة القومية تحل محل اللغة الفرنسية في المؤلفات الأدبية ، والمحاكم ، والبرلمان ، والكنيسة ، وفي مراسلات الملوك ومكاتبات الطبقة المثقفة . وانتهت كذلك آثار الكتاب الإنجليز في الآداب النورمانية الفرنسية التي كانت شركة بين فرنسا وإنجلترا ، وأخذ كل من الكتاب الفرنسيين والإنجليز ينهج منهجه الخاص ، فلم يلتزم الإنجليز رنين النماذج الفرنسية وجرسها اللفظى فحسب . كما كانت عاداتهم منذ الفتح النورمانى ، بل أخذوا يستمعون بفضل تشوسر - ولأول مرة - إلى صليل دانتي والآداب الإيطالية . ثم إنه سرى بين الأمتين شعور بالمرارة والتباعد ، بدلا مما كان بينهما من التقارب القديم الذى انعكست أنواره في الحوليات المعتمدة التي كتبها المؤرخ فرواسار . وكل ذلك وغيره لأن العصر الإقطاعى بلغ مرحلة الأفول ، ولم يبق منه إلا طرف من غسق العشاء الآخرة ، يتراءى للقارئ في المنشورة الرائعة التي ألفها سير توماس مالورى سنة ١٤٧٠م ، وعنوانها " وفاة الملك آرثر " . وفي ذلك الغسق آذنت بوادر عصر جديد مزاجه التصادم بين الدول .

غير أن حرباً من الحروب الكبرى لا يمكن أن تمر دون أن تخلّف وراءها نتائج ذات آثار بعيدة المدى في الحياة الإنسانية ، لأنه ليس أقوى على تحطيم التقاليد والعادات المتأصلة في النفوس من الحروب وما يتلوها من التضخم المفاجئ في

مصرفات الدولة ، حين تخلق الحاجة إلى المال مشاكل متعددة ، وتفتح آفاقاً جديدة ، وتثير حقوقاً لم تكن في الحسبان ، وتقذف برجال جدد إلى أعلى مراتب الحكم ، وتقلب أوضاع التوزيع الاقتصادي بين الطبقات .

مثال ذلك أن حاجة إدوارد الثالث إلى اقتراض المال أفسحت مجال الربح للمالين الإيطاليين في لندن ، كما أفسحت مجال المطالبة الدستورية للبرلمان الإنجليزي في وستمنستر ، وأن الخوف من أخطار النقل البحري أثناء الحرب جعل الإنجليز يعملون إلى صنع أصواف أغنامهم أقمشة في إنجلترا ، بدل تصديرها خاماً إلى أسواق أوروبا ، وبذا أسسوا الصناعة الأولى بين صناعاتهم الرأسمالية الكبيرة . وبسبب الضغط المالي الناشئ عن الحرب عمد ملوك فرنسا إلى سياسة نقدية خاسرة ، إذ خفضوا قيمة النقود بالترفيف وغيره من وسائل الغش ، فارتفعت أسعار الحاجيات والمتاجر قياساً على ذلك الخفض ، وأدى الأمر — لا في فرنسا فقط — إلى جميع الارتباكات المالية التي يجرّها التضخم حتماً في أذياله . وحين باتت الحصيلة من الضرائب القائمة غير كافية — لسدّ حاجات الحرب — لجأ ملوك فرنسا كذلك إلى منابع جديدة للمال ، مثل "الجابل" ، وهي ضريبة احتكار الملح التي تقرر سنة ١٣٤١م ، وغدت ركناً من أركان الدخل الملكي في فرنسا حتى زمن الثورة الفرنسية .

على أن غرب أوروبا كله تأثر بتلك الحال ، فكلما ارتفعت الأسعار كلما أضحّت العلاقات مريّة شاقة بين صاحب العمل والعامل . وبين التاجر والمستهلك ، وبين المالك والفلاح . ولذا انتشرت بغرب أوروبا موجة من السخط العام في السنوات العشر الواقعة بين سنة ١٣٧٥ ، ١٣٨٥ م ، فأصاب رذاذها بلاد فلاندرز ، وشمال فرنسا ، ومدينة جنّت ، وإنجلترا ، حيث قامت ثورة الفلاحين سنة ١٣٨١ م . والحاصل أن طبقات الحكام وأرباب السلطان غدت في حال من القزع الشديد بأنحاء أوروبا ، لأن قوات جديدة بدأت تظهر في المجتمع ، وترى جمود بنيانه الطبقي بشرر ، ولم يعد باستطاعة الأرستقراطية الحربية أن تغفل الطبقات الدنيا ومطامعها التي أخذت تعمل منذئذ في تشكيل المجتمع تشكيلاً جديداً . ولعل أوضح دليل على هذه الحال أن الحكومة الإنجليزية حين اقترحت ضريبة الرعوس على البرلمان سنة ١٣٨١ م ، ظنّت أنها تفتح بهذه الضريبة مغاليق الثروة الأهلية التي أضحّت كلها في أيدي أهل الحرف والصناعات والفلاحين .

وثمة نتائج أخرى لم تكن على بال بسبب هذه الاضطرابات الاقتصادية ،

ومنها أن التضخم التقدي خلق لبايات أفنيون مسألة على جانب من الصعوبة ، وهي كيف يكون الحصول على الأموال اللازمة للقيام على شئون البابوية التي أمدت أوربا بروح النظام في القرن الثالث عشر الميلادي ، وظلت في نظر العالم المسيحي بغرب أوربا لازمة من لوازم الحياة المتحضرة . وابتدع البابا حنا الثاني والعشرون لذلك - وهو الفرنسي الذي يرجع أصله إلى قرية كاورسان - ضريبة السنة الأولى من دخل الوظائف الكنسية (Annates) ، وبذا استولى هذا المالى اللاهوتي البار على أول إيراد سنوى من جميع التعيينات الكنسية الجديدة . وتوسلت البابوية بوسائل استغلالية أخرى ، مثل مقرر البابوات (Papal Provisions) لمساعدة ميزانية الكرسي البابوي ، فأحدثت بذلك من السخط العميق والمعارضة من جانب الملوك - ولا سيما في إنجلترا - ما أثر أبلغ الآثار في الحياة الأوربية . ذلك أن شناعة الوسائل التي استخدمت في جمع هذا المقرر المالى أساءت إلى سمعة الحكومة البابوية بغرب أوربا أكبر الإساءة ، وذلك قبل أن يطرأ على المجتمع الأوربي من التطور الفكرى ما جعل الرجل العادى يتحدى البابوية أو يجرؤ على النيل من مركزها العام .

ثم اختتم الإنجليز قصة حرب المائة سنة في فرنسا بحرب الوردتين في إنجلترا نفسها ، حيث انتحر النبلاء الإقطاعيون الإنجليز انتحاراً عاماً . ذلك أن أولئك النبلاء ضاقوا بالحياة الوادعة في ظلال السلم ، لأن الحرب في سهول فرنسا أو بين جبال الغال احتلت من نفوسهم المحل الأول ، ولأن الخروج للحرب أضحي عندهم كالمخرج لصيد الغزلان والثعالب . ولذا اقتنى الكثيرون منهم فئات عسكرية جندوها من أتباعهم ، وألبسوها ملابس تحمل رنوك (شارات) بيوتهم الإقطاعية ، واستخدموها في إرهاب المخلفين في قضايهم ، كما استخدموها في اغتيال أعدائهم ، فضلاً عن قيام هذه الجيوش بالسطو على المسافرين العابرين أو النهب في أرض الجيران ، ممن يكونون أقل قوة ونفراً ؛ ومن شرّ هذه الفئات الباغية لم يستطع هنرى السادس أو حكومته الضعيفة إنقاذ البلاد .

وكان من هذه الفئات فئتان يتزعمهما نبيلان متنافسان على عرش إنجلترا ، فضل كل من الفئتين يحارب حروبه الخاصة والعامة وسط أناس هم بعيدون كل

البعيد عن شئون المتحاربين ، وفي حيرة من أمرهم ، هل ينضمون إلى فئة اللانكستريين أصحاب الوردة الحمراء ، أم إلى فئة اليوركيين أصحاب الوردة البيضاء . ومن حسن حظ إنجلترا أن هدف الفئتين أصحاب الوردتين لم يخرج عن هذا المجال الضيق ، وأن حركة من الحركات الجديرة بإثارة الأمة الإنجليزية لم تكن سبباً من أسباب الحجة السياسية المميتة التي اختارتها الأرستقراطية الإنجليزية لنفسها وقتذاك . أما الحركتان اللتان كان لهما أكبر الأثر في رفعة الأمة الإنجليزية منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، فلم تتأثر بما وقع بين أصحاب الوردتين من حروب ، وهاتان الحركتان هما نمو الثروة الصناعية والتجارة ، وازدياد تحرير الفلاحين من القيود الإقطاعية . ولذا انتهت حرب الوردتين وخمدت العاصفة دون أن تخسر إنجلترا أو المجتمع الإنجليزي إلا قليلاً ، بل كسب كل منهما كثيراً بذهاب القوات التي طالما عرقلت سير الحكومة واحترام القانون . وكانت حرب المائة سنة مصدر مكاسب أخرى للدولة والمجتمع في إنجلترا ، فعلى الرغم مما تخلف في حلق الإنجليز من مرارة بسبب ضياع ممتلكاتهم في فرنسا ، لم تشعر الأمة الإنجليزية — ولم يوجد من الأسباب ما يجعلها تشعر — بأنها أقل شأنًا من جارتها الفرنسية . وظلّ الإنجليز يعللون النفس بأن مجد أيام كريسى وأچنكورت سوف يعود ، وأن من حقهم أن يهتوا بما ورثوه من دستور حرّ ، وأن يقرنوا بين رخاء أهل القرى في إنجلترا وبؤس الفلاحين في فرنسا تحت نير النبلاء الفرنسيين .

ولئن خسر الإنجليز الحرب ، فإنهم خرجوا منها أمة مرفوعة الرأس ، ظامئة إلى العمل ، يحدوها قلق منتشر في طول البلاد وعرضها . ثم إن الإنجليز تقدموا خطوات واسعة في فنون الحرب ، ولم يقتصر تقدمهم على ذلك فحسب ، بل دلوا على تفوق وبراعة في نواح أبجدي وأبقى مما أظهره رماتهم من ضروب الشجاعة والثبات في كريسى وأچنكورت ، إذ أودعوا لغتهم من الخصب والليونة وحسن التمازج — بين عناصرها اللاتينية والنيوتونية — ما جعلها قادرة كل القدرة على التعبير في سهولة واضحة عن الأفكار والأخيلة التي اتصف بها قوم شاعريون على جانب من سعة الخيال والفكاهة ، وهم أهل الشاعرين العبقرين تشوسر ولانجلاند . وللإنجليز في ذلك العصر من روائع المعمار كنيسة ونشستر ، وكلية نيوكلدج بمدينة أكسفورد . ومن أعمال التطريز وزخرفة المخطوطات وصياغة الحلى والنقش ما يشهد على ما اتصفوا

به من الدقة الفنية والذوق، فضلاً عما هو معروف عنهم من صفات القوة والشهامة . ولم يتخلف الإنجليز وراء غيرهم من الأمم في مضمار التفكير الفلسفى المتصل ، بل كان ما كتبه حنا وكلف فى غير خشية زمن الملك رتشارد الثانى ، أواخر القرن الرابع عشر الميلادى ، طليعة مبكرة لجميع ما أنتجت البروتستانتية من الأسس العقلية والعقائدية ، فى القرن السادس عشر الميلادى .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Armitage-Smith, (S.A.) : John of Gaunt 1908.
- Bainville : Histoire de France.
- Fortescue, (Sir John) : The Governance of England. (Ed. C. Plumme, 1885).
- France, (Anatole) : Vie de Jeanne d'Arc. 1908.
- Froissart : Chronicles. (Everyman's).
- Oman (Sir Charles) : The Great Revolt of 1380. (London 1906).
- „ „ : A History of the Art of War in the Middle Ages, 1924
- „ „ : Warwick the Kingmaker. 1890.
- Lavissee, (E) : Histoire de France. 1903.
- Luchaire, (A) : Manuel des Institutions Françaises.
- Shakespeare, (W) : Richard II.
- „ (W) : Henry VI.
- Shaw (G Bernard) : Saint Joan 1923.
- Stubbs, (W) : Constitutional History of England. 1880.
- Valois, (N) : La France et le Grand Schisme d'Occident. 1896.
- Vickers, (K H) : England in the Later Middle Ages. 1915.

الفصل الحادى والعشرون

الألمانىون والسويسريون

مصادر القوة فى أسرة هابسبرج — لويس ملك بافاريا — نمو المدن الإيطالية — تدهور الحركة الأدبية الألمانية — تحرير السويسريين — نزول الهابسبرجيين عن سويسرا لألمانيا، وكسبهم الإمبراطورية لأنفسهم — قلة قيمة الأباطرة الهابسبرجيين بعد استيلاء الأتراك العثمانيين على القسطنطينية .

* * *

شهدت أوروبا مطلع عصر جديد حين تمّ انتخاب رودلف هابسبرج ملكاً على الرومانيين ، أى إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة فى الأمة الألمانية سنة ١٢٧٣ م . ذلك أن مقتل آخر سليل من سلالة الأسر الإمبراطورية الكبرى سنة ١٢٦٨ م ، وهو كترادين^(١) حفيد فردريك الثانى ، ختم على قصة المحاولات الإمبراطورية الطويلة لتوحيد بلدين كبيرين مختلفين بعضهما عن بعض تمام الاختلاف ، وهما إيطاليا وألمانيا ، فى تاج واحد نافذ السلطان . ولم يخالج النبيل السويسرى المحدث ، وهو رودلف هابسبرج الذى قذفت به المقادير طفرة إلى أرفع منصب فى أوروبا ، أى اعتبار عاطفى أو تاريخى حين تخلى للبابوية عن إقليمى رُمّانية (Romagna) والأرخونية البيزنطية فى إيطاليا ، فضلاً عن الحقوق الإمبراطورية فى تسكانيا والسيادة الإمبراطورية فى صقلية . الواقع أن رودلف لم يهتم أى اهتمام بإيطاليا ، بل صرف جهوده عهده الحافل بالحوادث الطوال فى انتزاع النمسا من منافسه الإمبراطورى أوتوكار ملك بوهيميا (وقعة مارشفيلد سنة ١٢٧٨ م) ، وتدعيم سلطة بيت هابسبرج فى وادي الدانوب ، حيث ظلّ ذلك البيت منبع الهيبة والهيمنة والهيلمان حتى الحرب العالمية الأولى .

على أن العصر الحديد لم يغير شيئاً فى ألمانيا التى بقيت على حالها من الانقسام السياسى الغالب على الحياة الألمانية ، معظم العصور الوسطى . والسبب فى ذلك أن

(١) راجع ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٦٠ . زيادة .

العنصر التيتونى العنقى الذكى الماضى العزيمة - وهو العنصر الذي جرف الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وخلق الدول الجرمانية الحاكمة فى إيطاليا وإسبانيا وفرنسا وإنجلترا وروسيا^(١) - أصابه شلل قلبى أفقده كل صفاته من الرجحان والإقدام فى مناكب القارة الأوروبية . ووضح ذلك الشلل تمام الوضوح فى ألمانيا ذاتها ، حيث انطمت معظم التقاليد الألمانية الدافقة بالوطنية القبلية القديمة ، وهى التقاليد التى بدت كفيلة بشئ غير قليل من التجانس الخلقى القومى بين الألمانين أوائل العصور الوسطى . ولا عجب فى ذلك كله والألمانون أنفسهم هم الذين جلبوا على ألمانيا هذه الحال السياسية اليائسة ، وبرهان ذلك أن سكسونيا وبافاريا انفصلتا بعضهما عن بعض تمام الانفصال بسبب ما طفق به صدر الإمبراطور فردريك بربروسا من عداء ضد قريبه هنرى الأسد ، وأن دوقيه سوابيا تمزقت واستحالت أشلاء مبعثرة مدة الحروب الداخلية التى سبقت بلوغ الإمبراطور فردريك الثانى سن^(٢) الرشده . وحدث هذا وذلك وغيره من الحوادث حتى غدت ألمانيا العصور الوسطى لا دولة بل حلبة سياسية تبارى فيها كبار النبلاء والأساقفة والمدن الإمبراطورية ، فضلا عن آلاف من صغار النبلاء الذين لم يعترفوا بسلطان عليهم سوى سلطان الإمبراطورية الحاوية على عروشها . وكانت مباريات أولئك وهؤلاء كلها لتحقيق أطماع متباينة يحدوها شئ من الاتحاد السياسى بين بعض هذه الفئات ضد بعضها الآخر ، مما صبغ هذه المباريات بصبغة من العظمة القومية ، كما يحدوها شئ من الضن^(٣) بالمصالح الخاصة ، مما جعل هذه الصبغة القومية بعيدة كل البعد عن الحقيقة الكائنة . والخلاصة أن كل جهة عملت لنفسها فى ألمانيا وقتذاك ، وأمسست روح الوطنية الألمانية فى خمود ، فلم يحرّكها عرض تاج ألمانيا على إدوارد الثالث ملك إنجلترا (والمعروف أن البرلمان الإنجليزى هو الذى منعه من قبول هذا العرض) ، وبات الشعب الألمانى قانعا بتصرف شثونه منذ ١٣٤٦م ، ولخمس سن سنة بعدها ، من مدينة براج (براها) عاصمة بوهيميا .

أما مصدر المصادر لهذه الرزايا كلها فهو سياسة الأثانية التى لزمها هيئة الناخبين (College of Electors) الألمانين فى جميع الانتخابات

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١١٥ . زيادة .

(٢) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٠٢ وما بعدها ، وكذلك

ص ٢٥٥ . زيادة .

الإمبراطورية، إذ خالوا الانتخاب الإمبراطورى فرصة من ذهب لإشباع الأطماع، ونسج المؤامرات ذوات النتائج الويلة والذبول المؤدية للفتنة. فإذا وضع لهم أن المرشح الراغب فى المنصب الإمبراطورى رجل قليل الصولة والسلطان، ولا تربطه بالإمبراطور المتوفى رابطة بنوة أو أخوة، مما يجعل له حق المطالبة بالعرش الإمبراطورى عن طريق الإرث، وهو بالإضافة إلى ذلك ليس من أرباب الأراضي الإقطاعية الواسعة فى ألمانيا، ولكنه من أرباب اليد السخية بالوعود المغرية، إذا وضع لهم ذلك فهو فى رأى هيئة الناخبين يستأهل الانتخاب، ويستحق العرش الإمبراطورى كل الاستحقاق. لذا لم يكن عجباً والحال هذه أن ينخفض منصب الإمبراطور-- وهو أعلى المناصب السياسية فى أوربا-- انخفاضاً مستمراً، وأن يبلغ الحضيض أويكاد من حيث الهبة والسمعة والحلال، فى القرن الرابع عشر الميلادى.

غير أن إمبراطوراً فرداً شذت عن هذه القواعد العامة التى ظلت معمولاً بها حتى سنة ١٧٤٢ م، لمنع انتخاب أحد من ذوى النفوذ الإقطاعى الكبير فى ألمانيا للمنصب الإمبراطورى. ذلك هو لويس وتلسباخ دوق بافاريا-- أى لويس الرابع -- الذى صار إمبراطوراً من سنة ١٣١٤ م إلى سنة ١٣٤٧ م، وهو الذى أحاطت بانتخابه طعون كثيرة، وامتلاً عهده بحروب داخلية مريرة، فضلاً عن منازعات طويلة مع بابوات أفنيون، وإذعانات على طول الخط لأطماع فرنسا فى بعض الأراضي الألمانية. ولم يكن الإمبراطور لويس البافارى خاواً من جليل الصفات والمزايا المؤهلة لمنصبه العظيم، وهذه بالإضافة إلى نفوذه الإقطاعى الشامل لأراضى الراين وكونتيات هولندا، وهينولت والتيرول، وبراندنبرج ودوقية بافاريا. ومع هذا توفى لويس سنة ١٣٤٦ م مقطوعاً من رحمة الكنيسة، معزولاً عن المنصب الإمبراطورى بأمر البابا لهيئة الناخبين. ولعدة قرون بعد لويس تولى عرش الإمبراطورية رجال ليس فيهم أحد ممن اقتصرت إقطاعاته على ألمانيا، فكان شارل الرابع وابنه ونترل ملوكاً لبوهيميا قبل كل شئ، على حين كان ماكسميليان أصغر إخوة ونترل ملكاً على المجر قبل أن يكون ملكاً على الرومانيين، أى إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة فى الأمة الألمانية. أما سلسلة الأباطرة الهابسبرجيين من سنة ١٤٣٨ م فصاعداً فكانوا ملوكاً على ألمانيا، وهى جزء صغير من ممتلكاتهم بالقياس إلى

ممتلكاتهم الأخرى ، إذ عملت هيئة الناخبين على إقصاء الإمبراطور إلى أطراف الإمبراطورية لتحقيق أطماع توسعية غير ألمانية ، لأنهم لم يريدوا لألمانيا ملكاً قومياً ، وإنما أرادوا لها رئيساً لمجلس عام (Diet) يستمدّ منهم الوحي والإرشاد .

ومن هذا كله يتضح أن المرأة الحقيقية لتاريخ ألمانيا في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي ليست أعمال الحكومة الإمبراطورية المركزية التي قلما استطاعت أن تضطلع داخل ألمانيا نفسها بأبسط الواجبات الإدارية ، من تحصيل الضرائب وحفظ الأمن ، بل هي حياة المجتمع الألماني وما فيه من غناء وتنوع ، ونمو الإمارات الإقطاعية ، ونشاط المدن الكبرى مثل نورمبرج وأوجزبرج ، وحركة التجارة في وادي الرين ومدن العصبة الهنسية^(١) ، واستعمار الفريسيون البروسيا ثم فتحها وإدماجها في الإمبراطورية الألمانية . على أن ما اتصف به ذلك العصر من فقدان النظام السياسي تمثى تمثيلاً ملحوظاً مع ما امتلأت به ألمانيا وقتذاك من مظاهر الثروة والنمو الاقتصادي المتصل ، ومصادق هذه المظاهر ما رواه إنياس سيلفيوس — وهو البابا بيوس الثاني — غداة زيارته ألمانيا سنة ١٤٥٨ م . إذ قال إنه لم ير في أوروبا من آيات الجلال والجمال مثلاً رأى في كولونيا وكنائسها الرائعة ودورها العامة وضواحيها الموثقة وقصورها البديعة ، وإن ما في بعض بيوت أهل ستراسبورج من الشموخ والفخامة يجعلها صالحة لكل الصلاحية لسكنى الملوك ، وإن ملوك اسكتلندا الذين شهد سيلفيوس بلادهم في إحدى رحلاته ليطيرون فرحاً لو صارت قصورهم الحقيرة شبيهة ببيوت المتوسطين من أغنياء نورمبرج ، وإن أية مدينة من المدن لا تداني مدينة أوجزبرج في الثراء ، وإن فينا تضم قصوراً وكنائس تحسدها عليها إيطاليا ذات البدائع المعمارية الخالدة .

وما يجعل هذه الأوصاف موضع الدهشة والالتفاف أن ألمانيا طفحت بالحروب الأهلية وقتذاك ، وأن ركبان المتاجر لم يكن من المستطاع سيرها في أمن دون حراسة مسلحة ، وأن مدن الإمبراطورية لم تحافظ على مصالحتها إلا بسهر الجيوش المجنّدة من أبنائها . وفي مثل هذه الأحوال تنمو في كل مدينة من المدن — وفي كل إقليم من الأقاليم — روح من الوطنية المحلية الشديدة ، وهذا هو ما حدث بألمانيا في القرن الخامس عشر ، إذ قل اهتمام المواطن من أهل

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٢٥ — ٢٢٩ . زيادة .

أوجزبرج ، أو كولونيا ، أو لوبيك ، أو مجدبرج ، بثون التوسع الإمبراطورى فى أطراف أوربا ، على حين اهتم كل الاهتمام بكل ما من شأنه أن يزيد فى عظمة مدينته ، لأنه ربما ضحى فى سبيل هذه العظمة بقريب من أقبائه ، وهو نفسه على استعداد لتكرار التضحية إذا استلزم الأمر ذلك . أما إخلاص هذا المواطن للإمبراطورية الألمانية الواسعة فكان ضئيلاً ضيقاً ، بالقياس إلى إخلاصه للآزب لحياته وطمأنينة مدينته التى عاش فيها .

وفى هذه المرحلة من تاريخ ألمانيا ، كما فى أشباهها من مراحل العنف الفادح والثروة الدافقة فى مختلف الأمم ، اضطبغت حضارة الألمانين فى القرن الرابع عشر الميلادى بصيغة مادية ناشطة . ودلّل ديلنجر على ذلك - وهو أستاذ التاريخ الكنسى والقانون بجامعة ميونخ بألمانيا أوائل القرن التاسع عشر الميلادى - بقوله إن الإمبراطور لويس الرابع الباقرى^(١) حين اشتبك مع البابوية فى مسألة جدلية^(٢) طويلة ، واحتاج إلى معونة فقهاء القانون وعلماء الدين لم يجد ألمانيا واحداً من هؤلاء أو أولئك بأية جامعة من الجامعات الألمانية ، بل اضطر إلى الاستعانة بالقانونيين من الإيطاليين والإنجليز للدعاية لقضيته وتوجيه نظريته ضد البابويين . ثم إن ألمانيا لم تنجب ذلك العصر شاعراً فى حلاوة تشوسر الإنجليزى وفكاهته ، أو فرانسوا فيلون الفرنسى وعاطفيته ، أو بترارك الإيطالى ولطافته ، أو أحداً ممن هو دون هؤلاء من النظامين (Minnesingers) السابقين فى عصر الفروسية والحروب الإقطاعية ، بل سطعت المادية الألمانية فى شمس الأدب بنثر ثقيل الظل والخيال والرزين . وحمد الناس نسيانه بعد قليل . والواقع أن مستويات عالية من الحسن والإبداع لم تكن مما يظهر فى بلد محطم مزعزع الأركان ، لكن التربة الإنسانية الألمانية ظلت برغم ذلك غنية بإمكانياتها وطاقاتها ، ولم يخل زرعها البطيء المضطرب فى ذلك العصر من ثمار نادرة باهرة مبعثرة . فمتصوّف أو مخترع هنا ، ومعمارى

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٤٣ . زيادة .

(٢) ثارت هذه المسألة حول موقف البابوية من انتخاب الإمبراطور لويس الرابع ، إذ أعلن البابا حنا الثانى والعشرون أن الإمبراطورية إقطاع من لدن الكرسي البابوى . ولا يصح الانتخاب الإمبراطورى إلا بعد تصديق البابا . ورأى الإمبراطور لويس الرابع أن يستمد من القانونيين سنداً يدحض به هذه الدعوى ، فوجد من مارسيليو البدوى الإيطالى وغيره مساعداً كبيراً ، إذ قال مارسيليو فى مؤلفه الذى عنوانه دفاع عن السلام (Defensor Pacis) أن الدولة المدنية هى السلطة الأعلى ، وأن الشيوقراطية البابوية لا تقوم على أساس تاريخى . زيادة .

أو صانع حاذق هناك ، وهكذا . ثم إن المجتمع الألماني لم يفقد مباهجه الخاصة ، فبقيت البيرة الألمانية على حالها من الجودة ، كما بقيت الموسيقى الشعبية على حالها من الرقة واللفظ ، ومن هذه الأرض الألمانية التي خفّت ثمارها في موازين السياسة والأدب نبت الاكتشافان اللذان غيرا معالم المجتمع الإنساني كله تمام التغير ، وهما البارود والطباعة ، على حين ظلت الإمبراطورية سائرة في طريقها من الانحلال .

وإذا احتاج الباحث بعد ذلك كله دليلاً على ضعف الإمبراطورية الألمانية وسوء سياستها ، أواخر العصور الوسطى ، فليس أقرب إليه من تاريخ السويسريين في ذلك العصر ، وهم شعب جبلى خالص النيات . ذلك أن السويسريين لم يفكروا في الانفصال عن الإمبراطورية يوماً من الأيام ، ولم تكن ثورتهم ضد الإمبراطور ، بل — على العكس من ذلك — رغبوا في أن تكون تبعيتهم له مباشرة ، وأن يزيلوا الطغيان الإقطاعي الذي حجز بينهم وبينه ، وحرهم من الوصول إلى عدالته ، ونقص عليهم حياتهم تنغيصاً غير قليل . وفي تاريخ تكوين سويسراً منذ اتحاد الولايات الثلاث سنة ١٣٠٧ م — وهي ولايات أونتر فالدين وشفتر^(١) وأودى المشهورة بغاباتها الكثيفة — إلى معاهدة بازل التي اختتمت بها حرب التحرير السويسري في ٢٢ فبراير سنة ١٤٩٩ ، لم ينل أحد حقوق الإمبراطور والإمبراطورية بشيء ، بل روعي النص في وضوح على هذه الحقوق في كل مناسبة من المناسبات . غير أن سياسة الإمبراطورية الألمانية عجزت عن أن تفيد من ولاء هذا الشعب الباسل أو تستغله لمصلحتها ، حتى إذا دلّ الرماة والزراكون السويسريون في وقائع مورجارتن سنة ١٣١٥ م ، وسمباخ سنة ١٣٨٦ م ، وفيفلتر سنة ١٣٨٨ م ، على أنهم أصلب المحاربين الأوروبيين عوداً في ميادين القتال ، كما دلّوا على أنهم أنداد للفرنسيين وأساتذة للبرجندبين وملكهم شارل الجسور في الحروب ، وأنهم زبدة القوة الحربية في الإمبراطورية الألمانية ، أهملتهم الإمبراطورية إهمالاً عامداً . حدث ذلك بدلاً من أن تسند إليهم الإمبراطورية قسطاً كبيراً في حكومة الاتحاد السويسري ، وتجعل منهم أداة لها لا عليها ، وهو ما يبدو من أبسط القواعد السياسية عند السياسي البصير . ومعنى هذا الإهمال أن أقوى شعب بين شعوب الإمبراطورية

(١) اشتقت سويسرا اسمها (Shweize) عند السويسريين أنفسهم من اسم هذا الإقليم ، ويتضح الاشتقاق تماماً من مقارنة لفظ (Swisse) ، أي سويسرا في الفرنسية ، بلفظ شفتر (Schwiz) ، وهو اسم هذا الإقليم . زيادة

لم يكن ذا صوت مسموع في تدبير شئونها ؛ وربما ظل السويسريون بعيدين عن مسرح التاريخ لو أنهم التزموا ما كتبه عليهم الدستور الإمبراطوري من هوان وقلة احترام . ومن الدليل على ذلك ، وهو دليل على انعدام البصيرة والحكمة في السياسة الإمبراطورية كذلك ، أن مجلس فورمز الذي اجتمع سنة ١٤٩٥ م لإصلاح الدستور الإمبراطوري لإصلاحاً جدياً ضرورياً بإدخال نظام عام للضرائب . وإنشاء مجلس أعلى للإمبراطورية (Reichs Kammergericht) لم يحسب للسويسريين أى حساب ، بل نسيمهم كأنهم من سقط المتاع . وأدرك السويسريون عند ذاك أن سوف يكون عليهم أن يدفعوا من الضرائب العامة ما هو مطلوب منهم ، وأن يرضخوا للمراسيم التي يصدرها الإمبراطور من بلاطه البعيد ، لأنهم أعضاء في اتحاد إمبراطوري ليس لهم في حكومته نصيب . ورأى السويسريون كذلك أن التفسير الطبيعي لهذه المقترحات الجائرة الصادرة عن هيئة أجنبية ليسوا منها ، هو أن الإمبراطورية تبتغي تعيين حاكم عليهم ، كما رأوا أن تنعقد نياتهم على رفض هذا الحاكم ومقاومته بكل ما أوتوا من قوة . ثم نشبت بين الاتحاد السويسري والعصبة السوابية الألمانية حرب سنة ١٤٩٩ م ، بسبب اعتداء العصبة على بعض مدن الاتحاد ، فانتصر السويسريون على أعدائهم انتصارات منقطعة النظير ، وهذه الحرب هي في الواقع أول الحروب الاستقلالية السويسرية ، وإن لم تشتهر بهذا الوصف . لأن تحرير سويسرا أصبح بعدها أمراً قريب المآل^(١) .

أما سبب العداء الذي أدى إلى هذه النتيجة ، فرجعه اختلافات اجتماعية متأصلة بين السويسريين والألمانيين . ففي النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي أثار السويسريون في الهابسبرجيين شيئاً من الخوف والكره المتصلفة التي تشبه ما يشعر به المحافظون من أهل فرنسا وإنجلترا نحو الروسيين الشيوعيين ، في العصر الحاضر . ذلك أن حركات السويسريين لم تهدف إلى طرد عمال الاستبداد الهابسبورجي الإمبراطوري فحسب ، بل هدفت إلى هدم سلطان الإقطاعيين المحليين الذين كانوا أشد استبداداً بهم من الإمبراطوريين . ووضحت معالم هذه

(١) تخفى هذه العبارات القليلة بين سطورها تفصيلات كثيرة معقدة ، وهي ذات أهمية في التاريخ الأوروبي أواخر العصور الوسطى ، ولا سبيل إلى توضيحها هنا إلا بالإضافة الكثيرة إلى المتن ، أو بإحالة القارئ إلى المطولات ليتزود منها حسبما يشاء . انظر (Camb. Med. Hist. Vol. VII pp. 182-215) . زيادة .

الروح الديمقراطية الجديدة في كثير من الظواهر الاجتماعية والسياسية الدالة على نيات السويسريين نحو الإقطاعية وحقوقها ، وامتيازاتها وإعفاءاتها القديمة . وجزع الإقطاعيون الألمان أشد الجزع من هذه الديمقراطية التي تغيّت إزالة الأرستقراطية السويسرية من ميدانها العتيد ، وخشوا أن ينتقل الوباء إلى غير سويسرا من البلاد ، فيحاول الفلاحون الألمان أن يهجموا منهج السويسريين ، بأن يكونوا لأنفسهم اتحادات راغبة في الفتنة ، لينازعوا بها سادتهم الإقطاعيين امتيازاتهم الموروثة من سالف الأزمان . والخلاصة أن الإقطاعي الألماني أحسن بأن طبقته أصبحت مهددة بأولئك الرغام السويسريين . وهم رعاة البقر وأرباب الحرف والصناعات والمتاجر ، لأنهم دلوا بما قاموا به من بيع أراضيهم أو رهنها رغبة في الحصول على المال اللازم لتحرير بلادهم . وبما أدوا من خدمات في ميادين القتال ابتغاء الوصول إلى ذلك الغرض ، أن سويسرا لم تعد مكاناً آمناً للأرستقراطية الإقطاعية . وشارك الإمبراطور مكسميليان طبقة الإقطاعيين الألمان في أحاسيسهم هذه ، حين أشار إلى السويسريين في إحدى خطبه العامة بقوله : " إنهم شعب من الفلاحين المناحيس الأشرار ، لأنهم تجردوا من الفضيلة والنبالة والاعتدال ، وليس لديهم من الصفات سوى عدم الإخلاص وشدة الكراهية للأمة الألمانية " .

غير أن تحرير السويسريين - أواخر العصور الوسطى - وهو أول نصر للديموقراطية في أرض أوروبية أوسع مساحة من أية مدينة من المدن اليونانية التي تحققت لها ديموقراطيتها في العصور القديمة ، كان مما يوجب الالتفات ، نظراً لجنوح التطور السياسي . أواخر العصور الوسطى في أوروبا . نحو الإمارات المستبدة ذات السلطان العريض . على أن السويسريين لم يسهموا بحديد في حلبة التقدم البشري . ولم تصل مدنيّتهم إلى ما يقرب من مدنية إيطاليا أو فرنسا أو ألمانيا . بل لم يضيفوا غداة تحريرهم شيئاً إلى تراث أوروبا في العلم والثقافة . وليس ينسب إليهم من هذا التراث حتى العصر الحاضر إلا قليل . ومع هذا ليس بين الأحداث التاريخية ما أفاد أوروبا مثلما أفادت من تحرير سويسرا . بفضل البسالة والشجاعة والعزيمة التي استعان بها السويسريون على تغيير حالهم من تبعية إلى استقلال . ومن اختلاف إلى اتفاق عام . ولم تقتصر خدمات السويسريين على ما تعلمته الجيوش الأوروبية من جيوشهم في الفنون الحربية فحسب ، بل تعدّتها إلى خدمات أخرى خلاصتها إحياء فكرة الحرية السياسية في أوروبا ، بعد أن برهنوا على أن للحرية السياسية روحاً

تكفل توحيد شعب مهما اختلفت أجزاؤه في اللغة والجنس والدين . ولهذا بدت سويسرا طوال عصور الإمارات المستبدة ذات السلطان العريض نموذجاً للدولة العصامية الحديثة (Parvenu State) ، تدبر شئونها بنفسها دون نبلاء أو ملوك ، وتذكر أوروبا بأن في ميدان التجارب السياسية متسعاً لغير نماذج العصور الوسطى في تكوين الدول . وفي سويسرا هذه تتمتع الناس بأوفر قسط من حرية الفكر ، وحرية المناقشة في المسائل الشائكة ، دون خشية . وقبل أن تصبح جبال سويسرا هذه وتلوجها الجميلة موئلاً لعشاق التسلق والانزلاق والمرح البريء ، غدت المدن السويسرية موئلاً للطريد السياسي والمضطهد الفكري في بلاده ، أى أنها قامت — على مقياس صغير — بمثل ما قامت به الولايات المتحدة الأمريكية فيما بعد ، مع العلم بأن ما قامت به سويسرا في هذه السبيل كان له أكبر الأثر في التطورات الدينية بأوروبا في العصور الحديثة .

ومن الواضح أن أسرة هابسبرج هي العلو الذى انتزع السويسريون منه أوائل حريتهم وأواخرها ، فإن وحشية ألبرت الأول هابسبرج ، فضلاً عن تعاسيف عماله ، هي التي خلقت عصبة الوديان الثلاثة . غير أن هذه العصبة السويسرية هي التي طأطأت كبرياء الهابسبرجيين في وقائع مورجارتن وسنباخ ونيفلز ، وفي حروب العصبة السوابية بعد ذلك بقرن من الزمان . والواقع أن الاتحاد السويسري وطّد نفسه في كل مراحل تكوينه على عداوة هذه الأسرة التي وقفت منه موقفاً بالغ الإمعان في النقمة ، وذلك لأنها أسرة نبئت من أصل سويسري ، وتقمّت على الأحرار السويسريين أن يكونوا مصدرراً لفشلها .

ومن هذا يتبين لنا أنه إذا كانت أسرة هابسبرج هي التي جعلت للنمسا مكاناً في هيئة الدول الأوروبية ، فهي التي أضاعت سويسرا على الإمبراطورية الألمانية ، وتلك هي الصدمة العظمى في تاريخ هذه الأسرة التي بلغت ممتلكاتها من السعة — وزيجاتها الإمبراطورية من النجاح السياسي — مبلغ الأمثال . وفيما عدا هذه الصدمة جرّت المقادير في أعنتها خلمة لأولئك السادة الذين تواصلوا بالإلحاح والمثابرة ، واتصفوا بقسط غير قليل من البلادة ، وأحبوا التوسع الإقليمي كلما استطاعوا إليه سبيلاً . وصفوة القول أن الهابسبرجيين بدلو كأنهم حالقوا الخط في كل شيء ، حتى إن إحقاقهم في الحصول على التاج الإمبراطوري ، بين وفاة رودلف الهابسبورجي سنة ١٢٩١ م إلى إعلان ألبرت الخامس إمبراطوراً سنة ١٤٣٧ م .

لم يكن سوى نعمة مستترة ، لأنهم ظلوا هذه المدة البالغة قرناً ونصف قرن بعيدين عن مشاغل الإمبراطورية ومطالب واجباتها ، واستطاعوا بذلك أن يجعلوا أنفسهم أكبر المالكين للأراضي في ألمانيا ، حتى إذا عادت إليهم الإمبراطورية بتولية ألبرت الخامس سنة ١٤٣٧ م ، استطاعوا أن يبقوا مترعين على عرشها إلى النهاية ، أى سنة ١٩١٨ ، ما عدا السنوات الواقعة بين سنة ١٧٤٢ و ١٧٤٤ م .

وربما تراءى للباحث الحديث كأن ثمة صفات بشرية وجغرافية بوادى الدانوب هى التى تطلبت قيام هذا البيت الهابسبرجى ، بل كأنما تطلبت هذه الصفات البشرية والجغرافية ما اتصف به الهابسبرجيون من صلابة فى مثابة ، ومثابرة فى قلة ذكاء . ومثال ذلك كله فردريك الثالث (١٤٤٠ - ١٤٩٣ م) - وهو أول إمبراطور زينت الشفاه الهابسبرجية الشهيرة شواربه ، وآخر إمبراطور توجته البابوية فى روما - إذ قام فردريك هذا مقام أكبر دمية عديمة القيمة فى أكبر دور من أدوار التاريخ . والواقع أن فردريك لم يكن يصلح للإمبراطورية الألمانية إلا بقدر ما كان إدوارد الثانى صالحاً للملكية الإنجليزية وتصريف شئونها ، والمعروف أن إدوارد هذا كان أضعف ملوك إنجلترا ، وأبلدهم وأقلهم قدرة على تصريف شئون الدولة ، مع العلم بأن فردريك لم يتصف بشيء من الصفات التى جعلت لشخصية إدوارد بعض الجاذبية^(١) . والخلاصة أن فردريك بلغ من البساطة والغباء ما جعل فى استطاعة دبلوماسى إيطالى حاذق مثل إنياس سيلقيوس^(٢) أن يطويه طوع بنانه ؛ ومع ذلك تربع هذا الغبي العنيد عرش الإمبراطورية فى قينا ، وأربنى حكمه على خمسين عاماً ، دون أن يخلف أثراً من عقله أو إرادته فى تدبير أمور الإمبراطورية . وفى تلك الأثناء استولى الأتراك العثمانيون على القسطنطينية ، وفتحوا بلاد المجر ، وغدت النمسا بين عشية وضحاها آخر معقل للمسيحية ضد الزحف العثمانى ، وأمسّت تنوء بعبء لا يخفى على أدنى الناس بصيرة . غير أن فردريك لم يكن من أولئك الذين تقلق بالهم الحوادث مهما بلغت خطورتها ، أو من أولئك الذين تحرك أذهانهم المشاكل مهما اشتد أمرها ، أو من أولئك الذين يثير خيالهم المستقبل وما فيه من المخاوف ، لأنه اتخذ الركود والجمود والكسل مبادئ حياته ، أى أن رجلاً غيباً متحجر العقل استطاع أن يقتعد أكبر مناصب أوروبا أهمية ، فى أشد مراحل التاريخ الأوربى حرماً .

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٢٩ . زيادة .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٤٤ . زيادة .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Aeneas Sylvius Piccolomini : *De rebus et gestis Fredrici III.* Ed. A.F. Koller.
- Bryce, (J.) : *Holy Roman Empire.* 1904.
- Coxe : *History of the House of Austria.* 1874.
- Dandliker : *Short History of Switzerland.* Tr. Salisbury 1899.
- Kirk. (J.F.) : *History of Charles the Bold.* 3 vols. 1863-1868.
- Waugh. (W.T.) : *A History of Europe, 1378-1494.* Methuen. 1932.

الفصل الثانى والعشرون

الناقدون والمصلحون

آراء دانتي السياسية - إزدياد الاهتمام بالعلوم - البابوية فى أفنيون - الانقسام الدينى الكبير (١٣٧٨ - ١٤١٧ م) - الجامعات - فكرة المجامع الكنيسة - حركات التصوف فى القرن الرابع عشر الميلادى - حنا وكلف - بقاء اللولارديّة بإنجلترا بعده - أثر وكلف وتعاليمه فى مملكة بوهيميا - تقدم مملكة بوهيميا على عهد ملوكها من أسرة لوكسمبرج - شارل الرابع ومرسومه الإمبراطورى - تأسيس جامعة براج وظهور حنا هس - حركة المتطهرين فى بوهيميا - الحروب الهسية الدينية (١٤١٧ - ١٤٣١ م) - اتفاقية إجلال سنة ١٤٣٦ م - اختلاط العداوات العنصرية بالعداوات الدينية فى الحركة الهسية - المحاولات الداخلية لإصلاح الكنيسة - حركة المجامع الدينية - فشلها - انتصار البابوية على منتقديها سنة ١٤٥٠ م .

* * *

أمسى قيام مجتمع مسيحى يهيمن عليه كل من البابا والإمبراطور هيمنة مشتركة راضية أمراً بعيداً عن حيز الممكنات السياسية فى الحياة الأوروبية ، منذ القرن الرابع عشر الميلادى ، برغم ما ظل يختلج - فى بعض العقول - من الاعتقاد بأن مجتمعاً يقوم على هذه القاعدة هو المجتمع الذى أراده الله للناس . ذلك أن سلطان الإمبراطورية بات فى خبر كان ، على حين بات البابوات بعد رحيلهم عن روما إلى أفنيون ، وانغماسهم فى مباحجها الفرنسية ، موضع ريبة الدول الأوروبية التى غدت واحدة بعد أخرى عدوة لفرنسا وحكومتها المسيطة على البابوية . وسرّ ذلك أن عصر الدولة الأوروبية الجامعة غدا فى الأفول ، على حين أشرقت مطالع عصر جديد مزاجه الدولة القومية ، بدليل الإجابات العنيفة التى أجابت بها إنجلترا وفردا بعدها على البابا بونيفاس الثامن وتدخله البابوى فى شئون كل منهما^(١) ،

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٢٩٣ ، ٣٠٢ . زيادة .

وبدليل حروب المائة سنة التي كانت فاتحة الحروب القومية في أوروبا^(١) . ومن هذه الحروب التي تعدّ في مجموعتها أكبر أحداث القرن الرابع عشر الميلادي تولدت أعظم دولتين في غرب أوروبا ، أي إنجلترا وفرنسا اللتين وقفتا تيه كل منهما بتفوقها على صاحبتها ، وتحصى عليها عيوبها ، مع الإصرار على مبادلتها عداء راسخاً بعداء مثله . وفي أثناء هذه الحروب الطويلة المريعة قامت البابوية بدور لم يخل من فائدة ، وإن خلا من نتيجة ، إذ تطفقت تدعو إلى السلم وتأمّر به دون جدوى ، لأنها ظلت دائماً موضع الاهتمام بميلها إلى الفرنسيين .

ولم تقتصر هذه الروح الجديدة على القومية ونهوضها فحسب ، بل تعدتها إلى مختلف الميادين الحيوية في المجتمع الأوربي . ففي القرن الثالث عشر الميلادي كتب الشاعر دانتي في الكوميديا الإلهية ، وفي رسالته الملكية التي ألفها باللغة اللاتينية ، ينمى على العالم الأوربي انحرافه عن سواء السبيل الذي أرادته العناية الإلهية للناس ، إذ رأى البابوية أفسدتها الثروة ، والإمبراطورية تهدمت وانخمدت ، وإيطاليا الحبيبة إليه استعبدتها الأجانب ؛ والدولة العالمية المسيحية الهادفة إلى تنظيم المجتمع البشري على نسق عادل باتت هدفاً لسخرية الساخرين ، وطمع الطامعين . وأيقن دانتي ألا أمل في الإصلاح إلا بعودة الإمبراطورية إلى سابق سلطانها ، وتطهير الكنيسة بإشاعة الروح الفرنسيسكانية المتقشفة في أرجائها . غير أن القاعدة التي زعم الزاعمون أن يبنوا عليها العالم المسيحي في القرن الثالث عشر الميلادي لم تعد في الإمكان ، لأن طبقات من الناس جديدة ، وأفكار وقوى فنية ، أخذت تشق طريقها في المجتمع الأوربي . فلم تظل المعرفة والثقافة احتكاراً لرجال الدين ، بل أسهم فيها غيرهم من الناس ، وبرغم بقاء المجتمع الأوربي على حاله ظهرت طبقة متوسطة على جانب من الثروة بفضل التجارة التي امتلأت بها بعض المدن ، وحلا لهذه الطبقة أن تغدو نصيرة الفنون والآداب ؛ وهذا هو عصر الشاعر الإنجليزي تشوسر ، والمؤرخ الفرنسي فرواسار ، والأديب الإيطالي بوكاشيو ، وكلهم من أبناء القرن الرابع عشر الميلادي .

والباحث كلما تقدم في سنوات ذلك القرن الرابع عشر الميلادي يلمس تيارات لطيفة ضافية تنساب صوب محيط الكشف العمالية اللانهائية من جميع الجهات ، بما في ذلك الجهات التي بقيت الحياة الفكرية فيها مسيجةً بسياج دراساتها اللاهوتية .

ففى أكسفورد التى لم تكن وقت ذاك مجمع الدراسات المضنية فى اللغتين اليونانية واللاتينية ، بل بدت ذات سبق مشهور فى حلبة الابتكار ، قامت جماعة الفرنسيسكانيين بزعامة العبقري الموهوب دنس سكوتس تتحدى قدرة الفكر الإنسانى على التوفيق بين الإيمان والعقل ، وقالت إن الأسرار القدسية فى الديانة المسيحية لا تستبين كنهها الأفهام البشرية ، وإن الكد المضنى فى فهم اللاهوت والفلسفة رياضة روحية عقيمة ، وإنه لا طائل ولا فائدة من وراء المنطق الشكلى الذى بنى مناهجه المدرسيون ، وإنه لا جدوى ولا نتيجة لما قام به القديس توما من عمل رائع جليل للتوفيق بين النظريات الأرسططالية الواصلة حديثاً إلى غرب أوروبا بفضل ابن رشد ، وبين النصوص الدينية فى الكتب المسيحية المغلفة ، وإنه لا بد للعقل البشرى أن يتغذى من طعوم أخرى . وتحول أولئك الفرنسيسكانيون الأكسفورديون — وتلاميذهم الفرنسيون بجامعة باريس — عن الجدل فى دقائق اللاهوت إلى الملاحظة والتجربة فى العلوم ، فعرفوا شيئاً من السيكلوجيا وعلم البصريات ، وأثبتوا أن الأجرام السماوية والأرضية تتكوّن من مادة واحدة ، وتتحكم فيها قوانين آلية واحدة ، وخطوا بضع خطوات نحو نظرية الجاذبية . وإلى نيقولا أوريم الفرنسى — وهو تلميذ ولیم أوكام الإنجليزى — يرجع الفضل فى القول بأن الأرض التى نعيش عليها كوكب من الكواكب السماوية ، وهو مؤلف أول صفحة من صفحات المجموعة العلمية الهائلة التى ألفها الاقتصاديون على مرّ القرون فى موضوع النقود .

غير أن هذا التيار النابض بحب الاستطلاع العلمى لم يلبث أن جمد فجأة وتبدّد . بعد أن ظلّ ينساب انسياباً حرّاً مدى نصف قرن من الزمان ؛ إذ عاد المنطق الشكلى القديم إلى سابق سلطانه فى أكسفورد ، بسبب النضال بين الكنيسة الكاثوليكية والطريقة اللواردية ، وانتشار ذلك النضال فى طبقات المجتمع الإنجليزى . ولم تستطع الروح العلمية التى خلقها روجر بيكون ولیم أوكام أن تظهر مرة أخرى فى مروج الكليات الأكسفوردية وأبائها إلا منتصف القرن السابع عشر الميلادى — أى زمن بويل ، ومايوه ، ووليكنز . ورن ، وهوك ، وپنى وإيقلين . حين توطدت مكانة العلوم الإنجليزىة ودعامتها بإنشاء الجمعية الملكية فى لندن ، سنة ١٦٤٥ م .

هذا ما كان من أمر الحال العلمية الجديدة ونهضتها ثم كبوتها فى القرن

الرابع عشر الميلادى ، أما الحال الدينية فن المبالغة أن يقال بأن البابوات الفرنسيين الذين تولوا البابوية فى أفينيون ^(١) ، من سنة ١٣٠٩ إلى ١٣٧٨ م ، لم يخلصوا لواجبات الكرسي البابوى ، إذ المعروف أنهم عملوا - على الأقل - من أجل السلام بين فرنسا وإنجلترا ، وأنهم نادوا بضرورة إنفاذ حملات صليبية للشرق ، دون أن يجدوا مجيباً لنداءاتهم . ثم إنه إذا جعلت مطالبهم المالية الباهظة هيئة الحكومة البابوية بغضبة إلى الناس فى مختلف البلاد ، فما لاريب فيه أن أولئك البابوات خلفوا تلك الهيئة أحسن نظاماً وأمضى نفوذاً من ذى قبل . يضاف إلى ذلك أن أحد أولئك البابوات كان ثقةً فى اللاهوت ، وأن اثنين منهم كانا من أولى العزم والقسوة على النفس ، وأن رابعهم أعدّ حملة بحرية لمحاربة القراصنة ، من الأتراك العثمانيين الذين يعملون فى البحر الأبيض المتوسط . ولهذا الرابع يرجع الفضل فى إعلان بابوى ينطوى على سماحة نادرة وشجاعة ، لحماية اليهود مما عساه ينزل بهم من الأذى ، بسبب اتهامهم وقت ذاك بتدبير كارثة الوباء الأسود ^(٢) .

غير أنه من العبث أن ينكر أحد أن البابوية انخفضت كثيراً فى أعين الناس نتيجة أسرها فى أفينيون ، فى أنحاء إيطاليا كره الإيطاليون أولئك البابوات الفرنسيين لأنهم أولاً فرنسيون ، وبفضلهم صارت هيئة الكرادلة التى تهيمن على الانتخاب البابوى فرنسية ، وثانياً لأنهم هجروا روما إلى مدينة قريبة من ممتلكات التاج الفرنسى ، ولو أنها ليست رسمياً من ممتلكات فرنسا ، فلا مناص لها من التعرض لنفوذ الملكية الفرنسية . ثم إن الفخامة والأبهة والزينة التى ملأت البلاط البابوى ، واجتذبت إليه طوائف الفنانين والعلماء الإيطاليين والفرنسيين ، فضلاً عن المحسوبة الشائنة التى أغدقت المناصب الكبرى فى الكنيسة على أقارب البابوات وأبناء أقاربهم ، وفضلاً عن الأموال الكثيرة التى ابتزها الحياة البابويون للإففاق على هذه المظاهر وعلى المشاريع السياسية البابوية فى إيطاليا ، - كل ذلك أسخط أصحاب العقول المترنة فى جميع أنحاء أوروبا ، وجعل بعض النقاد الذين لم يعرفوا بشئ من التصوّ

(١) البابوات الذين تولوا الكرسي البابوى فى أفينيون هم كلمنت الخامس ، ثم حنا الحادى والعشرين ، ويقال له الثانى والعشرين كذلك ، ثم بندكت الثانى عشر ، ثم كلمنت السادس . ثم أنوسنت السادس . ثم إريان الخامس ، ثم جريجورى الحادى عشر . زيادة .

(٢) انظر ما سبق ، ص ٣٢٠ . زيادة .

أو التقوى ينعنون رجال الدين بأنهم صيادون للذهب والفضة ، وأنهم لا عمل لهم سوى ارتياد شوارع أفنيون ، حيث غدت الإنعامات الكنسية تشرى وتباع ، وأضحى كل وظيفة من الوظائف الدينية ذات ثمن معلوم ، على ما قيل واشتهر بين المعاصرين .

على أنه إذا كان السبب المبرر لهجرة البابوية من روما إلى أفنيون هو الصخب الداخلى وقلة الأمن فى روما ، فالبابوات أنفسهم لم يلبثوا أن فكروا فى العودة إلى مدينتهم الخالدة ، إذ أدركوا أن أفنيون نفسها ليست مدينة مأمونة ، بل مدينة معرضة أشد تعرض لفساد العصابات المسلحة والمناصر الخطرة ، من الجند المرتزقة الجائعين الذين انتشروا فى الأراضي الفرنسية بعد صلح برتني سنة ١٣٦٠ م ، ينهبون ويأكلون ويشربون من كدّ الشعب الفرنسى المكدود . ومما عجّل فى عودة البابوات إلى روما أن الأقاليم البابوية فى إيطاليا آضت خاضعة للسلطان البابوى ، بعد حروب تأديبية غير قليلة ، وأن هذه الأقاليم باتت تنتظر حاكمها الطبيعى انتظاراً قلقاً يشوبه خطر انقلابها إلى تمردها القديم ، أى إذا لم يقدر للبابا أن يصل إلى روما قبل فوات الأوان . ولهذا كله قرر البابا جريجورى الحادى عشر عودة البابوية إلى روما سنة ١٣٧٧ م ، وهو البابا الفرنسى الذى رفع ثمانية عشر من رجال الدين الفرنسيين إلى مرتبة الكردينالية . وبعودة البابوة إلى روما تحققت الخطوة التى دعت إليها القديسة كاترين السينية أوسع دعاية . وبتحقيقها انشرفت صدور الأتقياء الوطنيين من الإيطاليين ، ثم توفى البابا جريجورى الحادى عشر فى السنة التالية من انتقاله إلى روما .

أعقب هذه الوفاة حدث جلل فى تاريخ البابوية ، وهو ما يعرف باسم الانقسام الدينى الكبير (The Great Schism) الذى استمر من سنة ١٣٧٨ - ١٤١٧ م ، وقسم الكنيسة الرومانية الكاثوليكية إلى معسكرين متنازعين ، وجعل وحدة الغرب اللاتينى على شفا جرف من الانهيار . ولم يكن الدين هو الباعث الحقيقى على هذا الانقسام ، بل أراد الإيطاليون أن يكون البابا بإيطاليا ، من أجل ما للبابوية من ثروة ونفوذ وهيبة ، على حين أراد الفرنسيون أن يظل البابا صنيعة لهم يخدّم مآربهم ومصالحهم الخاصة ، على غرار ما تمّ مدة ثلاثة أرباع قرن من الزمان ، سواء عليهم استقرت البابوية فى روما أو أفنيون . هذا هو منشأ الانقسام الدينى الكبير ، وأما مؤهلات الرجلين المتنافسين على الكرسي البابوى - وهما إربان السادس وكلمنت

السابع - فلم تكن موضع بحث هادى أو مفاضلة مجردة عن الهوى ، بل حسب إربان السادس أن يكون المرشح الإيطالى ، وأن يكون كلمنت السابع المرشح الفرنسى . فإن النعرات القومية والمحالفات السياسية هى التى قرّرت أى الرجلين المتنافسين خليفاً بأن يكون خليفة المسيح . ولذا عضدت فرنسا واسكتلندة - ثم قشتالة وأرجونة - بابوية كلمنت السابع ، على حين نصرت لإنجلترا وبوهيميا والمجر - ثم البرتغال - بابوية إربان . وبما يدلّ على غلبة الطابع السياسى فى ذلك الانقسام أن كلمنت سعى لإغراء الفرنسيين بفتح إيطاليا ، وأنه زوّج دوق أورليان - أخى شارل السادس ملك فرنسا - من قالتينا فسكونتى ابنة دوق ميلان^(١) ، وجعل جوانا ملكة نابولى تتخذ لويس الأنجوى وريثاً لعرشها ؛ وكل ذلك رغبة من كلمنت فى تحقيق فتح إيطاليا على يد الفرنسيين . ومن هاتين الصفتين الدبلوماسيتين ثبتت حقوق فرنسا فى نابولى وميلان ، وهى الحقوق التى دعت شارل الثامن ملك فرنسا إلى غزو إيطاليا بعد قرن ونيف من الزمان .

وبينما تعانى الكنيسة أزمة الانقسام الدينى الكبير شهدت أوروبا المسيحية لأول مرة فى تاريخها ما للرأى العلمى المحايد من أثر فى الشؤون العامة ، إذ هال جامعة باريس سوء الحال التى هدّدت نظام الكنيسة ونالت من شرفها . وتزعّم التنديد بتلك الحال اثنان من رجال الدين بجامعة باريس ، وهما حنا چرسون وبطرس دايبى (John Gerson & Pierre D'Ailly) . فقال چرسون فى خطبة دينية بحضرة الملك شارل السادس (فى يونيه ١٣٩١ م) إنه إذا لم يوضع حدّ للانقسام الدينى باستقالة كل من البابوين المتنافسين فى آن واحد ، أو بالتحكيم بينهما ، فليس هناك من وسيلة واضحة لفضّ هذا النزاع سوى دعوة مجمع كنسى عام . ولم تكد فكرة المجمع الكنسى العام تنتقل إلى خارج فرنسا حتى اجتذبت إليها أنصاراً كثيرين ، على حين أخفقت المحاولات المتتابعة للتوفيق بين البابوين المتنافسين . ثم أخذت هذه الفكرة فى النمو والانتشار ، وأضحت فى نظر دعاة الأولين أمراً أعظم كثيراً من فكرة علاج الانقسام الدينى ، إذ رأوا فى المجمع الكنسى العام أداة من العناية الإلهية لإصلاح الكنيسة البابوية من رأسها إلى أطرافها ، ووسيلة لإخضاع البابا لهيئة معينة ذات سلطات دستورية .

الواقع أن العصر بدا مهياً للأخذ بأسباب الإصلاح فى هذه النواحي ، فإن

(١) راجع ما سبق هنا ، ص ٣١٧ . زيادة .

أوروبا امتلأت - منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادي - بأسئلة حائرة وجدل غير قليل حول موضوع التنظيم الحقيقي للكنيسة البابوية . هل أضحت الكنيسة البابوية بابل الكبرى ^(١) ، وأضحى البابا المسيح الدجال ؟ كما قالت فئة الفراتيسلي ^(٢) . هل تنزّه الرسل جميعاً عن الأمتعة الدنيوية من مال وعقار وبنين ؟ كما قرّر الإخوان الفرنسيسكانيون ^(٣) في مناقشاتهم ببلدة بيروجيا سنة ١٣٣١ م . وهل يجب على خليفة المسيح في الأرض - أى البابا - أن يرسم خطا الرسل والقديسين ؟ . وكيف لا يجب ذلك والمعروف أن الكرسي البابوي شرف سنة ١٢٩٤ م بواحد من هذا الطراز ، وهو البابا سلسطين الخامس الذى عاش طول حياته ناسكاً فقيراً ، وظلّ على حاله هذه في الكرسي البابوي مدة قصيرة حتى أقصاه عنه بونيفاس الثامن ، في السنة نفسها . وبونيفاس الثامن هذا هو الذى توافق أنصار فكرة المجمع الكنسي العام على اعتبار سياسته الدنيوية الطامحة أصل تدهور أحوال البابوية ، في أفنيون . وقال بعض المثاليين من أنصار إبقاء البابوية في إيطاليا ، إن بابوية سلسطين الخامس وما انطوت عليه من معاني النسك والفقر والبساطة هي الخير كله ، كما قالوا إن أفنيون هي الشر كله . ولم يدرك هؤلاء الأتقياء أن للبابوية وغيرها من الهيئات العالمية قima تحتاج إلى كثير من التقدير والتدبير ، فضلاً عن كثير من المال والحكمة ، لإدارة شئونها بين الناس .

على أن الكنيسة الكاثوليكية أوسعت صدرها دائماً لأولئك المثاليين وأشباههم من المتصوفة ، وكفى دليلاً على سعة صدرها أن بعض المتصوفة في القرن الرابع عشر الميلادي أمثال إكارت وحنّا تاولر آمنوا بما آمنت به الكنيسة ، وبقوا في حظيرتها ،

(١) يشير المؤلف إلى عاصمة البابليين قرب مدينة الحلة الحالية بالعراق ، والمراد من العبارة الاستفهامية أن البابوية أصبحت تعدّ نفسها باب الله ، وهو معنى لفظ بابل في اللغتين البابلية واليونانية ، وأن المسيحية المبنية على القناعة والتشغف لا ينبغي أن تصبغ في بذخ وعظمة وأبهة شبيهة بأيام البابليين . زيادة .
(٢) اسم هذه الفئة (Fraticelli) ، وكذلك (Frérots) ، ومعناها واحد ، أى الإخوان الصغار ، إشارة إلى الإيمعان في التشغف والفقر . وقال أولئك الإخوان إنهم الاتباع الحقيقيون للقديس فرنسيس وطريقته ، ورفضوا الاعتراف بسلطة الكنيسة عليهم ، وجعلوا شعارهم الفقر والترحل ، بحيث لا يكون لأحد منهم سكناً مستقراً ، كما نعو على البابوية بذخها ودنيويتها وغلطرتها التي ليست من الدين في شيء . ولذا تعهدتهم الكنيسة بالاضطهاد معظم الأحياء ، وأعدمت بعض زعمائهم في القرن الخامس عشر الميلادي . زيادة .

(٣) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٣٦ . زيادة .

مع إنكارهم أساليبها ومناهجها . ومع هذا انتشرت خارج الكنيسة هرطقات عديدة مزاجها التطهر والتصوف ، مثل الكاثرية^(١) في جزيرة قورسقة وبلاد بوسنة ، ومثل الفودوا^(٢) في وديان جبال الألب وتلال نابولي وصقلية ، ومثل البجهارد^(٣) في ألمانيا . وهذه الهرطقات ، وإن اتخذت أشكالاً وألواناً مختلفة ، فإنها اتفقت في تحديها لمظاهر الأبهة والدينوية والخشع في الكرسي البابوي وقد أساتته وشعائره ومراسيمه . فضلاً عن تحديها لما يدعيه القسس لأنفسهم من سلطة خاصة مستمدة من الله .

وأكثر أهمية من هذه الحركات الأمية المبعثرة ، كانت الحركة اللولاردية الإنجليزية التي قامت للاحتجاج على جميع ما أثبتته الكنيسة البابوية في العصور الوسطى من تعاليم وتقاليد . ويرجع الفضل الأول في هذه الحركة إلى عالم عظيم من علماء اللاهوت ، كما يرجع الفضل في تعاضدها إبان مراحلها التكوينية إلى جامعة أكسفورد ، وهي وقت ذاك أعظم الجامعات الأوربية نفوذاً وحرية فكرية . ومع ما اتسمت به هذه الحركة من سمات جدية جدية بأهل العلم والمعرفة . فإنها حملت في طياتها رسالة إلى عامة القلوب ، وأملاً . أما في بحث مجتمع جديد . أما العالم العظيم الذي يرجع إليه الفضل الأول في هذه الحركة الهادفة إلى إصلاح الكنيسة الإنجليزية ، وهو حنا وكلف ، فعلموماتنا قليلة عن حياته ، وخلاصتها أنه ولد في يوركشير سنة ١٣٢٤ م ، وأنه تولى أبرشية بلدة ترورث بمقاطعة لستشير . وقام بالتدريس في أكسفورد ، حيث تعين رئيساً لكلية باليول ؛ ثم طرده جامعة أكسفورد سنة ١٣٨٢ م ، فرجع إلى أبرشيته ببلدته ترورث ، وعاش عيشة هادئة

(١) تقدمت الإشارة إلى هذه الطائفة الكبيرة - وهي المعروفة باسم الطائفة الألبيجينية كذلك - بدقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٣٢ ، حاشية ١ . زيادة .

(٢) الاسم الأصلي لهذه الطائفة هو الوالدنسية (Waldenses) ، نسبة إلى مؤسسها بطرس والديس التاجر الفرنسي بمدينة ليون سنة ١١٧٦ م ؛ واللفظ الوارد هنا - أي فوداو - تحوير فرنسي لهذا الاسم الأصلي . ودعت طائفة الفودوا إلى التقشف والفقر ، واتخذت بعض مبادئ الكاثرية شعاراً لها ، وانتشرت في بروفانس بفرنسا ، وفي شمال إسبانيا ، فضلاً عن البلاد المذكورة هنا بالمتن ، وقال أتباعها اضطهاد البابوية لعدة قرون . زيادة .

(٣) نشأت هذه الطائفة (Beghards) أوائل القرن الثالث عشر الميلادي بالأراضي المنخفضة . وربما اشتقت تسميتها من طائفة الراهبات البيجينيات (Beguines) التي لا تزال أحيائها تقوم بأعمال المراساة والعناية بمدينة جنت ببلجيكا ، حتى العصر الحاضر . غير أن طائفة البجهارد الأصلية ساءت بدخول كثير من المتسولين المحترفين في زمرتها ، ولقيت من اضطهاد البابوية ومحاكم التفتيش ما أدى إلى زوالها أواخر القرن الرابع عشر الميلادي . زيادة .

حتى وفاته سنة ١٣٨٤ م . على أن موضع الأهمية هنا هو أن وكلف استطاع - في عدة السنوات التي امتدت إليها حياته العامة - أن يقف من الكنيسة الكاثوليكية ، في القرن الرابع عشر الميلادي ، جميع مواقف الإصلاح البروتستانتي الذي شمل غرب أوروبا في القرن السادس عشر الميلادي .

ذلك أن وكلف كان من أولئك المصلحين العميقين (الراديكاليين) ذوي المقام الخلقي الرفيع ، والعزيمة القوية . ولذا فهو من الذين يدينون بكل شيء في حياتهم للمثانة الخلقية ، لا لأية صفة أخرى من الصفات ، مثل الدماثة وسعة الصدر وطيبة القلب . وتأمّل وكلف أنواع الفضائح الكنسية ، فأثارة عقله اليوركشيري الخالص إلى إصدار سلسلة طويلة من مقالات ومواعظ تكاد تتميز من السخط والكتابة ، والحسرة على الدين . وانطبعت هذه المقالات والمواعظ التي أصدرها وكلف أحياناً في اللاتينية ، وأحياناً أخرى في الإنجليزية ، بطابع من النزاهة والشجاعة ، برغم ما غلب عليها من المبالغة ؛ وهذه المقالات والمواعظ هي التي جعلته طليعة من طلائع حرية الفكر وصراحة القول في إنجلترا . أما مكانته العلمية الفحلة في أكسفورد ، وهي المكانة التي أحرزها بسيطرته الثامة في فنّ الجدل وخباياه التي شغف بها العلماء وقت ذاك ، فإنها جعلت له هيبه عجزَ الرهبان وطوائف الإخوان الفرنسيسكانيين وغيرهم عن النيل منها ، إلا بعد مساعدة الملكية الإنجليزية ورئاسة الأساقفة في كانتبري . على أن رسالة وكلف لم تستهدف بعضها أو كلها طبقة المفكرين فحسب ، بل استهدفت سائر طبقات المجتمع ، إذ نادى وكلف ملء حماسه وبيانه أن تكون المواعظ الدينية والكتب المقدسة في اللغة الإنجليزية لا اللاتينية ، وأن تستمد المواعظ من الكتب المقدسة لا غيرها من المصادر ، وبذا تصبح الكتب المقدسة في متناول الجميع . وقامت طائفة من الوعاظ الفقراء الذين تعلموا على وكلف بنشر هذه الرسالة في أنحاء إنجلترا ، كما قامت حلقة من مريديه بترجمة الكتب المقدسة إلى الإنجليزية ، وهي الترجمة التي تحمل اسمه بين الترجمات الأخرى حتى العصر الحاضر .

وفي سبيل تحقيق هذه الرسالة دخل وكلف ميدان السياسة العامة ، فحالف دوق حنا^(١)

(١) ظل دوق حنا جونست حليف وكلف حتى سنة ١٣٨٠ م ، أي حتى أنكر وكلف معجزة التحول الكلي في العشاء الرباني ، ومنذئذ انقلب بيت لانكستر وملوك إنجلترا من هذا البيت أعداء للحركة الوكيفية . (انظر ما يلي ص ٣٦٥) . زائدة .

جونت عميد اللانكستريين العاملين وقت ذاك على إلغاء أوقاف الكنيسة وتوزيع أطيافها الواسعة على النبلاء والأعيان . وكان البرلمانيون يبررون هذه الخطوة العنيفة بأسباب مقبولة . وهى أن إنجلترا تن من ثقل الضرائب المطلوبة لمواصلة حرب فاشلة فى فرنسا . وأن الكنيسة المعفاة من هذه الضرائب تملك ثلث الأراضي فى البلاد ، وأن أسمن الوظائف الكنسية فى إنجلترا ، وهى الوظائف المربوطة عليها هذه الأراضي خاضع لنظام التعيينات البابوية الممقوت (Papal Provisions) . وأن البابوات والملوك ملأوا هذه الوظائف بليطانيين غير مقيمين فى إنجلترا . دون اعتبار للقانون . يضاف إلى ذلك أن الضرائب البابوية استنزفت كثيراً من ثروة الكنيسة إلى خارج البلاد ، وأن ماجبته الدولة من الجزء الباقى بعد ذلك جدت قليل . ولذا فإن إلغاء أوقاف الكنيسة ليس خطوة طيبة لتطهير رجال الدين فحسب ، بل هو وسيلة للتخفيف كذلك عن كواهل المدنيين . وسبيل لتقوية الموارد المالية فى الدولة . ووقف وكلف من هذه الحجج المستندة إلى المصلحة القومية العامة موقف التأيد التام . وهو موقف إنجليزى وطنى مؤمن بوجوب هيمنة الدولة على الكنيسة (Erastianism) . وعارض وكلف بذلك النظرية العالمية التى قامت عليها الكنيسة فى العصور الوسطى ، وقال فى مقالته التى عنوانها حقوق الملكية (De Officio Regis) إن للملك سلطة الإشراف والتنظيم فى الكنيسة ، وهو قول جدير بإشباع آراء الملك هنرى الثامن نفسه بصدد الكنيسة الإنجليزىة ، فى القرن السادس عشر الميلادى . وإذ شرع وكلف فى نقد الكنيسة ونظمها التى خبرها وعرفها زمن إدوارد الثالث . فإنه لم يستطع إلا أن يسير قدماً مع هذا التيار . حتى لم يبق جزء من البناء الكنسى دون انتقاد وملامة . ذلك أن الأساقفة كانوا منغمسين فى شئون الدولة انغماساً صرفهم عن الاهتمام بواجباتهم الدينية . حتى قال عنهم وكلف إنهم أتباع قياصرة . لا أتباع الله . ثم إن الحياة الرهبانية غدت عديمة الفائدة . بله بغىضة ممتونة ، إذ أساء الإخوان وطوائفهم إلى سمعة الكنيسة كلها ، ببيعهم صكوك الغفران لإزالة الخطايا والذنوب ، فضلاً عن أساليبهم الوعظية الرخيصة الجوفاء . وتدرج وكلف من لوم الأساقفة على انشغالهم بالأمور الدنيوية إلى القدح فى النظام الأسقفى كله . وحبد نظاماً كنسياً لا يختلف إلا قليلاً عن نظام الكنيسة المشيخية (presbyterian) الاسكتلندية فيما بعد . ثم نادى وكلف بوجوب الرجوع فى جميع الأحوال إلى تعاليم الكتب المقدسة . لا إلى تعاليم

الكنيسة ، ولم يلبث أن فُتد سرّ العقيدة الكاثوليكية تفنيدياً عنيفاً في رسالته التي عنوانها " أصول السلطات المدنية " (De Civili Dominio) . ففي هذه الرسالة دُلل وكلف بطريقة منطقية مبنية على معانٍ إقطاعية أن السلطة أو الحكومة (dominium) تستمدّ من الله ، أو بعبارة أوضح أن الحق في مباشرة أى نوع من السلطان يقوم على الفضيلة ، وأن هذا الحق ينعدم حينما انعدمت الفضيلة . ومن هذه المقدمات ينتج أنه لا يصحّ لقسّ غير فاضل أن يقيم شعيرة من الشعائر القدسية ، كما ينتج أن البابا يظلّ جديراً بسلطته ما دلت حركاته وسكناته على اعترافه برحمانية الله ، وأن القول بأن لهيئة رجال الدين مقامٌ صدق مستقلّ عن سائر المجتمع ليس من الحقيقة في شيء . وما زال وكلف يكتب في هذه المسائل حتى انتهى -- سنة ١٣٨٠ م -- إلى القول بأن التحول المادى في العشاء الربانى عقيدة غير سليمة ، وبأن القس في صلاته ليس ساحراً حتى يستطيع تحويل خبزة القربان إلى جزء من جسد المسيح .

ومن ذلك كله يتضح أن الكنيسة المسيحية التي شيدها وكلف لنفسه رويداً رويداً ، في موعظاته ومقالاته ورسالاته ، اختلفت تمام الاختلاف عن دنيا المعتقدات والعادات التي ولد فيها وشبّ . غير أن هذه الكنيسة لم تكن پروتستانتية بكل ما في هذا اللفظ من معنى ، لأن وكلف ظلّ مؤمناً بوجود المطهر حيث يتطهر المؤمنون من آثام الحياة الدنيا قبل الانتقال إلى الجنة ، ولأنه لم ينكر أن لمريم العذراء مكانة خاصة من القداسة بين البشر . لكن إنكار وكلف البابوية ومطراتياتها وأسقفياتها ، ومناداته بالرجوع دائماً إلى الكتب المقدسة ، ثم إنكاره معجزة التحول المادى في قداس العشاء الربانى ، مع إنكاره لما يدعيه رجال الدين لأنفسهم من قوة روحانية خاصة ، فضلاً عن استخفافه المنطقي الذي دحض به العادات الدينية المتأصلة ، وهي الاعترافات الإجبارية ، والصلوات على أرواح الأموات تكفيراً عن ذنوبهم ، والحجيج إلى الأماكن المقدسة ، والتقدّيس للمخلفات الأثرية الدينية -- كل ذلك جعل عقيدة وكلف شبيهة كل الشبه بعقيدة البيورطانيين (السلفيين) بإنجلترا ، في القرن السابع عشر الميلادى . وإذا عرفنا أن هذه الراديكالية الدينية لقيت هوى في نفوس أهل الأقاليم الجنوبية من إنجلترا ، وهم الأكثر حضارة وتمديناً بالقياس إلى غيرهم من الإنجليز في العصور الوسطى ، وإذا عرفنا كذلك أن روحاً عنيدة من الكراهية لرجال الدين استولت على الإنجليز منذ الفتح

النورمانى، برغم بقاء الكاثوليكية على حالها من بسطة السلطان ، فلا نستطيع إلا أن ندرك تمام الإدراك كيف كانت تعاليم وكلف موأمة للروح القومية الإنجليزية .

بهذا يمكن تحليل بقاء الحركة اللولاردية بعد الحكم على مؤسسها بالهرطقة ، وانزوائه بقرية من قرى بطن الريف الإنجليزي حتى وفاته ، فضلاً عن بقائها رغم الاضطهاد الذى لحقها زمناً غير قصير . غير أن اللولاردية فقدت مكانتها فى أكسفورد منذ سنة ١٣٨٢ م ، حين استعدى رئيس أساقفة كانتبرى الملك رتشارد الثانى على حريات الجامعة ، وطرده اللولاريين من كلياتها شر طردة ، وعادت أكسفورد إلى الكتلكة عودة لم يكن منها رجعة ما دامت الكنيسة^(١) قابضة على المدينة الجامعية بيد من حديد . ومن ثم ذهب عن اللولاردية صبغتها العلمية الجامعية التى اصطبغت بها منذ أيامها الأولى ، وغدت حركة دينية للأمين من الرجال والنساء ، لا يجتمعون إلا سرّاً لتلاوة الكتب المقدسة والتأمل فيها ، أو للاستماع إلى موعظة واعظ عابر ، وظلت اللولاردية على حالها هذه حتى امتزجت بموجة الإصلاح البروتستانتى ، فى القرن السادس عشر الميلادى .

والواقع أن اللولاردية بقيت حية فى لندن وإيست آنجاليا بشرق إنجلترا ، وفى غابات تشلتن بين الفحامين الذين يعملون فى صنع الفحم النباتى من تلك الغابات ، وفى كثير من البلاد والقرى بغرب إنجلترا . ذلك أن اللولاريين الإنجليز مضوا فى سبيلهم من الدين دون أن يخشوا خاشية ، فحفظوا تقاليد عقيدتهم المسيحية الخالصة جيلاً بعد جيل . ولم ينس اللولاريون ذكرى شهدائهم ، وهذا برغم ندرة المخطوطات المنسوخة من الكتب المقدسة والمقالات والموعظات الوكلفية ، لانعدام المطابع وقتذاك ، وبرغم بطء الاستنساخ ، وبرغم أن امتلاك هذه المخطوطات كان مؤدياً بعض الأحيان للموت حرقاً بالنار . وبالقياص إلى هذه الفئات اللولاردية القليلة التى لم يهد الاضطهاد الدينى من حماسها الشديدة ، وقفت فئات كثيرة من أهل إنجلترا موقف الراضى بالعافية ، إذ أدت بهم طبائعهم اللينة السهلة إلى مداراة الكنيسة ، دون أن يكونوا مخلصين لها تمام الإخلاص . على أن هذه الفئات اللولاردية تحرّكت حركتها بعد حين طويل ، شأنها فى ذلك شأن الأمة

(١) هذه الصفحة من التاريخ الإنجليزي أخبار طوال ، ولعرفة بعض تفاصيلها انظر (Trevelyan: History of England, p. 250) ، وكذلك (Camb. Med. Hist. VII. pp. 492-496).

الإنجليزية كلها ، من حيث البطء تأكيداً للسرعة في الإنجاز ، وهذه الحركة هي البروتستانتية التي دلت بعمقها وسرعتها - بعد بطء القرون - على أن الإنجليز وجدوا في المعتقدات الوكلفية بديلاً عن الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وأن أركان هذه المعتقدات وافقت أركان الخلق الإنجليزي العام ، واجتذبت إليها مختلف الأتباع في كثير من طبقات المجتمع الإنجليزي . هذا هو المبرر المفسر لقول القائلين بأن الإصلاح البروتستانتي في إنجلترا نبع من أصول وجذور وكلفية إنجليزية ، لا لوثرية ألمانية .

يتعين على الباحث بعد ذلك أن يتتبع أهم النتائج التي نتجت عن الحركة اللولارية الإنجليزية خارج إنجلترا ، وهذا يتطلب الإشارة إلى مملكة بوهيميا التي اعتنق أهلها التشكيون السلافيون^(١) ديانة المسيحية أول اعتناقهم لها حسب أنماط بيزنطية أوثودوكسية ، ثم اعتنقوها رومانية كاثوليكية ، بعد أن امتدّ النفوذ الألماني إلى بلادهم ، وتقبلوا نظم الكنيسة الكاثوليكية وطقوسها صاغرين . غير أن أولئك التشكيين الفلاحين العفاة اشتهروا في طول التاريخ وعرضه بعمق خصالهم الأصلية ، فلم يخفف تحوّلهم إلى الكاثوليكية شيئاً من مقتهم للخلق الألماني ، وهو مقت يجرى في عروق السلافيين جميعاً . بل إن ارتباط الكنيسة الكاثوليكية في عقولهم بالنفوذ الألماني لم يجلبها إليهم على مرّ القرون . ولذا امتلأت بوهيميا في القرن الثالث عشر الميلادي بحركات هرطقية داعية إلى التطهر والبساطة في الدين ، ولم ينتصف القرن الرابع عشر الميلادي حتى تطوّرت هذه الحركات - بفضل مؤلفات وكلف - إلى سيل من الاحتجاجات على مساوئ الكنيسة ، ثم انقلبت كلها إلى حركة قومية واحدة ، هي الأولى من نوعها في أوروبا ، وراثتها تنظيم الديانة المسيحية تنظيمًا جديداً .

ولو اقتصر الأمر في مملكة بوهيميا - المغمورة بموقعها الجغرافي بأقصى تخوم

(١) هذه التسمية ترادف لفظ الصقالبة الذي درج المؤرخون العرب على استخدامه للتدليل على مجموعة الأمم الساكنة شرق أوروبا ، وكلا اللفظين منقول إلى العربية في الواقع من أصل يوناني واحد (sklabos) ، وهو الذي صار في اللاتينية (Sclavus) ، وفي الفرنسية وسائر اللغات الأوروبية الحديثة (Slave) ، ثم (Slav) ، أي أن التسمية العربية المنشئة بلتين هنا مأخوذة من الصيغة الأوربية الحديثة ، وأن هذه الصيغة مأخوذة أصلاً عن اليونانية . وتنبئ الإشارة هنا أن السلافيين سكان بوهيميا يعرفون باسم التشكيين ، تمييزاً لهم من العناصر السلافية الأخرى ، وهي متنوعة كثيرة . زيادة .

أوروبا— على هذه الفورات الدينية الداخلية ، منذ القرن الثالث عشر الميلادى . لما أهتم له أحدسوى البوهيميين أنفسهم وملوكهم من بيت البريمسليدين (Premyslids) . غير أن بوهيميا ودعت خاتمة ذلك البيت سنة ١٣٠٦ م ، واستقبلت مطلع عهد جديد بتملك أسرة أجنبية على عرشها ، وهى أسرة من إقليم لوكسمبرج الواقع بين أطراف ألمانيا وفرنسا . وكانت هذه الأسرة من الأسرات الأرستقراطية المفرنسة التى ملأت أوروبا بمغامراتها ، كما ملأت الحروب الصليبية بشهرتها ، وأمدت المؤرخ فرواسار فى القرن الرابع عشر الميلادى بأهم أجزاء حولياته الممتعة .

وأول من بلغ ذروة العظمة من هذه الأسرة هو الملك الباسل النجيد هنرى السابع (١٣٠٨ — ١٣١٣ م) ، الذى انتخبه الناخبون الألمانىون قبيل ذلك ملكاً على الرومانيين ، أى إمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة ، سنة ١٣٠٨ م . ساعدة أخيه رئيس أساقفة تريث ، أحد أفراد الهيئة الناجبة وقت ذلك. ثم تتوج هنرى إمبراطوراً فى قصر لاتيران (Lateran Palace) بمدينة روما ، ولقب هنرى السابع ، واعتبره دانتى الحاكم الذى قيضته العناية الإلهية لنشر السلام والنظام والطمأنينة ، فى إيطاليا . والواقع ليس بين الأباطرة الألمانىين فى العصور الوسطى ، باستثناء برباروسا ، من استطاع أن يبلغ — من عظيم المحبة له فى حياته وشديد الحزن عليه بعد وفاته — ما بلغه هذا الملك الإمبراطور المغوار الذى بغيته المنية وهو فى طريقه لمحاربة ملك نابولى ، مسموماً — على ما قيل — بسم دسه له أحد الحاقدين عليه من الجوليفيين الفلورنسيين ، فى نبيذ العشاء الربانى . وتولى مملكة بوهيميا بعده ابنه حنا (١٣١٣ — ١٣٤٦ م) ، بحق إرثه ، فضلاً عن زواجه من إحدى أميرات البيت الملكى السابق فى بوهيميا . وكان حنا هذا ملكاً واسع الخيال ، مغرماً بالفروسية — مثل دون كويكوت فى الأدب الإسباني — ، فضلاً عن شغفه بالبحرى وراء المغامرات الحربية الخطيرة ، مهما قلّ نصيبها من النجاح ، ولذا اشترك حنا هذا مع الفرنسيين فى حرب المائة سنة ، حيث مات قتيلًا فى وقعة كريسى .

أما شارل الرابع (١٣٤٦ — ١٣٧٨ م) ابن حنا ، فكان شخصية من طراز آخر ، إذ اشتهر بالرزانة والمرونة بقدر ما اشتهر أبوه بالطيش والعناد . ولعل هذا الملك العالم—المتخرج من جامعة باريس—هو أول ملوك العصور الوسطى الذين استطاعوا أن يطلوا على المجتمع الأوروبى بعين مجردة من الزيف والمبالغة . وحضر شارل الرابع كأبيه حنا وقعة كريسى ، وفى نيته ألا يجعل التضحية بالنفس فى

ميدان القتال سبباً لتحطيم مستقبل زاهر ، لأن حبّ التضحية لم يكن من طبعه .
 ألم يكن تاريخ الإمبراطورية الرومانية المقدسة في العصور الوسطى سلسلة طويلة
 من التضحيات الأسيفة ، وسلسلة أطول من المجهودات الألمانية الضائعة سدى ، في
 سبيل حكم إيطاليا من عرش بعيد بالشمال الغربي من أوروبا ، ورغبة في إفساد
 المقاومة البابوية العنيفة ضدّ الإمبراطورية ؟ . ثم لم يلبث شارل الرابع - بعد أن صار
 ملكاً على الرومانيين وإمبراطوراً للدولة الرومانية المقدسة برضى البابوية أن دلّ دلالة
 واضحة على عدم استعداده لبذل هذه التضحيات التي لا معنى لها ، إذ رأى
 أنه ليس من المفروض أو المتعين عليه تبديد جهوده في المنازعات الجنونية بين
 الجبلينيين والحولفيين ، وهي المنازعات التي مزقت إيطاليا شراً ممزق ، وأنه من
 العبث أن يقدم على إجراء أى تغيير في بذاء الدولة الألمانية أملاً في تقوية ذلك
 البناء المعقد . لأن نهوض مملكة ألمانية قوية غداً من المستحيلات وقت ذاك .
 وهو ما عرفه شارك تمام المعرفة . ومن ناحية أخرى عرف شارل الرابع أن لونا من
 الفوضى التي ليس بعدها فوضى يحتمل أن ينتشر في ألمانيا انتشار النار في الهشيم ،
 فحاول ملافاة ذلك بوسيلة كلها حكمة . بأن أصدر سنة ١٣٥٦ م المرسوم
 الإمبراطوري الذهبي^(١) الشهير (Golden Bull) . وهذا هو المرسوم الذي يعدّ أعظم
 ما أسهم به شارل في سبيل التطور الدستوري في ألمانيا . إذ واجه الواقع الكائن من
 انقسام ألمانيا على نفسها ، ثم أخذ في علاج بعض أسباب ذلك الانقسام المرير .
 بأن حدّد الهيئة الناجبة تحديداً جديداً . واعتبر كلاً من الأقاليم لناخبة وحدة لا
 تتجزأ ولا تتعدد أصواتها ، كما جعل حق الانتخاب إرثاً للابن الأكبر (Primogeniture) ،
 وبذا قلل من المفاسد والشرور التي لُزمت الانتخابات الإمبراطورية^(٢) . ثم إن

(١) أفرد معظم المؤرخين هذه الصفة بمرسوم الإمبراطور شارل الرابع . دون غيره من مرسوم
 الملكية والإمبراطورية في العصور الوسطى ، لغير سبب مرسوم ، ورغم ما هو معروف من صدور أشباه
 كثيرة له في تلك العصور . ومن هذه مرسوم ملكي ذهبي على عهد أندراوس ثنائي ملك المجر سنة ١٢٢٢ م ،
 ومرسوم إمبراطوري ذهبي على عهد الإمبراطور فردريك الثاني في (Camb. Med. Hist. Vol. VIII)
 pp. 155, 579 . أما أصل هذه التسمية الذهبية ، فراجعها تعليل الحاتم (bulla) للملكي أو الإمبراطوري
 المنصق بالمرسوم في عبة من لذهب من باب لتعظيم ، وكان من المستطوع دوماً صنع عبة من الذهب
 لوضع الحاتم الملكي أو الإمبراطوري المنصق بأمر مرسوم ، ما دام لمنتفع بهذا المرسوم هو الذي يدفع
 ثمن العبة للخزانة الملكية أو الإمبراطورية . (Camb. Med. Hist. VIII, p. 143) . زيادة .

(٢) تفصيل هذا المرسوم وارد في (Camb. Med. Hist. VIII, p.p. 143-146) . زيادة .

شارل أنى أن تستهويه أبهة اللقب الإمبراطورى، للدخول فى مغامرات جريئة ليس منها فائدة، فرفض أن يقوم بدور إمبراطور فى العصور الوسطى، من تلبية الآلاف المؤلفة من المطالب المنبعثة من أرجاء إمبراطوريته المترامية الأطراف. لكنه ركز جهوده نحو تحقيق مسألة عملية محدودة، وهى أن يجعل مملكة بوهيميا التى ورثها عن أبيه حنا أقوى دولة فى وسط أوروبا، وكان شارل فى هذه المسألة من الناجحين. ثم إنه رعى مصالح بوهيميا حتى أبلغها مبلغاً عظيماً من السطوة والنفوذ، فامتدت رقعتها فى الجنوب إلى ضفاف نهر دانوب، وفى الشمال إلى جهة لا تبعد كثيراً عن ساحل البحر البلطى، واجتذبت تجارتها النامية أفواجاً من الجاليات الألمانية إلى الأراضي البوهيمية، وغدت عاصمتها براج (براها) مركزاً هاماً من مراكز الفنون والعلوم الآداب، ولا سيما بعد أن أضحت مقراً لأسقفية رئيسة، وموطناً لجامعة رحل إليها الطلاب من بولندا وأتحاء ألمانيا.

على أن موضع الأهمية هنا أن جامعة براج التى تأسست سنة ١٣٤٨ م — حين لم يوجد فى أى إقليم من الأقاليم الألمانية معهد يشبهها من قريب أو بعيد — أمدت حركة الإصلاح الدينى فى بوهيميا بقوة وثبات ومضاء، ولولا الروح الجامعية لما كان من استطاع توفيرها لهذه الحركة. وكان أحد المدرسين بهذه الجامعة قساً من أصل فقير، وهو أعظم رجل يفخر به التشكيون البوهيميون فى تاريخهم، واسمه حنا هس، ومولده سنة ١٣٦٩ م. وعاش هس رجلاً ذا نقاء نادر وخلق متين، فضلاً عن وطنية متقدمة وإقبال على الدراسة المتواصلة، وطلاقة لسانية فى الوعظ الدينى، حيث نصب نفسه أول أمره للتشهير بعديد المسائل التى انتغشت بها الكنيسة البوهيمية. ثم أدت به استعداداته العقلية، وميوله الفطرية إلى فلسفة وكلف التى أضحت منذ سنوات بجامعة براج موضع الاهتمام والإعجاب. وصاح هس ذات مرة فى موعظة من مواعظه: "أى وكلف، لبيك يا وكلف، سوف تملأ أفكارك قلوب الكثيرين خشية من حساب الله". وبهذه الصبيحة الوعظية البالغة، وأمثالها فى اللغة البوهيمية التى يرجع إليه الفضل فى تكوينها، نشر هس آراء المصلح الإنجليزى بين القاصى والدانى بشرق أوروبا. أما سر قوة هس فهو أنه لم يجعل للتردد أو التشكك مدخلاً إلى تفكيره، فلم يكدر يستقرّ فى نفسه أن الكتب المقدسة هى المرجع النهائى للعقائد، وأن طاعة البابا واجبة ما دام البابا سائراً وفق تعاليم الكتب المقدسة، حتى وضحت له عقائد وكلف كل الوضوح،

ودعا إليها في كل مكان ، وهي الفقر والبساطة لرجال الدين ، والخبر (القضاء والقدر) ، وإنكار صكوك الغفران . وبلغ من وضوح هذه العقائد عندهم أنه لم يستطع أن يفهم عدم وضوحها لغيره من الناس ، إذا هم استمعوا لشرحها مرة واحدة . وأنكر هم قول القائلين بأنه هرطيق خارج على الكنيسة ، إذ كيف يكون الدائب على الرجوع إلى أقوال المسيح وسنته هرطيقاً من الهرطقة ؟ . غير أن المجمع الديني في مدينة كونستانس بسويسرة الحالية — وهو المجمع الذي استدرجه إليه أمان عدوه سجموند ملك المجر سنة ١٤١٦ م — أفتى بهرطقته ، وحكم عليه بالإعدام حرقاً بالنار ، بعد أن رفض همس التزول عن شيء من الأقوال المنسوبة إليه . ومشى همس في السادس في شهر يولييه من تلك السنة إلى أحطاب إعداده رابط الخأش ، فأشعل بموته نيران أول حرب من الحروب الدينية الطويلة التي جرى عليها اسم الحروب الهسية ، وهي التي امتدت في أوروبا إلى أواسط القرن السابع عشر الميلادي .

وإذ امتازت هذه الحركة التطهيرية في بوهيميا بالسرعة والعنف ، فإنها امتازت كذلك بشدة ارتباطها بنعرة قومية وطموح إلى الاستقلال السياسي عن الإمبراطورية الألمانية . ثم إن هذه الحركة هدفت إلى إصلاح رجال الدين الذين ظالما رقدوا في مراقد الفساد والحمول والجهل ، كما هدفت إلى إقامة كنيسة بوهيمية على أسس قومية ، فضلاً عن طرد الألمانين من بوهيميا ، أو إخضاعهم لسلطة البوهيميين . ومن الدليل على خطورة هذه الظاهرة الثالثة أن الملك ونترل أصدر سنة ١٤٠٩ م مرسوماً بنقل الإشراف على جامعة پراج من أيدي الألمانين إلى أيدي البوهيميين ؛ وهال الأساتذة والطلاب من الألمانين أن يأخذ الملك ونترل في تنفيذ ذلك المرسوم ، وأخذتهم عزتهم بقومييتهم كل مأخذ ، وآثروا الهجرة جملة واحدة على الخضوع لسيطرة البوهيميين ، وأسسوا جامعة ليبزج بأواسط ألمانيا ، وعكفوا من ثم على نشر كراهيتهم الشديدة للحركة البوهيمية . وحذا حذوهم في ذلك جماعات الألمانين الذين استوطنوا بوهيميا منذ سنين ، واختلطوا بأهلها التشكيين السلافيين اختلاط الأضداد ، ولا سيما بعد أن تزعموا حركة المعارضة للإصلاح الهسي . وبهذه الكراهية الشديدة الناتجة عن اختلاط عنصرين متضادين في منطقة جغرافية واحدة ، واصطدامهما بعضهما ببعض في مناكب الحياة اليومية . ازدادت مرارة الحروب الهسية على مراتبها الحادة .

يتضح من هذا كله أن الحركة البوهيمية لم تترتب على استشهاد هس فحسب ، بل تشير الحوادث السابقة لاستشهاده إلى عزم الإصلاحيين البوهيميين على قطيعة الكنيسة الكاثوليكية ، والخروج السافر على طاعة روما . ومن هذه حادثتان معيتتان وقعتا في براغ ، ودلّ كل منهما دلالة واضحة على احتدام الحال بين الإصلاحيين وأعدائهم من دعاة المحافظة على الكتلكة وطقوسها الكنسية . وأول هاتين الحادثتين إحراق مائتي كتاب من كتب وكلف علناً ، بناء على مرسوم بابوى (سنة ١٤٠٨ م) ، وثانيهما إعدام ثلاثة شبان سنة ١٤١٢ م ، لقولهم بأن صكوك الغفران إفاك منظم ، وذلك حين أقام مندوب بابوى سوقاً لبيعها في المدينة . ويرجع بعض الفضل في عدم إهدار دماء أكثر من دماء أولئك الشبان وقتذاك إلى موقف الملك ونترل من أنصار هس ، وحمايته لهم من تدبير خصومهم .

على أن رجال مجلس كونستانس أثاروا بتقريرهم إعدام هس روح أمة بأسرها ، إذ تكتل نبلاء بوهيميا للدفاع عما جدّ بينهم من حرية الوعظ ، وغدت المطالبة بتقديم كأس القديس مع القربان للعلمانيين صيحة عامة لاستنفار كل أصحاب الميول المتطهرة . وازداد الشعور بأن حرمان المسيحيين من حقوقهم القداسية الكلية إنما يرجع إلى مرض في قلوب رجال الدين ، واختلط ذلك بالتنديد بثروة الكنيسة اختلاطاً صاعباً مصدره في بعض الحالات طرب استخف الواهين من أهل التنسك والتقوى ، وفي بعضها الآخر طمع سري بين الكثيرين من أصحاب الأراضي ، للاستيلاء على أراضي غيرهم من الناس . ثم هوت يد المقادير سنة ١٤١٩ م بأول فاجعة من فواجع الحرب الهسية الشنيعة التي استغرقت اثنتي عشرة سنة ، وجعلت لبوهيميا المتطهرة مكاناً خاصاً في عالم الدول المسيحية . ففي تلك السنة اقتحم نبيل من نبلاء البلاط الملكي ، وهو حنا ترسكا — أو حنا الكركدن^(١) على قول المؤرخ كارليل — دار البلدية الجديدة بمدينة براغ في جمع من رجاله ، فقتلوا عمدة المدينة ذبحاً ، ثم ألحقوا به زملاءه أعضاء البلدية الكاثوليكين ، بأن قذفوا بهم من نوافذ المبنى في غير إبطاء .

دلّ ترسكا دلالة واضحة على أنه زعيم من الزعماء الذين لا تجود بهم الأجيال

(١) كان ترسكا أعور ، وعينه الواحدة الباقية هي سبب التسمية الواردة هنا فيما يبدو (Camb. Med. Hist. VIII. p. 69) ، أولعل سببها أن ترسكا اشتهر بهجمات الجريئة العنيفة التي أشبهته بالكركدن ، في خيال المؤرخ كارليل . زيادة .

إلا نزرأً، واستطاع بفضل الصرامة والتزاهة التي اتصف بها أن يعدّ جيشاً من طراز لم تعرفه أوروبا قبلاً. ذلك أن هذا الجيش تكون من الفلاحين المتحمسين للدين والقومية في بوهيميا، وهم من الذين حرّموا على أنفسهم أنواع الملاهي والرقص والموسيقى والخمر، ومقتوا المزمار والطنبور والرق والطبل مقهّم لكلّ كلمة بذينة أو امرأة ساقطة أو رجل باذخ، أو مواطن ألماني في بوهيميا. ومشى أولئك الفلاحون إلى ميادين القتال تتقدمهم كؤوس العشاء الرباني، وهم يحملون مرازبهم الضخمة، وينشدون تراتيل ترسكا، فألقوا الذعر والرعب في الجيوش التي وقفت لهم بقلوب إيمانها بقضيتها أضعف كثيراً من إيمانهم بقضيتهم. وأمدتهم سعة الحيلة التي امتاز بها زعيمهم بقوة فوق قوتهم المستمدة من حماسهم البالغة، إذ كان ترسكا أول قائد أوربي أفاد من سلاح المدفعية تمام الفائدة في القتال، وأول من عرف أهمية العربات الزراعية بإقامتها متاريس متحركة. لثبّت أقدام جيشه في الميدان. ولما كانت مدينة براج من الاعتدال بحيث لا يمكن الاعتماد عليها في ساعات الحرج، أقام ترسكا مقرّ قيادته عند تل أوستي الذي أطلق عليه أتباعه من مصطلحاتهم التي استعاروها من الكتاب المقدس اسم تل طابور^(١)، إشارة إلى المكان المعروف بهذا الاسم في منطقة الجليل في فلسطين، كما أطلقوا على أنفسهم اسم الطابوريين. والخلاصة أن أتباع ترسكا ظلوا هم الأعلون، ما دام زعيمهم على قيد الحيلة. ولم يخطئ البوهيميون حين قالوا إنهم لن يستطيعوا نشر عبادة الله حسب مذهبهم، وتنظيم كنيسته وفق عقيدتهم، إلا بقوة السلاح والوعيد. ذلك أنهم لم يتلقوا أية مساعدة أو رعاية من إحدى شخصيات البيت المالكة، إذ توفي صديقهم الملك ونزل القدم الداعر سنة ١٤١٩ م، ودلّ أخوه سجموند ملك المجر - وصاحب السيادة عليهم باعتباره إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة - على أنه ليس صديقاً، بل عدواً عنيداً ما لبثوا أن قاتلوه حتى طردوه من بوهيميا. ثم عرض البوهيميون تاج بلادهم على ملك بولندا ذات الأراضي القاحلة الجلباء وقتذاك، لكن جبن هذا الملك أدى به إلى رفض فرصة هي الأولى والأخيرة في التاريخ كله. لتكوين اتحاد سلافي عظيم يضمّ ولاء الأرثوذكسين والكاثوليكين بأوروبا السلافية. ولذا وقف البوهيميون بمفردهم لا يملكون سوى جمهورية منعزلة انعزلاً كارهاً أسيفاً.

(١) لا تزال هذه المدينة قائمة في تشكوسلوفاكيا الحالية، على مسافة خمسة وستين ميلاً جنوبي

عن سائر السلافيين ، ولا يستطيعون لأنفسهم سوى حرب متواصلة ضد خمس حملات سماها أعداؤهم صليبية ، وما هي بالصليبية . بجيوش بوهيمية خالصة ارتجلوها لساعتها كرها من وراء المحاريث والمزارع . في غير تدقيق أو مران ، أو نظام ، أو قيادة مدربة . وبهذه الجيوش أجهز البوهيميون على جميع ما أنفذته الإمبراطورية ضدهم من جيوش لم تكن أحسن منهم نظاماً ، وأوغلوا بحديثهم وحديدتهم في جوف ألمانيا . وما زالوا حتى حملوا الكنيسة الرومانية الكاثوليكية لأول مرة في تاريخها الطويل على توقيع وثيقة للتسليم بمطالبهم الدينية .

أما سرّ هذا النجاح فمرجه أن البوهيميين على اختلاف مذاهبهم الهسية كانوا جبهة متحدة ضد البابوية والإمبراطورية الألمانية ، إذ طالبوا بحرية الوعظ في أية أسلوب من الأساليب ، وتناول العشاء الرباني بنوعيه في القديس ، وإلغاء السلطة البابوية في الشئون الدنيوية ، وإلزام القسس بالعودة إلى حياة الرسل الأولين ، وإخضاع رجال الدين للعقوبات المدنية على ما يتركبونه من جرائم ومخالفات . هذه هي المطالب الأربعة التي رضيت الكنيسة الكاثوليكية بإجابتها للبوهيميين ، وهي التي عرفها التاريخ باسم " مطالب إراج " ، سنة ١٤٢٠ م . غير أن هذه الجبهة المتحدة ذات البرنامج المتحد أخفت وراءها اختلافات بالغة في العاطفة والرأي ، إذ وقفت طائفة من هذه الجبهة موقف الاعتدال ، وهي طائفة الذخيريين أو العشاء ربانيين^(١) أصحاب القول بالاكتهاء بحق تناول الكلي لجميع المسيحيين في العشاء الرباني بنوعيه (*sub utraque specie communio*) . على حين وقف الطابوريون أو القدياسيون موقف التطرف . وأبدى الأولون استعدادهم لقبول أى اتفاق مع روما يبيح لأهل بوهيميا تناول العشاء الرباني بنوعيه في القديس ، على حين ذهب الطابوريون إلى أبعد من ذلك . فأنكروا الصلاة للعدراء والقديسين ، وأجازوا للعلمانيين رجالاً ونساءً أن يتولوا وظائف الوعظ في الكنائس ، ولم يعترفوا بوجود هيئة إكليروسية . على أن الطائفتين توافقتا على اتجاه واحد . وهو الإمعان في اضطهاد مخالفين في الآراء

(١) هذان اللفظان مرادفان للكلمتين الإنجليزيتين (Utraquists & Calixtines) الواردتين بالمثنى ، والذخيريون نسبة إلى لفظ الذخيرة الذي تطبقه بعض الطوائف المسيحية العربية على العشاء الرباني بنوعيه ، والعشاربانيون نسبة نحوية قياسية إلى العشاء الرباني الذي اكتفت هذه الطائفة المعتدلة من أهل بوهيميا بالمطالبة به من الكنيسة الكاثوليكية ، ويسمى أفراد هذه الطائفة كذلك باسم الإراجين ، نسبة إلى مدينة إراج التي جاء معظمهم من دوائرها الجامعية والمدنية . زيادة .

إمعاناً لا رحمة فيه ولا هوادة ، مع مناداتهم في موعظاتهم بالبلغة بمذهب الحرية في الدين .

لهذا لم يكن عجباً أن تعمّ بوهيميا فتنة دينية داخلية تشلّ حركتها شللاً كاملاً ، بعد سنتين اثنتين من وفاة ترسكا عام ١٤٢٤ م . ثم ظهر بين صفوف الطابوريين شخص لا يقلّ عن ترسكا نفسه خبرة بفنون القتال ، ومقدرة على التنظيم . ذلك هو القس بروكوبيوس الكبير ، الذي منعه الكهنوتية من الاشتراك الفعلي في القتال ، ولكنه قام قيام الزعيم كارنو — زمن الثورة الفرنسية الكبرى — بتهيئة جميع أسباب النصر للبهيميين . يضاف إلى ذلك أن بصيرته الثاقبة أوحى إليه أن خير وسيلة للدفاع عن بوهيميا هي اتخاذ خطة الهجوم في كل جبهة من جبهات البابويين والألمانيين ، لأن السلام العام لا يكفله إلا النصر التام . وظل بروكوبيوس على هذه الخطة الصائبة حتى أغسطس سنة ١٤٣١ م ، حين هزم الطابوريون عند بلدة طاوس بغابة بوهيميا قوات البابوية . بقيادة كردينال تشرايبي ، فكانت هزيمة أقنعت ذلك السياسي البابوي الكبير أن السبيل إلى حلّ المسألة البوهيمية نهائياً لا يستقيم إلا عن طريق السلام . وبهذا استقرّ الرأي بعد مفاوضات ومناقشات جهدة على توقيع اتفاق إجلاو ، في ٢٦ نوفمبر سنة ١٤٣٦ م ، واعترفت الكنيسة الرومانية الكاثوليكية مؤقتاً بطائفة الذخيريين المعتدلين ، وسمحت لكنيسة إنجيلية مؤسسة على مبدأ الوعظ في حرية أن تكون جزءاً منها ، دون عنق أو اضطهاد .

وفي أثناء هذه الحروب لم يهمل المهسيون وسيلة من الوسائل لعرض قضيتهم على الرأي الأوروبي العام ، بقدر ما لهذا اللفظ من معنى محدود في العصور الوسطى ، فأصدروا منشورات ومقالات قرأها البعيد والقريب ، وصار لقضيتهم أصدقاء في كثير من البلاد الأوروبية .

الواقع أن هزيمة البابوية في سلسلة من المعارك الحربية الشنيعة أحدثت من سوء الأثر بأوروبا ما لا يمكن المبالغة في وصف عمقه ومداه ، مع العلم بأن هذه المعارك لم تكن سوى مأساة كبرى للمتصرين ، إذ حطّم الطابوريون في ثورة وحشية عنيفة مجموعة الأديرة والكنائس البديعة التي شيدتها العصور السالفة في بوهيميا ، وساد الخراب والفقر أنحاء المملكة الصغيرة حتى أمست في خشية من مستقبلها العابس الظلم .

ثم إن الحماسة الدينية التي ملأت طوائف الحسين الأولين أخذت في الأفول والحمود قبل انتهاء هذه الحروب الأهلية ، إذ أفقدت هذه الحروب جيش الطابوريين معظم جنوده ، وهم خيرة ما أنجبت الحركة الدينية في بوهيميا ، وأحلت محلهم جنوداً مأجورين ، وذلك قبل توقيع الاتفاقية مع الكنيسة الكاثوليكية . ثم قضت طائفة المعتدلين على هذا الجيش في وقعة ليبان الدامية (١٤٣٤ م) ، فاختفت بذلك عناصر الصرامة والتصعب للدين من أراضي بوهيميا ، وهي العناصر التي جعلت اسم بوهيميا موضع الرعب والكرهية بأنحاء أوروبا لعدة سنين .

وكيفما كانت الحال الناجمة عن هذه الحرب الأهلية بين طائفتي الحسين . فأهمية الحروب الهسية في مجموعها تتلخص أولاً في أنها طليعة "حركة الإصلاح البروتستانتي" ، وثانياً في أنها دليل على نهوض الجنس السلافي ضدّ الزحف الألماني الجارف والسيادة الألمانية الزهقة . والواقع أن الحركة البوهيمية لا تتضح على حقيقتها إلا بتصوير شعب صغير يعمل في سبيل المحافظة على كيانه ، ضدّ شعب أعزّ منه نفراً وأكثر حضارة وذكراً . ثم فاز هذا الشعب الصغير بالنصر ، بفضل التنظيم الصارم والتضحية الراضية . غير أن نبلاء بوهيميا اختطفوا ثمار ذلك النصر من أيدي الشعب ، ثم لم يلبثوا أن أضاعوا هذه الثمار في معركة التل الأبيض سنة ١٦٢٠ م ، حين تهدمت الحركة البروتستانتية ، ووقعت بوهيميا في الشرك النمساوي الكاثوليكي ، وهو الشرك الذي ضاق به أهل بوهيميا ، واحبالوا على قطع حباله مرة بعد مرة ، ولم ينقذهم منه سوى سيوف الحرب العظمى الأولى ، (١٩١٨ م) .

على أن الكنيسة الكاثوليكية التي وقفت للحركة الإصلاحية في بوهيميا منذ القرن الخامس عشر الميلادي لم تخلُ بدورها من حركة إصلاحية ذاتية ، وهي التي جرى المصطلح على تسميتها باسم حركة الحجاج (Conciliar Movement) . وهي كذلك الحركة التي تجلت في فشلها جميع الأسباب والصعوبات الحائلة دون تحقيق أي مشروع من المشاريع الأوروبية في سبيل السلام الدولي العام في العصر الحاضر ، مثل عصبة الأمم في جنيف ، أو هيئة الأمم المتحدة في نيويورك ، أو هيئة الاتحاد الأوروبي في ستراسبورج . أما حاجة الكنيسة إلى إصلاح في القرن الخامس عشر الميلادي ، فلم ينكرها وقتذاك عاقل مهما أوتي من التزمّت والمحافظة على القديم ، إذ خشي معظم أهل العلم أكبر خشية مما شهدوا من سرعة امتداد الهرطقة في خطوات واسعة ،

وأجمع الكل على أن الانقسام^(١) الدينى الكبير وصمة يجب إزالتها فى غير إهمال . ورأى بعض المفكرين المحلصين للدين أن أهم ما وعى الناس من دروس ذلك العصر أن السيادة البابوية التى استغلها بابوات أفنيون أسوأ استغلال ينبغى أن تكون خاضعة لنوع من الإشراف المنظم والرقابة الدائمة ، عن طريق المجامع الكنسية . وتحقيقاً لذلك رأى انعقدت أربعة مجامع كنسية فى پيزا (١٤٠٩ م)^(٢) ، وكونستانس (١٤١٤ م) ، وپافيا (١٤٢٣ م) ، وبازل (١٤٣١ م) . غير أن هذه الحركة التى بدأها المفكرون من رجال الدين انتهت بإثارة اهتمام السياسيين والدبلوماسيين ، ولم تلبث المشاكل المعروضة على بساط البحث أن تعدت المشكلة الأصلية الناشئة عن تنافس اثنين من البابوات ، لكل منهما شعبة إقليمية مستقلة عن التقسيمات^(٣) السياسية فى أوربا ، وليس لإحدهما رغبة ألبتة فى التزول عن شئ من موقفها للأخرى . ثم أدت تعدد المشاكل الجسيمة أمام هذه المجامع أن أضحت أعضاؤها من أجدر الزعيمين بتمثيل الحياة الدينية والسياسية والفكرية وأعظمهم وزناً فى المجتمع الأوروبى ، حتى بدا كل من مجمع كونستانس وبازل بعض الأحيان كأنه مؤتمر من السياسيين والدبلوماسيين لتسوية أوربا ، لا مجلس مكون من رجال الدين . غير أن ما أفادته أوربا المسيحية من هذه المجامع الشهيرة لم يكن شيئاً برغم ما امتلأت

(١) حدث الانقسام الدينى بعد وفاة البابا جريجورى الحادى عشر سنة ١٣٧٨ م ، وهو صاحب الفضل فى إرجاع البابوية من أفنيون إلى روما ، وإنهاء عهد الأسر البابلى الذى تقدمت الإشارة إليه . غير أن الانتخاب البابوى التالى امتلأ بالحزبية والصخب بين الكرادلة الإيطاليين والفرنسيين ، وعمل كل من الحزبين على انتخاب بابوى يكون فيه النصر حزبياً ، حتى إذا انجلى الموقف بانتخاب بابا إيطالى الجنس ، وهو إربان السادس ، أخذ الكرادلة الفرنسيون يلحون عليه فى الإقامة فى أفنيون . غير أن البابا إربان السادس رفض الإذعان لذلك الإلحاح ، فاجتمع الكرادلة الفرنسيون ، وطعنوا فى الانتخاب البابوى ، وانتخبوا كلمنت السابع الذى لم يلبث أن استقر فى أفنيون . بهذا صارت البابوية كرسيتين متباعدتين متنافرتين متناكرتين ، وهذا هو مطلع الانقسام الدينى الكبير الذى لم يكن الأول من نوعه فى تاريخ المسيحية ، ولكنه كان أطول الانقسامات الدينية مدة وأعقها فى نتائجه . زيادة .

(٢) عمد أعضاء هذا المجلس بالذات - وهم عدد حافل من الكرادلة وقادة الفكر والسياسيين - إلى إزالة الانقسام الدينى الكبير بخلع البابوين القائمين أحدهما فى روما وثانيهما فى أفنيون ، وهما وقتذاك بندكت الثالث عشر وجريجورى الثالث عشر ، ثم انتخبوا إسكندر الخامس ، فصار بالعالم المسيحى الغربى ثلاث بابوات ، لا واحد . زيادة .

(٣) وقفت إيطاليا طبعاً ، وكذلك إنجلترا وألمانيا ، فى صف بابوات روما ، ووقفت فرنسا واسكتلندا وإسبانيا المسيحية فى صف بابوات أفنيون . زيادة .

به جلساتها من جدول وضوضاء ، فلم يستطع مجمع پيزا سنة ١٤٠٩ م أن يزِيل الانقسام الديني ، ولم يخطئه التوفيق في إبعاد البابوين المتنافسين على الكرسي البابوي فحسب ، بل زاد في تعقيد الموقف بانتخاب بابوي جديد شوش على أوربا أحوالها وشان كنيستها ، بتنازع ثلاثة بدل اثنين من البابوات . أما الفضل في إزالة الانقسام الديني - يخلع البابوين المتنافسين ، وحلّ الثالث على الاستقالة - فرجعه لمجمع كونستانس (١٤١٤ م) ، وهو المجمع الذي امتاز بسعة دائرة عضويته ، وسعة تمثيل الكرادلة من مختلف الدول الأوروبية في جلساته ، بالقياس إلى جلسات مجمع پيزا . هكذا انتهى الانقسام الديني ، وغدا الكرسي البابوي شاغراً ، وبدا كأن فرصة ذهبية لاحت لإصلاح الكنيسة وفرض ما يبدو مفيداً ممكناً فرضه من القيود على سلطة البابا . غير أن الفرصة ضاعت سدى ، إذ أضاعها مجمع كونستانس في المفاضلة بين البدء في إصلاح الكنيسة قبل انتخاب البابا ، أو انتخاب البابا قبل البدء في إصلاح الكنيسة ، ثم قرّر إرجاء الإصلاح برغم معارضة إنجلترا وألمانيا ، فجاء هذا القرار معبراً عن الخطأ الذي تقع فيه غالباً أية جمعية من الجمعيات العامة لا يكون للقيم والاعتبارات الخلقية في مناقشتها ما ينبغي من تقدير . غير أنه مع التسليم بأن إصلاح الكنيسة والبابوية شاغرة لا يمكن أن يكون إلا أمراً شاقاً عسيراً ، فمن الواضح أن القيام بذلك عقب انتخاب بابوي يجعل الأمر أكثر مشقة وعسراً . ذلك أن وقوع اختيار المجمع على كردينال أودو كولونا السياسي الإيطالي ، وهو الذي تسمّى مارتن الخامس ، (١٤١٧ - ١٤٣١ م) ، رفع إلى الكرسي البابوي رجلاً لم تلبث مصالحه السياسية - فضلاً عن التقاليد الأوتوقراطية البابوية - أن جعلت منه مناهضاً خطيراً لفكرة المجمع ، ديدنه إحباط الأغراض الدستورية التي توخاها مجمع كونستانس .

هكذا انهارت خطة الإصلاح الكنسي العام ، أي أن مجمع كونستانس اقتضرت أعماله على إعدام حنا هس وحنا چيروم حرقاً بالنار ، وإصدار عدة قرارات لعقد مجامع مسكونية كل عشر سنوات ، وعقد مجمع عادي للبحث في إصلاح الكنيسة بعد خمس سنوات ، مع جواز دعوة مجمع في أي وقت من الأوقات دون استئذان البابا ، في حالة قيام انقسام ديني جديد . ومعنى ذلك كله أن مجمع كونستانس لم يستطع إلا أن ينزل عن فكرة الإصلاح الديني المنشود ، خضوعاً للبابا مارتن الخامس الذي جعل همه الأول تدعيم إمارته الإيطالية ، وآثر عقد

اتفاقات مؤقتة - مع كل دولة من الدول الأوروبية^(١) - على العمل عن طريق الحجاج التي لم تكن في نظره سوى أداة تنافسه السلطة والسلطان .

لم يكن مجمع بازل الذي عقد سنة ١٤٣١ م ، أكثر نجاحاً من مجمع كونستانس ، لأن جميع المؤتمرات الرئيسية التي أحبطت مظاهر الحماسة للإصلاح في نفوس الكرادلة وقتذاك لم تفقد شيئاً من قوتها في مجمع بازل ، إذ جاء إلى كرسي البابوية بعد النبيل الإيطالي مارتن الخامس نبيل إيطالي ثان من مدينة البندقية ، وهو يوجين الرابع . ومقت البابا الجديد - مثل سلفه - محاولة الحجاج إقامة نفسها فوق مقام الكرسي البابوي ، لإصلاح إدارته المالية ، وتقيد سلطته المطلقة في توزيع الوظائف والإنعامات الكنسية ؛ ولذا تأكد لمجمع بازل منذ أوائل جلساته أنه سوف يلتقي من البابا يوجين مقاومة عنيدة لدودة . ثم إنه على الرغم من عدم تحول هذا المجمع إلى قوميات ، كما حدث في مجمع كونستانس ، ليسهل على عامة رجال الدين دون الكرادلة أن يظهروا نفوذهم ، ويعرضوا ما لديهم من خطط لإصلاحات أساسية ، فإن الروح القومية لم تقل في قوتها سنة ١٤٣١ م عما كانت عليه سنة ١٤١٧ م . يضاف إلى ذلك أن الإسبان والفرنسيين ظلوا - كما كانوا - على كراهيتهم لفكرة الإصلاح ، ورأى يوجين الرابع - كما رأى مارتن الخامس قبله - أن مصلحته تتطلب منه الاتفاق مع ملوك الدول الأوروبية ، لا مع مجمع كنسي عام .

ومع هذا ليس من الإنصاف أن ينكر الباحث أن مجمع بازل أنجز عملاً واحداً يستحق النظر والاعتبار على أقل تقدير ، إذ هيأت اجتماعاته مسرحاً طيباً للفحص والمناقشة في الاختلافات الدينية بين الهسيين والكاثوليكين ، وهو ما حدث فعلاً . وتعدّ المناظرة الدينية التي جرت بين زعماء الهسيين وكبار اللاهوتيين الكاثوليكين في مجمع بازل من أعظم الأحداث المشرفة التي وقعت في ذلك العصر الطافح بالعنف والتعصب . وحقّ لهذا المجمع من الفخر أنه نجح آخر الأمر في الوصول إلى حل نصفه رضى به معظم الهسيين من أهل بوهيميا ، ما عدا

(١) اتصفت هذه المجالس كلها باختلاط المسائل الدينية بالمسائل السياسية في جلساتها ، وبامتلاء هذه الجلسات بالسياسيين من مختلف الدول الأوروبية ، فضلاً عن جماعات الكرادلة من هذه الدول . ثم إن كثرة الإيطاليين من السياسيين والكرادلة في مجمع كونستانس أدى إلى ضرورة تنظيم التصويت على قاعدة القوميات ، بحيث يصبح لأعضاء كل قومية صوت واحد ، على أن هذا التنظيم لم تظهر له ضرورة في مجمع بازل ، وهو ما أشار إليه المؤلف هنا . زيادة .

الطابوريين الذين اعترضوا قبوله أشد الاعتراض . غير أن مجمع بازل عجز عن السير خطوة واحدة فيما عدا ذلك من مسائل لإصلاح الكنيسة ، أو تقييد سلطان البابوية . ولم ينشأ ذلك العجز عن نقص في أسس الأهداف التي رعى إليها هذا المجمع ، بدليل ما استطاع إصداره من قرارات جامعة واسعة المرمى ، ومنها ألا ينفص مجمع عام بغير موافقة أعضائه . وألا يلتجئ مجلس عام إلى تحكيم البابا في مسألة من المسائل التي يختلف عليها في مناقشاته . لأن ذلك يكون هرطقة وخروجاً على الجماعة . وأنكر مجمع بازل كذلك سلطات البابا في توزيع الوظائف والإنعامات الكنسية ، كما أُنذر البابوية بالخراب المالي بإنكار ضريبتها المعروفة باسم ضريبة السنة الأولى^(١) (annates) ، وهي مجموعة الدخل السنوي الأول لوظيفة من الوظائف الدينية أو الإقطاعية التابعة للبابا . ثم ذهب المجمع إلى أبعد من ذلك حين أقال عدوّه يوجين الرابع سنة ١٤٣٩ م ، وانتخب للكرسي البابوي فيليكس الخامس ، وهو شيخ أرمل ذو مال ، وله من الأولاد سبعة ؛ وكان فيليكس دوقاً ناسكاً معتزلاً للدنيا في دوقيته بسافوى مدة أربعين سنة .

غير أن المجمع تعدّى بهذه الإجراءات حدود الفطنة والكياسة ، لأن الناس في أوروبا العصور الوسطى لم يرضوا تقييد السلطات البابوية إلى ذلك الحد الخطير ، ولأن احتمال الانقسام الديني مرة أخرى بعد إقالة يوجين الرابع أمقت المجمع عند كثير من الناس . ذلك أنه مع التسليم بأن يوجين الرابع لم يكن خارق الذكاء ، فضلاً عن حدته وصلابته وضيق أفقه ، فإن ما توفر لديه من ذكاء متوسط كفل له الإفادة من أخطاء خصومه في بازل ، والنجاح في إفساد خطط المجمع بعقد اتفاقات خاصة مع الفرنسيين والألمانيين . والواقع أن من دلائل الاتجاهات الجديدة في السياسة الأوروبية ، وامتداد الروح القومية ، وانكماش فكرة الوحدة الكنسية الكاثوليكية الواحدة الجامعة في العصور الوسطى ، أن أركان استقلال الكنيسة الفرنسية الكاثوليكية تأسست سنة ١٤٣٨ م ، دون علم مجمع بازل ، وبرغم استمرار انعقاده . حدث ذلك بمقتضى معاهدة بين البابا يوجين الرابع وملك فرنسا شارل السابع ، وهي المعاهدة المعروفة باسم اتفاقية بورج (Pragmatic Sanction of Bourges) . ومن هذه الدلائل كذلك ما عقده

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٣٩ . زيادة .

بوجين الرابع من معاهدة مماثلة مع هيئة الناخبين الألمانين في ماينز ، سنة ١٤٣٩ م .

ثم ما لبث مجمع بازل أن تلقى لطمة نهائية كانت القاضية على سلطته سنة ١٤٤٥ م ، حين باع فردريك الثالث ملك ألمانيا - أي ملك الرومانيين على قول المصطلح السياسي في العصور الوسطى - حقوق الكنيسة الألمانية إلى البابا فيليكس الخامس ، مقابل وعد بتتويجه إمبراطوراً على الدولة الرومانية المقدسة . ولهذا الحادثة أهمية بالغة في حركة المجامع الكنسية ، إذ المعروف أن معظم الفضل في قيام مجمعي كونستانس وبازل يرجع إلى تأييد الإمبراطور سجموند (١٣١٩ - ١٤٣٧ م) ، وهو الرجل المتقلب الطائش الذي حرص على أن يبدو في عين المجتمع الأوربي نجماً متألقاً في سماء الإصلاح الكنسي ، وإمبراطوراً عالمياً وسعت أحلامه الآفاق ، وفيصلاً وحكماً في تسوية المنازعات المدنية والكنسية . واحتضن سجموند حركة المجامع الكنسية أملاً في تعطيل المهرطقات في بوهيميا ، وتسهيل الحصول على تاج بوهيميا لنفسه ، وظلت هذه المجامع قوة خطيرة في وجه البابوية طالما حظيت بتأييد السلطة الإمبراطورية ، مع العلم بأن هذه السلطة لم تكن ذات موضوع في ألمانيا بعض الأحيان . ومن ذلك تتضح أهمية المعاهدات المعقودة بين البابا وفردريك الثالث ، إذ قضت السلطة السياسية الوحيدة - وهي التي توقع مجمع بازل منها كل تأييد ومساعدة - على آمال أعضائه بضرية قاصمة . بل أعاد فردريك للبابا سنة ١٤٤٨ م ضريبة السنة الأولى^(١) ، ومعظم الحقوق البابوية في توزيع الوظائف والإنعامات الدينية التي حرمتها عليه قرارات مجمع بازل .

هكذا انتصرت البابوية . وهكذا انهارت حركة الإصلاح الكنسي ، أي أن رغبة الكنيسة الكاثوليكية إلى إصلاح شئونها عن طريق المجامع العامة ذهبت هباء ، بسبب الاختلافات السياسية الضاربة في جوف أوروبا وأواخر العصور الوسطى . فضلاً عن معارضة البابا ، وجشع أحد الأباطرة ، وإصرار إيطاليا ألا تقبل على نفسها سيادة الألمانين في أية صورة من الصور .

هنا ينتقل الباحث إلى الإيطاليين وإيطاليا التي عاد إليها إشرافها على الكرسي

(١) انظر ما سبق هن ، ص ٣٣٩ ، ٣٨١ . زيادة .

البابوى مرة أخرى منذ أيام البابا مارتن الخامس (١٤١٧ - ١٤٣١ م) ، لأن مجيء هذا البابا يبدأ سلسلة طويلة من البابوات الذين جعلوا همهم الأول تدبير شئون دولة إيطاليا مساحتها مجموعة الممتلكات البابوية ، لا البابوية نفسها . وأثر مارتن الخامس هذه الممتلكات البابوية على الكنيسة ، وفضل إيطاليا على أوروبا ، وقدم أقاربه من أسرة كولونا على سائر الناس ، وبات شغله الشاغل إعادة الأمن إلى روما التى أنهكتها الحروب الأهلية ، وتطهير إقليم كامبانيا البابوى من اللصوص ، وإرجاع الدوائر الكنسية بمختلف البلاد الأوربية إلى ما يجب عليها من الخضوع والشعور بالتبعية للكرسى البابوى .

على أن البابوية لم تستطع أن تلائم في سرعة أو سهولة بين نفسها والمظاهر الوحشية التى غلبت على موطنها الإيطالى القديم ، ذلك أن عودة البابوية إلى إيطاليا بدا في نظر البعض من المعاصرين منبعاً للفخار العظيم والمنفعة والربح الوفير ، على حين بدا في نظر البعض الآخر مثاراً للعداوات الشديدة والبغضاء والبغى . وكره الجمهوريون من أهل روما ذات المجد الأئبى التليد أن تعود مدينة العباقرة الصناديد - أمثال سيبو وإخوته الرومانيين القدماء - إلى حكم رجال الدين من القسس والرهبان ، وأولئك الجمهوريون هم الذين ساقوا البابا يوجين الرابع إلى المنفى ، وثاروا ثورة مسلحة في وجه خليفته فيلكس الخامس . أما نبلاء روما وضاحيتها كامبانيا - وهم الذين أضحى التمرد طبيعة ثانية في نفوسهم ، بسبب ما ولغت فيه أجيالهم من فوضى وسفك دماء - فكانوا أشد خطراً من رعاع روما . ولذا لم يكن عجباً أن يشعر البابوات بعد عودتهم إلى روما من أفنيون أن روح التقوى المسيحية لن تمنعهم أو تحرم عليهم مقابلة هذه الاضطرابات بأفطع ما تستطيع عساكرهم المرتزقة المأجورة أن تنزله من عقوبات قاسية بالكارهين لعودتها ، أو الناقمين على محسوبيتها ، أو المتحزبين لبابا سالف ضدّ خالف في الكرسى البابوى . فأعمل كل من الجانبين في خصومه أنواع التعذيب وألوان القتل والشنق ، وتخربت ضاحية بالسترينا قرب روما - وهى موطن أقارب البابا مارتن الخامس من أسرة كولونا - على يد فيتلتنشى رئيس أساقفة مدينة فلورنسا ، وهو الذى ارتكب من الفظائع في خدمة البابا يوجين الرابع ما صورّه الكاتب الإيطالى المعاصر لورنزو ثالا بحروف حالكة السواد ، وأحاط عودة الدولة البابوية إلى إيطاليا بظل قائم من ظلال الحزن .

هكذا استقبل البابوات حياتهم البابوية في إيطاليا ، بعد أن تخلصوا من

مشاكلهم المحلية تخلصاً صارماً صاخباً ، وساروا قدماً لمواجهة المستقبل يحذوهم شعور بالنصر والظفر ؛ وغدت العقبات التي ما فتئت منذ الانقسام الديني تهدد كيان السلطة البابوية في خبر كان . وانفضّ مجمع بازل سنة ١٤٤٩ م ، بعد أن ظلّ قائماً مدة طويلة ، في قلة من الأعضاء وقلة من الجدوى ، كما استقال البابا الشيخ الهرم فيليكس الخامس . وقبل ذلك صالحت الإمبراطورية الألمانية — وهي الإمبراطورية الرومانية المقدسة — الكرسي البابوي ، بإرشاد فردريك الثالث وسياسته العرجاء وأطماعه الشهواء ، فحادث بذلك في رضى ورغبة عن طريق الإصلاح ، وقبلت أداء المطالب المالية التي أرادها البابا ، كما قبلت تنفيذ حقوقه في توزيع الوظائف والإنعامات الكنسية ، فضلاً عن قبولها سلطة البابوية عليها كاملة غير منقوصة . أما أهل بوهيميا الذين ملأ اسمهم أنحاء أوروبا خوفاً ورعباً ، فلم يعودوا مصدر خوف أو خشية ، بعد أن أخلدوا — فيما يبدو — إلى الهدوء والسكينة ، ولم يلفظ أحد باسم وكلف . وفي سنة ١٤٥٠ م — وهي السنة المقدسة منتصف القرن الخامس عشر الميلادي — أطل نقولا الخامس على المجتمع الكاثوليكي من مختلف أرجاء المعمورة ، وأجال بصره في أفواج المتبركين بزيارة روما ذاك العام ، وحقّ له أن يرى في تلك الأفواج رمزاً لخضوع العالم بأسره لمشيئته . وعاش نقولا الخامس من المعنيين بالعلم وأهله ، وأضحى بلاطه مركزاً رئيساً للعلوم والآداب الإيطالية ، وهو صاحب الفضل في تأسيس مكتبة الفاتيكان . وفي هذه السنة كذلك نشر الكاتب الإسباني توركويادا رسالته المشهورة التي عنوانها "الإفحام في الرد على أعداء الكنيسة" (*summa contra hostes ecclesiae*) ، وأودع فيها الردّ الكاثوليكي الخالص على جميع الخطيئات التي نزلت بالعالم المسيحي على أيدي المصلحين .

والحاصل أن الهجوم الكبير الذي هدّد حصن البابوية ارتدّ ارتداداً خائباً وهو حسير ، غير أنه نذر وقتذاك من استطاع أن يتنبأ بأن هذا الهجوم سوف يتجدّد بعد نصف قرن من الزمان ، في نطاق أوسع وقوة أعظم . وأن سوف ينجم عنه نتائج هادمة لوحدة الكنيسة الكاثوليكية اللاتينية .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Creighton, (M.) : History of the Papacy during the Reformation. 1882.
- Denis, (E.) : Huss et la Guerre des Hussites. 1878.
- Gregorovius : History of Rome in the Middle Ages. Tr. A. Hamilton. 1894-1900.
- Inge, (W.R.) : Christian Mysticism. 1899.
- Lechler : John Wycliffe and his English Precursors. Tr P Lorimer. 1884.
- Loserth, (J.) : Wycliffe and Huss. Tr. M.J. Evans 1884.
- Poole. (R.L.) : Wycliffe's Tractatus de Civili Dominio. 1885.
- Ranke : History of the Popes. Tr. S. Austin. 1847.
- Trevelyan, (G.M.) : England in the Age of Wycliffe. 1909.
- Turberville, (A.S.) : Mediaeval Heresy and the Inquisition. 1920.

الفصل الثالث والعشرون

إسبانيا والعصور الوسطى

النضال بين المسيحيين والمسلمين — عظمة قرطبة على عهد الخلفاء الأمويين —
ملاءمة الأحوال السياسية الإسلامية للمسيحيين الإسبانين في القرن الحادى عشر
الميلادى — انعدام الوحدة بين القوى المسيحية الإسبانية — الجهود المسيحية في
سبيل استرداد إسبانيا من المسلمين — سنة ١٠٨٦م إلى سنة ١٢٦٦م — المرابطون
والموحدون — توقف الحروب الدينية مدة طويلة — الروح الإقليمية في شبه جزيرة
أيبيريا — فضل فرنسا على إسبانيا العصور الوسطى .

* * *

يبدو واضحاً تمام الوضوح أن تاريخ إسبانيا العصور الوسطى ليس إلا تاريخ
التقاء حضارتين مختلفتين تمام الاختلاف ؛ إحداهما مسيحية وأهلها أخلاط متفاوتة
من الكتالبريين^(١) والرومانيين والقوطيين الغربيين ، وثانيتهما إسلامية وأهلها من
العرب والبربر . ووقفت كل حضارة من هاتين الحضارتين أمام أختها ، ولم يكن
من اصطدامهما محيص في سبيل السيطرة التامة على شبه جزيرة أيبيريا كلها ،
برغم ما نشأ بينهما من تبادل المؤثرات والميول الحضارية . وخرج المسيحيون ظافرين
من هذا الاصطدام الذى لم تهدأ شدته إلا بعد استيلاء فرديناند وإيزابيلا على آخر
ممالك المسلمين في إسبانيا ، وهى مملكة غرناطة الصغيرة ، سنة ١٤٩٢م ، أى سنة
اكتشاف أمريكا . ثم رأى فرديناند ورأت إيزابيلا معه أن الاستيلاء على مملكة
غرناطة يستوجب شكرهما وحمدهما لله على توفيقهما المبين ، فأصدرا بعد سبعة

(١) تتركب هذه الكلمة من لفظين ، وهما كلتى وأيبيرى ، وكل منهما اسم صفة لجنس من الأجناس
الأوروبية القديمة ، فالكتليون أهل غرب أوروبا قبل أن تختلط بهم مجموعة الشعوب الشامية مثل الجرمانيين
وغيرهم ، والأيبيريون أهل شبه جزيرة أيبيريا ، أى بلاد إسبانيا والبرتغال . ويطلق علماء الأجناس
اسم الكتالبريين في العصر الحاضر على خليط من هذين الجنسين ، وهم أهل الجزء الجنوبي الغربى من أرجونة
الحالية ، فضلا عن شمال قشتالة وشرقيها . واشتهر هذا الجنس بالشجاعة وشدة المراس ، ومنه جعل هانيبال
فرقة مرتزقة في الجيش القرطاجى ، كما جعلت الدولة الرومانية منه جنداً شهيراً . زيادة .

أشهر من فتح غرناطة قراراً بطرد جميع اليهود من إسبانيا ، كما أصدر سنة ١٥٠٢ م قراراً بتخيير بقايا المسلمين بين اعتناق المسيحية أو مغارة البلاد ، وبهذين القرارين الاضطهاديين الذين يرجع التفكير في إصدارهما إلى إيزابيلا وحاسبتها الدينية العمياء ، وإلى تعصب الدهماء من المسيحيين الإسبانين ، تخلّصت إسبانيا من الجزء العامل من سكانها ، وهو الجزء الذى كان زعيماً بتنمية ثروتها المادية على نحو سليم ، وكل ذلك كما يصبح الجوّ خالياً لسيطرة الكنيسة الكاثوليكية على البلاد . كذا تمّ التمهيد الدينى (*Preparatio Evangelica*) فى إسبانيا لعصر الفتح والنصر والاستعمار فيما بعد ، حين انتشرت الجيوش الإسبانية فى العالم القديم ، وفى العالم الأمريكى الجديد ، تبتغى خدمة العقيدة الكاثوليكية وإيصالها للناس . ولبعض الباحثين العذر إذا هم رأوا فى هذا الارتباط الوثيق بين العرش الملكى والتعصب الدينى أهم أسباب انحلال الإمبراطورية الإسبانية ، وسقوطها فى العصور الحديثة .

أما المسلمون الذين أشعلوا هذه الروح التعصبية الملتبّه بين المسيحيين من الإسبانين قروناً قبل فرديناند وإيزابيلا ، فأضحوا منذ سنة ٧٥٥ م إلى أوائل القرن الحادى عشر الميلادى دولة قوية راضية ، عليها أمراء وخلفاء أمويون ، يحكمونها حكماً مستنيراً من عاصمة لهم هى قرطبة . وانعقدت مخاليل التحضر والنعمة والثرف والاستقرار على رأس هذه الدولة ، كما امتلأت عاصمتها بالسكان من جميع الأديان . والزائر القادم إلى قرطبة وضواحيها فى القرن العاشر الميلادى ، لا يلبث أن يرى بلداً توافرت فيه دلائل الحكومة المستنيرة المعنية أكبر عناية بشئون الزراعة والتجارة والصناعة ، إذ يرى فيما يرى فلاحين يزرعون الأرز وقصب السكر فى أرض تسقيها ترع ونواظم مائية قام على تنسيقها مهندسون من العرب ، كما يرى فيما يرى صنّاعاً يصنعون الآنية من الزجاج والأدوات من العاج والجلد ، فى دقة ورونق وجمال . والزائر لا يستطيع إلا أن يرى كذلك فيما يرى الدواوين الحكومية والصفوف من الموظفين الكاتبين الذين استبدلوا الورق برقوق الغزلان للكتابة . حتى إذا دخل قرطبة نفسها لم يستطع إلا أن يعجب من أهلها وغلّوهم الشرقى الذى تطلب تسعمائة حمام لغسل أبدانهم ، وأربعمائة مسجد لتهديب نفوسهم ، فضلاً عن طرق مرصوفة بالحجارة ، وساحات ظليلة واسعة ، ذات عمد وعقود مسقوفة . تتوسطها نوافير مائية متألفة ، وتزينها مئات المصابيح المصنوعة من الفضة ، كما

تزین المسجد القرطبي الكبير بأنوارها المنعكسة على عمده من الرخام .
ولم تكن هذه المباحج الخلافة خاصة بالسادة العرب ، بل نعمت بها رعية الخليفة الأموي ، من جاليات المسلمين الذين قدموا مع الفاتحين ، وطوائف الوطنيين المسيحيين الذين رضوا بالفتح والعيش في ظل الإسلام آمنين ، على أن يدفعوا للدولة جزية سنوية معلومة . وأولئك هم المستعربون (Mozarabs) على قول المصطلح المعاصر ، وهم جزء هام من المجتمع الإسباني الإسلامي ، وإليهم يرجع الفضل — كما يرجع إلى اليهود الإسبانيين — في تسرب الحضارة العربية ، وما امتلأت به هذه الحضارة من علوم اليونانيين ، إلى أوروبا اللاتينية في العصور الوسطى .

لم يكن باستطاعة الدول الإسبانية المسيحية أن تقف في وجه الخلافة الأموية في قرطبة . وهي الدول الصغيرة التي تكوّنت بين لحوف الجبال الباردة وصياصي الوديان الخفضلة بشمال إسبانيا عقب الفتح الإسلامي ، وذلك لأنها ظلت حتى مطلع القرن الحادي عشر الميلادي في قلة قليلة من السكان ، وملوكها ليس لديهم جيوش حربية منظمة أو موارد مالية ثابتة ، بل كل اعتمادهم على كرم النبلاء والمدن مقابل ما ينزلون عنه لهؤلاء وأولئك من حقوق وامتيازات وإعفاءات ، في غير حساب . أما المسلمون فعاشوا في أوج من العظمة والقوة ، ولا سيما زمن الخليفة عبد الرحمن الثالث والحاجب المنصور بن أبي عامر ، حين خمدت الفتنة بين العرب والبربر ، وأضحت الجيوش الإسلامية متحدة نظيمة ، كما أضحت ألويتها تخفق بالنصر حيثما حلت بجزء من أجزاء شبه الجزيرة . فاستولت هذه الجيوش المظفرة على برشلونة سنة ٩٨٥ م ، ودخلت شنتياجو سنة ٩٩٧ م ، ودانت إسبانيا كلها للخليفة الأموي ، ما عدا ليونة وقشتالة ، أي أرض القصور الحصينة والمعازل . وهي جزء من قطلونيا .

ثم تلا ذلك انقلاب من الانقلابات التي امتلأ بأمثالها تاريخ الدول الإسلامية ، إذ أعقبت وفاة الحاجب المنصور سنة ١٢٠٠ م سلسلة متلاحقة من الاختلافات التي ذهبت بجميع المحاسن السياسية في دولة المسلمين بإسبانيا . فحارب الأمراء بعضهم بعضاً ، وتناحرت القبائل فيما بينها ، واختفت الخلافة الأموية ، وغدت قرطبة نفسها جمهورية . وسنحت الفرصة بذلك للمسيحيين أن يشمتوا ، وأن يفكروا في العنوان السافر ، حتى قال قائل منهم في الحاجب المنصور إنه

مات وهلك، وإن قبره في جهنم وبئس المصير. (Mortus est Almanzor et Sepultus
est in inferno)

لكن الدول المسيحية الإسبانية لم تستطع أن تتحد تمام الاتحاد ضد المسلمين ،
في أية مرحلة من مراحل الحرب التي اشتد أوارها بينها وبينهم ، منذ أوائل القرن الحادى
عشر الميلادى . ثم إن كلا من هذه الدول لم يكن بنجوة من التشتت والتقسيم
والتفكك والاضمحلال ، تنفيذاً لوصية من وصايا الملوك الذين تدرّكهم الوفاة عن
اثنين أو ثلاثة من البنين . ومع هذا استطاع ألفونس الرابع ملك قشتالة
أن يفتح مدينة طليطلة ، سنة ١٠٨٥ م ، واستطاع ألفونس الأول ملك أراجونة
أن ينتزع مدينة سرقسطة من قبضة المسلمين سنة ١١١٨ م ، وهذان انتصاران
هامان تربت عليهما سعة كبيرة في رقعة المسيحية ، وامتداد واضح لسلطانها بشبه
الجزيرة . لكن كلا من هذين الانتصارين لم يعد أن يكون فوز ملك مستقل
تختلف دولته عن دولة أخيه وجاره ، في اللغة والمزاج وأساليب الحكم ، وليس أيسر
بين هذا وذاك من التفاهم حيناً والتنازع حيناً آخر ، من أجل توافه الاختلاف ،
ابتغاء المحافظة على الروح الإقليمية المحلية في كل من هاتين الدولتين . والواقع إن
الروح الإقليمية المحلية بلغت من العمق في إسبانيا المسيحية بحيث لم يكن من المحتمل
تعديلها وتغييرها ، إلا أن يجد على الإسبانين المسيحيين جديداً ، من دافع عام
يدفعهم في عنف إلى عمل مشترك يطغى على ما بينهم من اختلاف . غير أن هذا
الدافع العام لم يوجد ، ولذا لا ينبغي أن يتصور أحد أن عصر الجهود المسيحية
ضد المسلمين في إسبانيا (Reconquista) لم يكن سوى سلسلة متصلة من الحروب
الشديدة ، بين الهلال والصليب . ومن الدليل على ذلك أن المسلم في أوج أيامه الإسبانية
عاش رجلاً متسامحاً في الدين ، مهذباً إلى أقصى درجات التهذيب ، متهضر غاية التحضر ،
كما عاش المسيحي وقت ذاك مستجيباً للأخذ بأسباب الحضارة والصدقة ، وحسن
المواطنة والحوار . وخيم السلام على المسيحيين والمسلمين فيئات متعددة ، وتزوجت
بيوت إسلامية ملكية من بيوت مسيحية ملكية مثلها ، كما تزوجت بينهما بيوت
نبيلة . واشترك كثير من جند المسلمين وجند المسيحيين جنباً إلى جنب في وقائع
حربية عديدة ، فكان البطل الإسباني المسيحي رودريجو دى بيثار (١٠٣٤ -
١٠٩٩ م) - وهو النبيل القطلونى الذى اشتهر باسم السيد القمبيطور
(Gid Campeador) - في خدمة أحد الأمراء المسلمين سنوات كثيرة ، وذلك

قبل انقلابه إلى أهله الأصليين، واستيلائه على مدينة بلنسية من المسلمين. ثم إن سياسة التسامح التي عكفت الخلافة الأموية بإسبانيا على تطبيقها - إلا في القليل النادر - هيأت للمسيحيين الإسبانيين العيش في رغد وأمان، بأنحاء الدولة الإسلامية، كما أجازت لهم الدخول في الجيش، فضلاً عن الوظائف العليا في إدارة الحكم. ويتضح من هذا أن التوافق الزمني بين عصر الجهود المسيحية ضد المسلمين في إسبانيا وعصر الحروب الصليبية في الشرق لم يكن محض الصدفة أو وليدها، ويكفي دلالة على استناد هذا التوافق إلى غير الصدفة البحتة أن مطلع الحروب الصليبية لا يبعد كثيراً من فتح المسيحيين الإسبانيين مدينة طليطلة سنة ١٠٨٥ م، وأن خاتمتها تقرب من استيلائهم على مدينة مرسية سنة ١٢٦٦ م. ذلك أن الحماسة التي أثارها دعوة البابا إربان الثاني إلى الحروب الصليبية لم يقف تيارها أو ينكص عند جبال البرانس، بل امتدّت إلى إسبانيا المسيحية حتى شملها كلها بحارته التي عمت أوروبا جميعاً. وبذا ارتفعت درجة التعصب الإسباني المسيحي إلى مستوى عال ثابت بعد أن بدت أحياناً تلو أحيان في هبوط ملحوظ، بسبب التبادل الحضاري السالف بين الجانبين في إسبانيا. وأعقب ذلك الارتفاع في درجة التعصب الإسباني المسيحي نشاط جديد في ميادين النضال بين المسيحيين الإسبانيين والمسلمين. فدخلت فئات من الفرسان الفرنسيين والألمان والإيطاليين في جيش ألفونسو السادس ملك قشتالة، وأسهمت في الاستيلاء على طليطلة سنة ١٠٨٥ م. كما وصلت فئات من المغامرين الإنجليز والألمانيين إلى غرب أسبانيا في طريقهم للاشتراك في الحملة الصليبية المعروفة بالثانية. وتجمعت هذه الفئات الثانية في نهر التاجة، وعصفت بمدينة لشبونة سنة ١١٤٧ م. وقدمتها هدية إلى ألفونسو هنريك. أول ملوك البرتغاليين في العصور الوسطى. وفي مملكة أراجونة. وفي مملكتي قشتالة والبرتغال كذلك، انتشرت الطائفة الديرية السسترشيانة^(١) التي دعا إليها القديس برنارد من دير الذي أقامه لنفسه في كليرفو^(٢)، فأسست أديرة سسترشيانة إسبانية كثيرة. على طول

(١)، (٢) نشأت هذه الطريقة الديرية أواخر القرن الحادي عشر بمدينة سيتو (Giteaux) بأواسط فرنسا الحالية، وهي (Cistercium) في صيغتها اللاتينية لأصنية، ومن هذه الصيغة اللاتينية جاء الاشتقاق الوارد بالمتن. وانضم برنارد إلى هذه الطريقة أول عهده بأخيه الديرية، ثم أسس لنفسه ديراً تابعاً لنظامها بمدينة كليرفو (Clairvaux) شمال سيتو سنة ١١١٥ م، وأضحى هذا الدير بفضل حماسه وتنسكه أعظم الأديرة السسترشيانة في العصور الوسطى. راجع كذلك ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب، ص ٢١٧. زيادة.

الأطراف الفاصلة بين المسلمين والمسيحيين في إسبانيا ، لتكون طلائع للمسيحية في حروبها ضدّ الإسلام . وانضمّ إلى السستريشانيين الإشبانيين ثلاث من أربع طوائف دينية إسبانية جمعت بين الديرية والحنديّة ، وهي كالاترافا وألكانتارا وإيفورا (Calatrava, Alcantara, Evora) ، فأمدت هذه جيوش الإشبانيين المسيحيين في حروبها المشكّة الاشتعال بجند قاموا بهجمات خاطفة على المسلمين . وللقيام بمثل هذا العمل تكوّنت طائفة شانتياجو ، وهي تختلف عن قريناتها من الطوائف في طريقة نشأتها وسعة شهرتها .

وبينما استمدّ المسيحيون بشمال إسبانيا روحاً جديدة من الحماسة العامة التي أثارها الحركة الصليبية ، تغيرت أوضاع المسلمين بجنوب شبه الجزيرة تغيراً كلياً مفاجئاً ، بسبب ما تدفق على أرضهم من هجرة في موجتين متتاليتين من شمال إفريقيا . وحملت هاتان الموجتان إلى إسبانيا الإسلامية — عبر جبل طارق — جموعاً من البربر الذين لم يفقلوا شيئاً من حماسهم الإسلامية وشجاعتهم الأولى في فيافي الصحراء الكبرى ، على حين استرخت حماسات العرب الأندلسيين في دفع الفردوس الدنيوي الذي أنشأوه لأنفسهم في قرطبة .

تفصيل ذلك أن العرب الأندلسيين استنجدوا بالموجة الأولى من أولئك البربر الأقوياء — وهم المعروفون باسم المرابطين — فجاءوهم جموع صاخبة وأنجدوهم ، ثم ما لبثوا أن سيطروا على جميع القبائل العربية الأندلسية التي طالما تنافست فيما بينها ، طمعاً في أفراد واحدة منها بالسيادة على إسبانيا الإسلامية . وعلى يد يوسف بن تاشفين سلطان المرابطين تلقى بطل طليطلة المسيحي — وهو ألفونسو السادس ملك قشتالة — ضربة قاصمة في معركة الزلاقة (zallaca) ، يوم الثالث والعشرين من أكتوبر سنة ١٠٨٦ م ؛ وتخلّى المسيحيون للمسلمين في أشهر معدودة عن كثير من البلاد التي استغرقوا في الاستيلاء عليها بضع سنين . ولو أتاححت المقادير للمرابطين أن يوطدوا مراكزهم في إسبانيا ، لبقيت هذه البلاد في أيدي المسلمين بعيدة عن كل عدوان مسيحي لعدة قرون . غير أن موجة ثانية هبطت إلى إسبانيا من صياصي جبال الأطلس ، وتلك هي موجة الموحدّين الذين فاقوا المرابطين الصحراويين في العنف والبأس والقسوة ، والترمّت في الدين . واستولى أولئك الموحدّون أولاً على مراكش ، ثم انتالوا إلى إسبانيا ، فأخضعوا المرابطين لحكمهم ، وما زالوا حتى دفعوا تيار الزحف المسيحي مسافة بعيدة إلى وراء ، أواخر القرن الثاني عشر

الميلادى ، وسحقوا جيشاً مسيحياً بقيادة ألفونسو الثامن ملك قشتالة فى وقعة الأرك (Alarcos) ، سنة ١١٩٥ م . ودلّت هذه الوقعة — كما دلت وقعة حطين ثمان سنين قبلها بفلسطين — على مبلغ النقص الذى ران على جهود أوروبا المسيحية فى حروبها فى الشرق أو الغرب ضدّ المسلمين .

غير أن التزمّت الذى انتصف به الموحدون — والمرابطون قبلهم — لم يخلُ من فائدة مسيحية جاءت عن غير قصد ، وعادت على إسبانيا المسيحية والعالم المسيحي كله بمختلف النتائج الراجعة . ذلك أن العلماء من طوائف اليهود والمستعربين الإسبانين — وهم الذين ذاقوا حلاوة الحرية العقلية فى ظلّ الدولة الإسلامية فى قرطبة ، فروا من وجه أولئك البربر القساة اليابسين فى الدين إلى بلاد المسيحيين الإسبانين ، ولقوا من ملكى قشتالة وأرجونة المستنيرين كل إكرام وترحيب . وكان من بين العلماء الذين انتقلوا إلى إسبانيا المسيحية فئة ذات فضل عظيم فى زرع بنور الحياة الفلسفية والتفكير الفلسفى ، مثل ابن رشد وابن ميمون . وثمة فئة أخرى ذات فضل عظيم آخر ، وهو إيصال التراث اليونانى القديم إلى غرب أوروبا عن طريق ترجمته من اللغة العربية إلى اللاتينية ، فأدّت بذلك عملاً متواضعاً بالمقياس إلى الجهود الأوربية فى العصور الحديثة . وعكفت هذه الفئة الثانية على تأدية هذا العمل فى رضى وقنوع ، وهو على أية حال ليس بالعمل الضئيل ، بل هو رياضة عقلية ذات أهمية كبيرة فى مرحلة المعرفة التى بلغتها أوروبا فى العصور الوسطى . ولذا ينبغى أن يعدّ من أحقّ مؤهلات ألفونسو السادس لمكانته فى التاريخ الأوربى أنه شجع يهود طليطلة على تكريس جهودهم لهذا العمل العظيم وسمح لهم بالعيش الآمن فى هذه المدينة التى ظلت حافظة طابعها الشرقى الإسلامى ، رغم عودتها إلى حكم المسيحيين الأوربيين .

وما يشيد هنا بمقام البابا إنوسنت الثالث ، وبصيرته السياسية النافذة فى شئون أوروبا ، أنه لم يترك فرصة إلا انتهزها لدعوة الممالك المسيحية الصغيرة بإسبانيا أن تطرح عداواتها جانباً ، وأن تحزم قواتها فى حركة تكسح المسلمين من البلاد الإسبانية . ونجحت جهود البابا إنوسنت فى هذه الناحية أكبر نجاح ، إذ اتحدت أرجونة ونافار وقشتالة تحت لواء ألفونس الثامن ، ودلّت على فوائد الاتحاد ولو إلى حين قصير . بانتصارها العظيم فى وقعة العقاب (Las Navas de Tolosa) ، يوم السادس عشر من شهر يولييه سنة ١٢١٢ م ، وهو

الانتصار الذى ضمن رجحان الكفة المسيحية ضدّ المسلمين فى إسبانيا العصور الوسطى . ثم أعقب ذلك أربع وخمسون سنة هى فى مجموعها أشدّ السنوات وأعظمها فى التاريخ الحربى الإشباني . إذ تتابعت فيها الانتصارات المسيحية بعضها تلو بعض ، بقيادة جيمس الأول ملك أراجونة والقديس فرديناند ملك قشتالة . واصطبغت هذه الانتصارات بصبغة صليبية عامة . فوقعت بلنسية وجزر البليار فى أيدي جند الأرجونيين . على حين دانت قرطبة وأشبيلية وجيان وقادس ومرسية لفرسان قشتالة ، وبذا أضحت أسبانيا كلها سنة ١٢٦٦ م فى قبضة المسيحيين وحظيرة الكنيسة الكاثوليكية ، ما عدا غرناطة التى ظلت قابضة فى حى جبالها الشاهقة المانعة نيفاً ومائتين من السنين .

عند ذلك — لا قبله — هدأت نائرة الحروب التى ظلت مشتعلة النيران خمسمائة من السنوات ، وهى حروب كانت كلها إغارات خاطفة ، وأعمال تخريبية مفزعة ، فى غير خطط منسقة ، أو نظم مستقرة ، أو مؤن مرتبة ، أو أرض سهلة ، بل أرض معظمها جبلى وعر قاحل ، حيث "تهلك الجيوش الكبيرة جوعاً ، وتحلّ الهزيمة بالجيوش الصغيرة سريعاً" ، على قول الخبيرين بفنون القتال . وفى هذه الحروب التى ظلّ عمادها الخيالة الخفيفة ، قلت الوقائع الكبيرة إلا نزراً ، وفى فينات تفصل بينها مساحات زمنية طويلة . ولذا دأبت حركات الخيالة القطلانية على الالتفاف حول جيوش الطوائف الإسلامية لرميها بالنبال ، إبتغاء لإحداث الهرج فى صفوفها ، وإفساد خططها ، وإلحاق الهزيمة بها فى هجوم فاجئ . وفى هذه الحروب كذلك قل المحاربون المخلصون ، وكثر الفارون الهاربون ، ولم يتردّد الفارس الإشباني فى الرحيل عن ميدان القتال إذا هو علم أن الأسلاب المنتظرة لن تكون وفيرة . أو مكافئة لجهوده . ونتج عن هذه الحروب — التى دارت رحاها المتعثرة فى مواضع متباعدة — نتائج ذوات أثر عميق فى المجتمع القطلاني ، إذ هجر القطلانيون قراهم وأراضيهم الزراعية خوفاً من عادية المسلمين ، فتكدّسوا فى المدن المسوّرة ، وأقاموا بها نظماً شعبية ، من حكم ذاتى واستقلال اقتصادى . وفى هذه المدن غدا راعى الغنم أهمّ من فلاح الأرض ، والحضرى أنفع من القروى ، والجندي والقسيس أكثر فائدة من التاجر والصانع . والواقع أن سرّ احتقار الإشباني للزراعة . واعتقاده الراسخ أن الذهب هو الثروة الحقيقية الوحيدة ، يرجع فيما يرجع إلى عهد الحروب الإسلامية المسيحية ، لاسترداد إسبانيا من المسلمين ، لأن هذه الحروب

أضافت إلى صعوبات حرق الأراضي الهضبية الجذباء بإسبانيا الوسطى صعوبة جديدة ، بما أحدثت من خوف وقلة أمن بين الفلاحين .
وفي أثناء هذه الحروب التي اضطبغت بصبغة صليبية عامة ، بدا كأن في وسع إسبانيا المسيحية أن تستبدل اختلافاتها الفاصمة بين دولها المتعددة بوحدة



إسبانيا الإسلامية

شاملة لشبه الجزيرة كلها ، وأن تجعل من وقعة العقاب درساً مفيداً ، وأنه إذا استحالَت الوحدة فليكن نوع من الاتحاد المسيحي في حيز الإمكان . غير أن واحدة من الدول المسيحية الإسبانية لم تغتنم هذه الفرصة ، بل ذهب كل من ممالك البرتغال وقشتالة وأرغون ونافار في سبيله المستقل ، واتبع كل منها هواه الخاص ومنفعته الخاصة ، وتلهى بالفتن الداخلية والمطامع الخارجية عن التفكير في خطة

لوحدة إسبانية أو اتحاد أيبيري . ومن الأدلة على ذلك أن نافار الممتدة على جانبي جبال البرانس فضّلت أن تكون ضالعة مع فرنسا ، وأن أرجونة ضلعت مع صقلية ونابلي وسردينيا وجزائر البليار ، وانصرفت إلى تنمية متاجرها في البحر الأبيض المتوسط ، وتوثيق علاقاتها الثقافية والتجارية المتنوعة في إقليم پروقانس بفرنسا ، لا إلى الاستيلاء على غرناطة الإسلامية ، وهي التي لم يفصلها عنها سوى مرسية التابعة لمملكة قشتالة ، ولا إلى التدخل في شئون جاراتها الغربية ، أي مملكة قشتالة . أما البرتغال فقامت على ساحل المحيط الإطلنطي مقام أرجونة على ساحل البحر الأبيض المتوسط ، والقياس مع الفارق ، إذ بدت ميناؤها لشبونة أقل تجارة من برشلونة ، كما بدت البرتغال نفسها خلف الجبال المحيطة بها كأنها مولية ظهرها لإسبانيا الوسطى ، أي قشتالة ؛ وبسبب هذه الجبال المانعة ظلّ البرتغاليون والقشتاليون بمعزل بعضهم عن بعض إلا قليلا ، وذلك برغم ارتباط البرتغال أحيانا كثيرة برباط المصاهرة مع أسرة قشتالة الملكية .

وفي وسط هذا المعترك الأيبيري الواسع ، وقفت قشتالة منزلة بهضبها عن جميع جاراتها ، شاذة عليهم ، لكنها خاضعة لسيطرة كنسية شديدة ، جاهدة قدر استطاعتها أن تهضم فتوحاتها المتتالية ، وأن تتمثل ما خلفته حروبها الطويلة ضدّ المسلمين من عبء ثقیل ، وهو طوائف الهيئات الدينية العسكرية ذوات الضياع الزراعية الهائلة ، ومظاهر السيطرة الكنسية الهائلة ، فضلا عن اليهود والمسلمين والمستعربين الذين لم يعودوا ذوى موضوع في دولة غدت في غير حاجة لوجودهم ، بل عادوا من المغضوب عليهم وسط أمة أرستقراطية متغترسة بأسلة ، مزهوة بما أدّته للمسيحية من خدمات ضدّ المسلمين . غير أن ملوك قشتالة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر الميلادي لم يكونوا كفاً للنهوض بأعباء الحكم في دولة هذه مشكلاتها وصعوباتها ، بل بلغ من سوء الإدارة وفساد الحكم في قشتالة على عهد أولئك الملوك أن الأداة الوحيدة لحفظ الأمن في البلاد اقتضت على عصابة من الطوائف (Hermandad) . ومع هذا كله لا يستطيع الباحث في مظاهر الحياة القشتالية ولغتها وآدابها وفنونها إلا أن يجد كثيراً مما يوجب الالتفات ، فضلا عن الإعجاب بوجوه النشاط التي تقلبت فيها الأمة القشتالية خلال هذه السنوات ، مثل تدرج اللغة بين الخاصة نحو الكمال ، ووفرة الأغاني المنظومة والقصص المنشورة التي امتلأت بأخبار الفروسية (Libros de Caballeria)

وانعكست على صفحاتها أحوال طبقة الفرسان وأخلاقها ومستويات سلوكها ، ومثل الكتدرائيات الشاهقة السامقة التي بنيت على الطراز المعروف باسم الطراز القوطي ، وأشرف على بنائها مهندسون فرنسيون . ولكن كيف يستقيم لمؤرخ أن يدرس تاريخ قشتالة على عهد الملك بطرس الغشوم (١٣٥٧ - ١٣٦٧ م) ، حين جرىء بالفرنسيين والإنجليز للتدخل في حرب أهلية بين الملك وإخوته ، أو يتتبع الصخب أيام أخلافه الثلاثة ، ليمهد منها تمهيداً تاريخياً لعصر العظمة الذي اشتهرت به قشتالة في ميدان السياسة . الواقع أن قشتالة ، أو إسبانيا على وجه التعميم - من باب إطلاق الجزء على الكل - ، لم تستمد عظمتها من صاحب الاضطرابات الطائفة ، بل من هادىء الدراسات الجغرافية التي عكفت عليها طائفة مغمورة معظمها من اليهود العارفين برسم الخرائط في قشتالة وجزيرة ميورقه ، ووضعت بذلك جميع القواعد العلمية المؤدية لتأسيس إمبراطورية إسبانية فيا وراء البحار .

وبعد ، فمن الحق أن يقال هنا إن العبقرية العربية لم تسهم إلا نصيباً محدوداً في حضارة إسبانيا الإسلامية في العصور الوسطى ، لأن الفاتحين المسلمين الذين مكنوا للعرب والترك والبربر في إسبانيا لم يفتحوا بلاداً همجية مجدبة ، بل بلادا سكنها الرومانيون قروناً بعد أن نظموها تنظيماً بقيت آثاره واضحة المعالم ، رغم ما أصابها من صدمة الجرمانيين - الونداليين والقوطيين الغربيين والسويقيين^(١) وغيرهم ، منذ القرن الرابع الميلادي . وفي محيط هذه الحضارة الرومانية الجرمانية التليدة جاء الفاتحون المسلمون بتيارات فكرية عذبة من دمشق والقاهرة وبغداد ، فأدخلوا اللغة العربية وآدابها في إسبانيا ، ونشروا القرآن في بلادها ، وأضحوا سبيل الوصل مرة أخرى بين أوروبا ومنابع العلوم والفنون في الشرق ، حين سُدَّتْ سبل الاتصال بين الغرب والشرق . على أن سر قوة العرب هو أن حضارتهم لم تكن عنصرية بل دينية ، وأنهم برغم ما اشتهر عنهم من مغالاة في الترف لم يبلغ بهم العناد أن يجعلوا لأنفسهم سيادة على سائر المسلمين بإسبانيا . ولذا لم تأت الهجرات الإسلامية الجديدة إلى إسبانيا من العرب أهل شبه الجزيرة العربية ، بل من البربر سكان إفريقية الشمالية ، كما أن النساء والحواري اللائي عمرت بهن قصور الأمراء العرب في إسبانيا لم يأتين من بلاد العرب ، بل من أقاليم إسبانيا المسيحية التي دأب المسلمون

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١٥ - ٤١ . زيادة .

على غزوها مرتين سنوياً ، من أجل الرقيق والمال . ومن هذا يتضح أن النقاء العنصرى لم يكن مما استهدفه أو سعى إليه الفاتحون المسلمون ، إذ تزوجوا من الإسبانيات ثيبات وأبكاراً ، واستخدموا أطباء من اليهود ، ولم يحجموا عن استجلاب مهرة الفنانين والصناع البيزنطيين لزخرفة مساكنهم وقصورهم الباذخة ، كما اعتمدوا فى زراعة الأرض على طبقة الفلاحين الوطنيين الذين ترجع أصولهم - فى الأندلس على الأقل - إلى أيام الدولة الرومانية فى إسبانيا .

أما إسبانيا المسيحية - وهى بلاد غنية بكنائسها وأديرتها البديعة ، فبدت إقليماً فرنسياً من حيث عمارتها وفنونها المعمارية . ومرجع ذلك أن الأديرة الإسبانية سارت وفق الطريقة الكلونية ^(١) منذ القرن الحادى عشر الميلادى ، ثم خضعت فيما بعد للطريقة اليسترشيانية ^(٢) ، وكلتاهما فرنسى . ولذا كانت جميع العماير الدينية الإسبانية فرنسية الطراز ، ما عدا عماير قشتالة ذات الطرز البيزنطية واللومباردية . الواقع ان الكاتدرائيات العظيمة فى مدن برجوس وطليلة وليون بُنيت على طرز فرنسية ، بأيدى فنانين فرنسيين ، ولم يسهم الإسبانيون فى بنائها إلا بدعوة أولئك الفنانين الفرنسيين إلى إسبانيا ، وبنفقات البناء . وعلى الرغم من ازدياد هذه العماير الإسبانية فى العصور الوسطى ، لم يلمع المهندسون الإسبانيون فى ميدان العمارة إلا نهاية القرن الخامس عشر الميلادى . وفى فنون الزخرفة - وهى النقش والتذهيب وعمل الزجاج الملون والتصوير - رضى الإسبانيون فى غير غضاضة أو مرارة أو حياء أن يتركوا ميادينها للفنانين الأجانب ، حتى إذا غدت مدريد (التى لم تكن سوى قرية لاجتماع هواة الصيد فى العصور الوسطى) عاصمة لمملكة ذات إمبراطورية عظيمة فيما وراء البحار ، أمعن ملوكها الهابسبورجيون فى دعوة الفنانين الأجانب ، واجتذابهم إلى إسبانيا بمختلف الإنعامات الملكية وغيرها من وسائل الإغراء ، للإقامة حول البلاط الإشبانى . وبذا توفرت النماذج العالمية للإسبانيين فى بلادهم ، لينسجوا على منوالها حسبما تثيره فى نفوسهم بدائع المصوّر الإيطالى تيشيان (Titian) فى مدريد ، أوائل القرن السادس عشر الميلادى ، وفنانة المصور اليونانى الأصل إلجريكو (El - Greco) فى طليطلة ، أوائل القرن السابع عشر الميلادى . غير أن نهضةً إسبانيةً واسعة فى فن التصوير لم تظهر أو تنمو ، وربما كان مرجع

(١) انظر ما سبق هنا بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢١٦ . زيادة .

(٢) انظر ما سبق هنا بهذا الفصل ، ص ٣٩٠ ، حاشية ١ . زيادة .

ذلك احتقار الإسبانيين لريشة المصوّر وفرجونه وقماشه وألوانه ، أو لرخص أثمانها ؛
أو ربما كان مرجعه غلبة التدينّ القاتم والصرامة الدينية على مزاج الإسبانيين ،
مما جعل التصوير صالحاً عندهم لمواضيع معينة فحسب ؛ أو ربما كان مرجعه
أن إبداع الفنون في بلد من البلاد - كائنة ما تكون - لا يتأتى إلا حيث تتوفر
حرية الفكر والخيال . ولذا كان المصور الإسباني فلاسكويز (Velasquez)
فلتة من فلتات الزمن ، وهو على أية حال لم يدعُ إلى مذهب خاص أو مدرسة خاصة
في التصوير ، ولم يتقيد بتقاليد السابقين أو نظرياتهم في صوره ، بل صوّر ما رأى
يعينيه ، في غير زيف أو رمزية أو مبالغة ، وعاش في فنه وعصره (١٥٩٩ -
- ١٦٦٠ م) وحيداً بين الإسبانيين .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Altamira y Crevea, (R.) : Historia de Espana y de la Civilizacion Espanola. 1902.
- Cambridge Medieval History. Vol. VI Chap. XII.
- Dozy : Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la Conquête de l'Andalousie par les Almoravides .1861.
- Havelock Ellis, (H.) : The Soul of Spain. 1908.
- Lomis Bertrand and Charles Petrie : The History of Spain. 1934.
- Madariaga, (S.) : Spain. (Nations of the Modern World Series). 1930.
- Merriman, (R.B.) : Rise of the Spanish Empire. (London, 1918-1925).
- Tyler, (R.) : Spain, A Study of her Life and Arts. 1909.

الفصل الرابع والعشرون

روسيا والعصور الوسطى

عزلة روسيا - الجاليات اليونانية القديمة بها - وصول الشماليين نهر دنيبر - الزعيم الروسي فلاديمير والديانة المسيحية - أثر الكنيسة البيزنطية الأرثوذكسية في روسيا - أعمال الشماليين - غزو المغول روسيا - حكم مغول القبيلة الذهبية وآثاره الباقية - موسكو وأدواؤها العظماء - ظهور دولة لتوانيا - هزيمة المغول في وقعة كُوليكوفو ، سنة ١٣٨٠م - مولد الأمة الروسية - إيثمان الكبير (١٤٦٢-١٥٠٥) - التراث البيزنطي في الحضارة الروسية .

* * *

ظلّ سكان السهوب والبراري الروسية^(١) على فطرتهم الهمجية الأولى، طوال العصور الوسطى وما تلاها من العصور، فعاشوا عيشة بعيدة عن الأفكار والمثل والظواهر الحضارية التي شكلت حياة الشعوب اللاتينية والتبوتونية . ففي هذه السهوب والبراري الأوربية الآسيوية . لم يكن ثمة متسع للفلسفة اللاتينية القديمة، أو الفلسفة الإسكولائية (المدرسية) التي أنجبتها العصور الوسطى ؛ ولم يكن ثمة مكان لشبه ما نشأ بغرب أوروبا في تلك العصور من جامعة باريس أو برلمان وستمنستر . ثم إن الحركات الكبرى التي هزت غرب أوروبا لم تعنِ روسيا في قليل أو كثير ، فلم يعرف الروسيون القابعون في بلادهم البعيدة شيئاً من حوادث النزاع والتخاصم فيما بين البابوية والإمبراطورية ، وهي حوادث اشتعلت خلالها وبسببها جذوة من

(١) من الضروري لفهم موضوع روسيا في هذا الفصل أن يدرك القارئ أولاً أن لفظ روسيا لم يوجد في لغة من اللغات الأوربية أو غيرها ، للدلالة على البلاد المعروفة الآن بهذا الاسم ، إلا إبان القرن التاسع الميلادي ، وأن المؤلف استخدم لفظ روسيا تجوزاً فيما كتب عن أحوالها قبل ذلك القرن ، وأن معظم الروسيين أهل روسيا الحالية من الصقالبة ، أو بعبارة أدق من الصقالبة الشرقيين ، تمييزاً لهم من الصقالبة الغربيين الساكنين ما هو الآن بولندا وبوهيميا وتشكوسلوفاكيا . انظر ماسبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١١٥ - ١١٦ . وكذلك ما سبق هنا بصدد الصقالبة، ص ٣٦٧ حاشية ١ ، فضلاً عما يلي هنا في هذا الفصل كذلك . زيادة .

الجدل السياسى الذى تكشف فى ضوءه أصول الدولة وكيانها . ولم يمسس أولئك الروسين كذلك شىء من حركة إحياء العلوم القديمة ، وهى حركة بعثت حياة جديدة فى عقول أرباب الثقافة بغرب أوروبا ، كما لم تمسهم حركة الإصلاح البروتستانتى التى نجحت نجاحها بفضل ملوك أوروبا الغربية وأمرائها ، وغيّرت معالم الكنيسة الكاثوليكية وجغرافيتها . وكما حصى الروسون حياتهم الروسية بعيدين عن الحضارة اللاتينية والدراسات الإسكولائية التى عكفت عليها العصور الوسطى . وكما برئ تاريخهم مما يشبه برلماناً أو جامعة أو أدباً دالاً على جدل سياسى شديد ، أو تحدٍّ جدِّى لبعض التقاليد الدينية اليابسة ، فإنهم ظلوا بنجوة من الحروب الدينية التى ملأت أوروبا الغربية مائتين من السنين . وصقلت الأوروبيين الغربيين وصهرت أخلاقهم صهراً باقياً على مر القرون . والخلاصة أن روسيا ظلت نائمة فى عزلة شرقية ، دون أن تشعر أو تتأثر بتجربة واحدة من التجارب الروحية الحاسمة فى التاريخ الأوروبى العام .

وللجغرافيا نصيب أو بعض نصيب فى تعليل هذه الحال ، فإن روسيا ذات الأرجاء الشاسعة المترامية ، والجو العنيف المزعج ، حيث الجفاف محرق فى شمس الصيف ، والبرد قارص بسبب ما يكسو الأرض من جليد الشتاء ، لم تكن مما تجتذب إليها أحداً سوى أهلها الذين خالوها عالماً مستقلاً بذاته . وأثقلت الطبيعة القاسية أهل روسيا بأعباء جهيدة شاقة لم تدع فى نشاطهم رمقاً لحياة فكرية رفيعة ، أو نظام اجتماعى على المستوى . فمنطقها الغابية لا تثبت القمح ، ومنطقها الزراعية لا تنتج الأخشاب ، ومنطقها السهوية الخضراء سهل غير ذى شجر أو زرع ، ما عدا حشائش للرعى فى الربيع . ولذا بات أقصى ما استهدف الروسى فى العصور الوسطى أن ينجح فى تعمير ناحية من أرض واسعة بدت دائماً لاتساعها خالية ، كما بدت لانبساطها اللانهائى مغرية بحركة دائمة . وهى حركة لم يستطع إيقافها سوى استقرار القنية^(١) (Serfdom) فى الحياة الروسية . أما مدى نجاح الروسى فى الوصول إلى هذا الهدف ، فتقديره متروك للخيال والتخمين ، لأن جميع ما أسهمت به الأيدي العاملة بالمسحاة والفأس والقالاة فى أرض روسيا لم يسجله

(١) انظر كويلاند: الإقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا، ص ٢٤ . (مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٤٦) . زيادة .

التاريخ ، بل تتابعت من هذه الأيدي العاملة أجيال تلو أجيال دون أن تترك أثراً في مؤلفات المؤرخين . ومن البديهي أن كلامنا من هذه الأجيال لم يخلُ من عمل دائب في إزالة الغابات ، وبناء المدن والقرى من الأخشاب (لانعدام الأحجار) في هذه الأراضي غير الصخرية ، ثم احتراق هذه المدن في عاصفة من العواصف الجوية ، ثم بناؤها من الأخشاب مرة أخرى ، وذلك على حين عكف عمال الغابات على نقل ما يقطعون من شجر في مياه الأنهار الجارية ، وزرع الفلاحون أرضاً خصبة سوداء هي مخزن الغلال منذ العصور القديمة ، وعلى حين راح الرعاة يمحرون فوق ظهور جيادهم الصغيرة في مائج الحشائش السهوية بمجنوب روسيا ، كما راح لإخوانهم في روسيا الشمالية يشنون حرباً على الذئاب والدببة والسمور . هكذا حبسى الروس الأولون بصارعون الطبيعة التي جعلت منهم قوماً مزاجه الخشونة والعنف . وسرعة الانفعال وحدة الطبع ، وهكذا حيوا وتكاثروا ، وكدوا واعتكوا ، وماتوا في دامس الظلام المجهول ، قبل أن يدركوا مطلع الفجر من تاريخهم .

ثم تمخض هذا الظلام الدامس عن فجر التاريخ الروسي يطلع حول شواطئ البحر الأسود ، حيث توطنت مجموعة من الجاليات اليونانية القديمة ، وهي أولبيا وخرسون وبنتيكايوم وغيرها . وخلقت هذه الجاليات حركة تجارية واسعة ونشاطاً فنياً زاهراً ، كان لهما أعظم أثر في حضارة القبائل السيشية الساكنة قبل أولئك اليونانيين حول شواطئ البحر الأسود في العصور القديمة . على أن هذه الحضارة التي أبنعت ثمانية قرون (من ٤٠٠ ق . م إلى ٤٠٠ م) . ودلت بدايتها المختلفة على مبلغ ذوقها الرفيع ، لم تلبث أن غدت أثراً بعد عين ، بسبب ما غلب عليها من غزوات المتبريرين . وكيف يكون الأمر غير ذلك ، بل كيف يكون من المحتمل أن تظل الثقافة اليونانية على حالها بخرائب هذه المدن اليونانية المبعثرة على شواطئ البحر الأسود ، أو أن تبقى بها مدرسة يتعلم فيها الناشئة من اليونانيين والسيثيين ملاحم هوميروس وخطب ديموسثينيز ، بعد أن تهدمت هذه المدن تحت أقدام السارماتيين والآفاريين والقوطيين والهون ، وهم في طريقهم نحو غرب أوروبا . الخلاصة أن ما كان متوقفاً حدوثه من اتصال الروسيين بأدب اليونانيين الأقدمين وفنونهم لم يكد يحدث حتى تلاشى فجأة ، ولم يتجدد بعد ذلك أبداً .

يتضح من ذلك أن الروسيين في العصر الحاضر لا يدينون إلى هذه الجاليات اليونانية القديمة بشيء سوى ما تبقى من آثار هذه الجاليات في المتاحف الروسية ،

وأن العوامل التي يرجع إليها الفضل في أول نوع من الحكومة بين الروسيين (والمقصود بذلك الروسيون الصقالية) لم تكن يونانية بل اسكنديناوية ، وهذه لم تأت عن طريق سواحل البحر الأسود . بل عن طريق الأنهار العظيمة الواصلة بين البحر البلطي والبحر الأسود . ففي ثانيا هذه الأنهار ومنحنياتها — ولا سيما نهري نيفاودنيبر — بنى السكندناويون محطات تجارية لأنفسهم . منذ القرن الأول الميلادي ، فيما يبدو . واستقرت حول هذه المحطات جموع روسية عظيمة في القرن الثامن الميلادي ، بعد طول تنقل من جنوب روسيا إلى وديان نهر دانوب ، ومن وديان نهر دانوب إلى جبال الكربات . وأخذت هذه الجموع الروسية منذئذ تتجرع مع السكندناويين في منتجات الغابات ، من الفراء وعسل النحل وشمع العسل . ثم تطورت هذه المحطات إلى مدن ذات حكومات مستقلة ومتاجر ضخمة ، وبسبب ما تعرضت له متاجر هذه المدن من عادية القبائل التركية والخزرية والمجرية كذلك ، وبسبب ما تعرضت به المدن نفسها من منازعات داخلية ، استدعت حكوماتها السكندناوية فئات من شجعان الشماليين السويديين السكندناويين ، لتقوم على الأمن وجمع الضرائب وحماية القوافل^(١) .

ومن هذه الفئات يبدأ تاريخ روسيا . وأهمها فئة الزعيم رورك (Ruric) وأتباعه الذين سباهم جيرانهم الأصليون في فنلندا قبل رحيلهم جنوباً باسم روتسي^(٢) ، وهي تسمية لصقت بهم وصارت علماً جغرافياً على جميع البلاد التي حلوا بها منذ سنة ٨٦٢ م ، وتلك عدا تسميتهم باسم الفارانجيين^(٣) ، ومعناها الأحلاف في لغات الشماليين . ذلك أن جميع الأنهار والبحيرات الممتدة بين البحر البلطي والبحر الأسود لم تلبث أن غدت في قبضة أولئك الشجعان الشماليين ، بعد أن ثبتوا أقدامهم في نوفجورود وكييف ، وأسسوا تجارة واسعة في الرقيق ، وبنوا أساطيل وجيوشاً وإمارات ، وظلوا يغامرون بأنفسهم أقصى مغامرة في جرأة منقطعة النظير ، فأغاروا

(١) عبارة المؤلف هنا على أهمية موضوعها شديدة الاختصار ، مما لا يحتمل تعويضه في حاشية طويلة ، ولا سبيل إلى شرحه إلا بالفرادة لوسعة في (Camb. Med. Hist. Vol. IV. pp. 199 et seq.) . وغيره من المراجع الخاصة بأصول تاريخ روس . زيادة .

(٢) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١١٥ . زيادة .

(٣) انظر (Camb. Med. Hist. Vol. IV p. 199) ، لمعرفة تفاصيل مجيء الفارانجيين إلى ما هو الآن روسيا الحالية . زيادة .

على القسطنطينية ست مرات^(١) ، كما حاولوا فتح بلغاريا . ورضى الصقالبة منذ القرن التاسع أن يطلق عليهم اسم روتسى ، نسبة إلى أولئك الشجعان الذين حماوا المتاجر السويدية عبر الجنادل السبعة في مجرى دنيبر الأدنى ، وساعدوا الصقالبة في تصريف منتجاتهم من العسل والشمع والفراء ، وتجروأوا على الإمبراطور البيزنطى في عاصمته القسطنطينية ، ونالوا بحد السيف من هذه العاصمة المتكبرة أنواعاً وألواناً من الامتيازات التجارية . ومن أولئك الشجعان كذلك تعلم الصقالبة مبادئ الحياة السياسية في ظل دولة ، ومنهم كذلك عرفوا فوائد النظام الذى يكتسبه المجتمع من الدين ، بعد أن اعتنقوا معهم المسيحية على النمط الأرثوذكسى البيزنطى ، وهو النمط الذى يجعل الدولة صاحبة السيطرة على الكنيسة .

أما كيف كان دخول المسيحية روسيا فيبدو أولاً أنه تمّ على يد فلاديمير ، دوق كييف (٩٨٥ - ١٠١٥ م) ، وهو سليل رورك ، ويضرب به المثل في الوحشية والشهوانية ، إذ جاء إلى الدوقية فوق جثة آخر لإخوته ، واقتنى من النسوة ثلاثة آلاف وخمسمائة^(٢) . على أن هذا وذاك كله لم يمنع من تسجيله قديساً في عداد القديسين بالكنيسة الأرثوذكسية البيزنطية ، لأن الرجل الذى جعل من كييف مدينة مسيحية ، وجعل من الروسين شعباً على دين المسيح ، زعيم " بغفران ذنوبه ، ما تقدم منها وما تأخر . ويقال فيما يقال إنه تراءى لهذا المتبربر القدير في مرحلة من مراحل حياته الصاخبة أن يفحص لنفسه أصول الديانات الكبرى ، وأنه كره الديانة الإسلامية لالسبب سوى أنها تحرم الخمر ، وقال ، " الخمر لذة الحياة عندنا نحن الروسين ، ولا معنى للحياة عندنا بغير هذه اللذة " ، فلما ردّ عليه أحد الكاثوليكين بقوله " ما يأكل الإنسان أو يشرب دليل على عظمة الله " ، أسكته فلاديمير بقوله " إن آبائنا لم يسيروا على مثل هذا المبدأ " ، ولم يرَ في الكاثوليكية الرومانية ما يغريه بها أو يشتهيه . وعندما أجابه أحد اليهود فى خجل وحسرة بأن بيت المقدس فى أيد أجنبية ، عقب فلاديمير على إجابته بقوله " لو أن الله أحبك

(١) يرجع اتصال الروسين بالمسيحية إلى أول إغارة من هذه الاغارات وتاريخها سنة ٨٦٠ م .
(Camb. Med. Hist. Vol. IV p. 207) ، ويتنبأ أن تكون العبارات الواردة ها بصدد دخول المسيحية أرض روسيا مفهومة على هذه القاعدة . زيادة .

(٢) راجع (Camb. Med. Hist. IV p. 208) ، حيث ورد أن عدد أولئك النسوة اللافى اختارهن فلاديمير لنفسه ، بالإضافة إلى خمس زوجات شرعيات ، لم يكن سوى ثمانمائة ، وهو عدد أقرب إلى الاعتدال . زيادة .

وآباءكم ما كتب عليكم أن تشتتوا في الأرض . هل تريدنا أن نكون يهوداً ، ليكون مصيرنا مصيركم؟“ . لم يبق لدى فلاديمير بعد ذلك سوى المسيحية الأرثوذكسية ، وكنيستها البيزنطية ، وإيقوناتا المقدسة ، وزخارفها من الفسيفساء . وتراثيها الموسيقية الخاشعة ، ومباخرها الفاتحة بالبخور ، وطيالسها الإكليريكية الفاخرة ، وصلواتها المنظمة ، وطقوسها الجلييلة ، مما حملت أخباره وفود المبشرين البيزنطيين إلى كييف . ثم أرسل فلاديمير وفداً من رجاله إلى القسطنطينية : ليروا رأى العين ما وصل إليه من هذه الأخبار عن طريق السماع ، فامتألت قلوبهم إعجاباً بما شهدوا في أيا صوفيا وصلواتها وقداستها من الجلال ، وكتبوا إلى فلاديمير يشيرون عليه باعتناق المسيحية الأرثوذكسية دون غيرها من الديانات ، فإنهم رأوا المسلمين في بعض بلادهم ولم تعجبهم حالهم ، وهذا هو نص ما كتبوا لدوق فلاديمير : ”ومررنا في طريقنا إلى القسطنطينية ببلاد البلغار المسلمين (شمالى بحر قزوين) ، ورأينا كيف تكون صلاتهم في معبد يسمونه مسجد ، حيث يقفون صفّاً صفّاً ، ثم يركعون ويسجدون ويجلسون ، حتى إذا انتهوا من الصلاة تلفقوا يمنة ويسرة كأنما مسهم الجن ، وحياتهم خلو من البهجة ، طافحة بالكآبة والرائحة ، ولاخير في دينهم^(١) . ولما ذهبنا إلى الألمانين رأيناهم يحتفلون الاحتفالات الكثيرة في معابدهم الوثنية غير أننا لم نشهد بينهم ما يثير روعة أو^(٢) جلالاً . ثم ذهبنا إلى القسطنطينية حيث أرشدنا البيزنطيون إلى عمائر شاهقة يعبدون فيها ربهم ، فلم ندر إلى السماء ارتفعنا أم ظللنا على وجه الأرض“ .

وإذ استقر رأى على اعتناق المسيحية الأرثوذكسية عكف فلاديمير على إنفاذ قراره في سرعة القرصان المتجبر ، فأمر ونادى بالدعوة إلى المسيحية بين الروسيين ، واستولى على مدينة خرسون وهى درة في تاج الإمبراطورية البيزنطية طامسا طمعت فيها دوقية روسيا . وهدّد فلاديمير صديقه الإمبراطور باسل الثانى المقدونى بتخريب خرسون وإبادة أهلها عن آخرهم ، إلا أن يزوجه

(١) تدل هذه الإشارات الساذجة على بساطة أولئك المبعوثين الروسيين ، وعدم إدراكهم لشيء من المعنويات العالية في الدين ، على عكس المباخر والطيالس والزخارف التى استولت على عقولهم ومشاعرهم ، لأنها مراثيات مادية . زيادة .

(٢) يبدو من هذه العبارة أن المبعوثين الروسيين زاروا ألمانيا الشرقية ، حيث كانت الوثنية - لا الكاثوليكية المسيحية - سائدة بين الألمانين الشرقيين ، وجيرانهم الصقالبة السلافين ، وقتذاك . زيادة .

الإمبراطور من أخته الأميرة آن . وأفلح التهديد ، وتغلبت مصلحة الإمبراطورية على امتناع الأميرة ، وتمّ الزواج بمدينة خرسون سنة ٩٨٨ م ، وتمّ معه تعميد فلاديمير ؛ وبذا صار القرصان الوثني المغامر بعلاً مسيحياً لسلسلة المجد الإمبراطوري التليد . ثم رجع فلاديمير إلى كييف ، وقلبه عامراً بحماسة الحديث العهد بالدين ، فأمر اثني عشر رجلاً من رجاله الأشداد بكسر صم الإله نيرُون ، وهو أحب الآلهة إلى الصقالبة وأوسعها نفوذاً لديهم ، كما أمر بتعميد أهل دوقية روسيا كلهم مرة واحدة في مياه نهر دنيبر ، ووطد النية على أن يجعل كييف مدينة حافلة بالكنائس المسيحية ، بارزة في العالم البيزنطي بروائعها المعمارية .

ولاعتناق المسيحية على النمط الأرثوذكسي البيزنطي الشرقي — لا الكاثوليكي اللاتيني الغربي — أهمية بالغة في تاريخ روسيا . ففي الغرب اللاتيني انفصلت السلطة الكنسية عن السلطة السياسية ، على حين ظلت الكنيسة جزءاً من الدولة في الإمبراطورية البيزنطية . وفي الغرب اللاتيني تولد التفكير في الحرية الفكرية من التصادم بين الإمبراطورية والبابوية ، على حين أن التجربة البيزنطية لم تنتج سوى الرضوخ لمشيئة الإمبراطور . على أن الكنيسة البيزنطية جلبت معها إلى روسيا فوائد كثيرة لا سبيل إلى إنكارها ، من موسيقى دينية وأدب ومعمار بديع ، ومستوى نظم في شئون الحكم ، وآراء ناضجة في القانون الجنائي الذي حفلت به مجموعات جستنيان العظيم وباسل الأول المقدوني ، فضلاً عن قيم أخلاقية عالية ، وهي قيم تتحلّى بها المسيحية كائنه ما تكون كنيستها ، وتختلف تمام الاختلاف عن سائد العرف بين الروسيين قبل أن يصبحوا أرثوذكسيين . ومن الدليل على ذلك أن النضال ضد تعدّد الزوجات في روسيا المسيحية ، وهو نضال طويل عسير ، لم يلق ما لقي من نجاح مجزوء إلا بفضل الكنيسة الروسية الأرثوذكسية وحدها . ونظراً لتأخر الروسيين ثقافياً وقتذاك ، أفادت كنيستها فوائد جمة باضطرارها إلى استخدام اللسان الروسي في صلواتها وقداستها وتراتيلها ، وبذا بدت كنيسة قومية خالصة ، لا فرعاً من كنيسة عالمية . غير أن هذه الفوائد كلفت روسيا ثمناً باهظاً ، وهو عزلتها التامة عن غرب أوربا ، وانفصالها عن الصقالبة الغربيين أهل بولندا وبوهيميا ، فضلاً عن عجز كنيستها — بسبب ما جبلت عليه من خضوع للدولة — عن أن تخلق في روح الأمة الروسية قوة أو رغبة في معارضة استبداد الحكام ، أو التصدي لإنصاف المحرومين والمستضعفين من طبقات المجتمع الروسي ، في العصور الوسطى .

وليس عجباً أن تظل الحال على هذا المنوال في روسيا العصور الوسطى ، ما دام حكامها من سلالة روريك يعتقدون أن الإمارة في الدوقيات الروسية على اختلاف مراتبها إرث لا يتجزأ ، بل يتوزعه أبناء الأسرة الحاكمة على قاعدة السن ، بحيث يكون الأكبر سناً هو الأعظم جاهاً والأوسع سلطاناً ، مما جعل كل توزيع جديد مجالاً لترقيات في الأقدمية بحسب السن ، فضلاً عن ضغائن واختلافات لا انتهاء لها^(١) . ومن هذا يتضح كيف كان من المستحيل أن تقوم بين دوقيات نهر دنيبر دولة ثابتة الأوتاد ، برغم مجيء دوق ياروسلاف إلى عرش الدوقية الروسية في كييف سنة ١٠١٥ م ، وهو الذي اشتهر باسم القانوني .

ثم أعقبت وفاة ياروسلاف القانوني هذا سنة ١٠٥٤ م مرحلة طفحت روسيا أثناءها بحروب متواصلة بين أبناء الأسرة الحاكمة ، من أجل الاتفاق على من هو الأكبر سناً تلك السنة من أولئك الأبناء ليحقق له أن يتولى الإمارة العظمى في كييف . وفي أثناء تلك الحروب انتهك أحد الأبناء حرمة كييف سنة ١١٦٩ م ، ونهبها وخرّبها عامداً متعمداً مع سبق الإصرار ، وهي المدينة ذات الكنائس الأربعمائة . وكل ذلك لأن هذا الابن رأى أن ينقل عاصمة الدوقية من كييف الواقعة على نهر دنيبر إلى مدينة اختارها لنفسه في جوف الغابات التي جاء منها . واسم هذا الابن أندري بوجوليوسكى سوزدال^(٢) ، وهو جدير بشيء من عناية المؤرخين ، لأنه أسس مدينة اسمها فلاديمير ، وهي التي غدت ثمانية العواصم الروسية زمناً ، ولأنه أول شخصية في سلسلة طويلة من الأوتوقراطيين الروسين ، وإليه يرجع الفضل في تركيز الجهود الروسية مرة أخرى نحو الأراضي الطفقسية الخرساء بين الغابات النائية بسهول روسيا الوسطى ، وهي السهول التي طالما ضرب الروسيون الغربيون في مناكبها طلباً للعيش ، بنجوة من إغارات القبائل المتنقلة .

وبسقوط كييف تختتم المرحلة الأولى من تاريخ روسيا ، وهي مرحلة أتم الفارانجيون السويديون أثناءها كثيراً من الأعمال ، على حين أن ما حاولوا إتمامه كان

(١) انظر تطبيق هذه القاعدة بعد وفاة القديس فلاديمير سنة ١٠١٥ م في : (Camb. Med.

Hist. Vol. VII pp. 599-600, 602) . زيادة .

(٢) اسم هذا الابن في (Camb. Med. Hist. VII. pp. 600, 602) فلاديمير ياروسلافيتش ، فضلاً

عن الاسم الوارد هنا بالمتن ، وأخبار مدينته ودوقيته المعروفتين باسمه واردة في كثير من التفصيل في ذلك المرجع . زيادة .

أكثر ، إذ أسسوا دولة روسية عظيمة بتأسيسهم دوقية كييف ، شنوا حروباً عنيفة على البيزنطيين والبلغاريين ، وعلى قبائل البولوفيسيتين أو الكومانيين المتبربريين (Polovesti or Cumans) بجنوب روسيا ، كما شنوا حروباً أشد عنفاً بعضهم ضد بعض . ومع أن النار الإغريقية ردتهم مرة بعد مرة عن البوسفور ، ومع أن سيف الإمبراطور حنا شمشيق (John Zimisces) - وهو جندي من الطراز الأول في عهده - قطعت عليهم آمالهم نهائياً في الاستيلاء على بلغاريا ، فإن ذكرى أعمالهم الحربية الباهرة خلدت في أغاني الصقالبه الروسيين . وليس أدل على هذا العصر الذي غدت فيه عصابات أولئك الفارانجيين مسيطرة على الأنهار وسائر الطرق المائية بغرب روسيا ، وأضحيت فيه كييف عروس المدن الروسية ، من قطعة مشهورة من قصة حروب^(١) إييجور ونصها : " أخى ، ونور عيني ، أنت إييجور . كلانا من ولد سفياتوسلاف ، إليك أخى ، أسرج جيادك القاهرة ، فجيادى سبقتك إلى مدينة كورسك ، وهى على أهبة لخدمتك . ورجالى من أهل كورسك محاربون خيرون بفنون القتال ، رضعوا ألبان أمهاتهم بين قرع الطبول ، وأضجعتهم أمهاتهم في مهاد تخذوها من حديد المعامع ، وألقمهم طعومهم من رءوس الحراب . وهم محاربون يعرفون أفواه الدروب ، ويألفون صياصي الجبال ، أقواسهم متينة ، وجعبات سهامهم مفتحة ، وسيفهم ماضية . فإذا شهدتهم في ساحات الوغى شهدت قوماً يركضون ركض الذئاب الغبراء في البيداء ، ليجعلوا من اقتحام المخاطر تشريفاً لأنفسهم ، وتشريفاً للمجد الذى هو إلههم الأعظم " . الواقع أن أولئك السادة الفارانجيين لم يصبحوا يوماً من الأيام مالكين للأراضى مثلما أصبح إخوانهم النورمانيون بالشمال الغربى من أوروبا ، بل ظلوا إلى آخر حياتهم محاربين وتجاراً في أنواع من السلع الشمالية والرقيق ، واهتبلوا لذلك مختلف الفرض حيثما سنحت برّاً أو بحراً ، وفرضوا أصناف المكوس من الذهب على كل من جرت المقادير بوقوعه في أيديهم من الناس .

وبينا يستنفد بيت رورك قواته في منازعات داخلية بين مجموعة من الإمارات

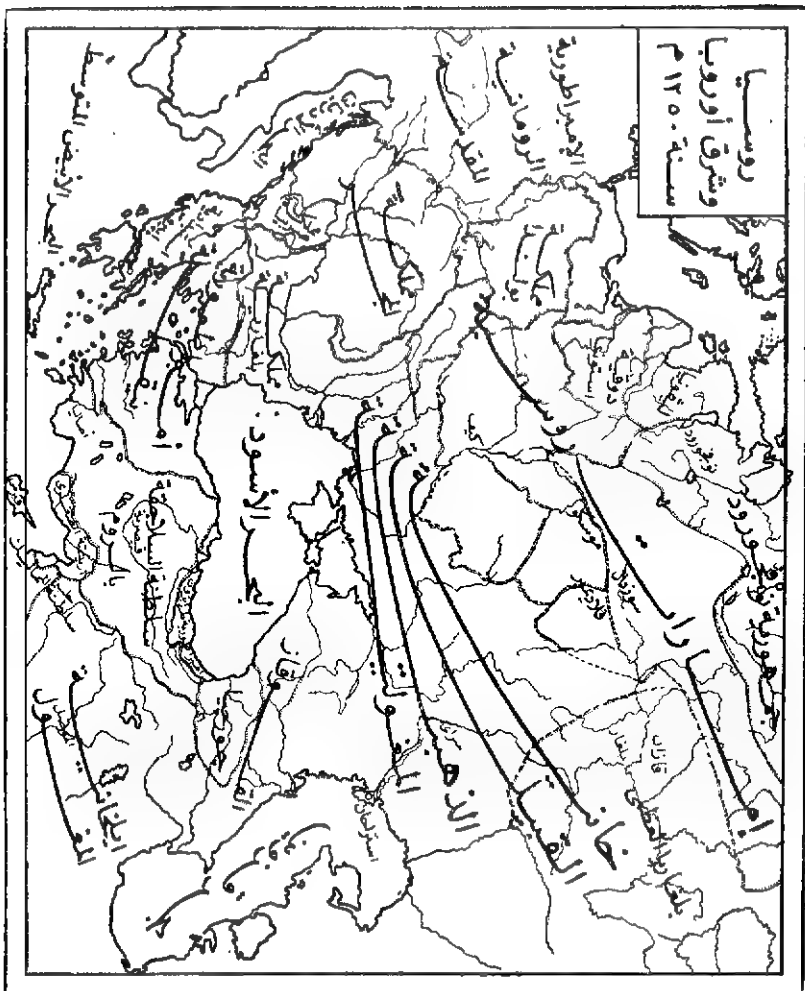
(١) تُعد هذه القصة الشعرية في الأدب الرومى القديم ، وموضوعها حسبما ورد في (Camb. Med. Hist. VII. p. 613) وصف الحروب التى قام عليها أحد أمراء روسيا ضد الكومانيين ، من أروع القصص الشعبية في روسيا ، وهى تفيض حماسة قوية ، وتنمى على الأمراء الروسيين حروبهم الانتحارية التى أقدمتهم عن إغاثة أمير في حربه ضد أعداء روسيا . زيادة .

الروسية المتعادية ، هبط التتار على روسيا هبوط الصاعقة الموجهاء ، ويندر أن يوجد بين الكوارث التاريخية كارثة أعظم — أو أدوم في نتائجها — من مقدم أولئك الغزاة العتاة إلى روسيا ، وهي تحبوت وتنتشر في مشيتها ، نحو الوصول إلى مرتبة دولة ناشئة ، منكوبة بتأصل العداوات بين أدواقها المختلفة . ذلك أن التتار لم يكونوا جمعاً همجاً من برابرة هائمين على وجوههم في ضعف أو هيبة ، أو ذعر أو غير هدف ، بل كانوا جيشاً قوياً منظماً ، عدته نحو نصف مليون من الخيالة الخفيفة المدربة تحت عين إمبراطورية امتدت على عهد مؤسسها چنكيزخان من منشوريا إلى القوقاز ، وتكلف تأسيسها نيفاً وثمانية عشر مليوناً من الرجال والنساء والأطفال ، في مختلف المدن وميادين القتال . ولم يحدث في التاريخ قبل ذلك أن احتلت إمبراطورية من سطح الأرض مساحة تقرب سعتها مما احتلت إمبراطورية چنكيزخان ، ولا كان لإنشاؤها سبباً في مثل الشقاء الإنساني الطامّ اللامّ الذي سببه إنشاء هذه الإمبراطورية التتارية . ولم يحدث قبل ذلك في التاريخ كذلك أن شهدت أوربا جيشاً غازياً من الخيالة ، يبلغ في العدد والمهارة الحربية مثل خيالة باطوحفيد چنكيزخان ، وهو ابن أخى الخان الأعظم — أى الخاقان — أو جطائى الذى خلف أباه چنكيزخان على الإمبراطورية ، سنة ١٢٢٧ م .

ومن البديهي أن روسيا لم تكن كفؤاً أو شبه كفء للالفة الضربات القاصمة التى كالتها هذه الخيالة الغليظة القلب للروسيين ، في غير هودة أو رحمة ، ما دام أمراء روسيا القارانجيون أحزاباً كلمتها متفرقة ، وشيعاً متنازعة متحاربة . ولذا انهارت القروسية الروسية ، واندهرت وانهمزت كلها واحدة بعد أخرى في الجنوب والوسط والشمال الغربى من روسيا الحالية ، عند كالكا (١٢٢٤ م) ، وأوكا (١٢٢٩ م) ، وسيت (١٢٣٨ م) . وغدت جميع المدن الروسية الرئيسة — ما خلا نوفوجرود — طعمة للتيار ، أو ميداناً لنهب الناهبين . ولم يقف سيل أولئك المرعبين أعداء غرب أوربا وحضارتها إلا بعد أن خربوا أقاليم مورافيا وسيليزيا بأوربا الوسطى وألمانيا ، واستولوا على كراكاو (Cracow) ببولندا الحالية ، وپشت (Pesth)^(١) على نهر دانوب ، كما هددوا فينا نفسها أشد تهديد .

(١) هذه المدينة هي أحد الجزئين اللذين تتكون منهما بودابست ، وهي عاصمة جمهورية المجر

روسیا
وشرق أوروبا
سنة ۱۲۵۰م



ويرجع الفضل في تحول التتار من التقدم والهجوم إلى التقهقر والدفاع إلى عدة أسباب يختلف في تقديرها الباحثون ، ومنها موت الخاقان أوجا طاي (١١ ديسمبر سنة ١٢٤١ م) ، وبسالة التشكيين والبولنديين الذين قاوموا الغزاة ما استطاعوا مقاومتهم ، وأحرزوا منهم انتصاراً أو شبه انتصار بعض الأحيان . ومن هذه الأسباب كذلك الروسيون أنفسهم ، لأنهم تلقوا معظم الصدمة في جوف بلادهم ، ودفعوا أكبر نصيب من التضحيات التي لم يكن من دفعها بد لصدة جائحة المغيرين . على أنه يبدو أن السبب الحقيقي هو الجغرافيا ، وأن تخليص أوربا الوسطى من شر التتار يرجع فيما يرجع أولاً إلى ابتعاد أولئك المغيرين المخربين عن قواعدهم وبيئاتهم الأصلية ، فضلاً عن زحفهم الطويل ، في بلاد موحشة مقفرة زادوها بتخريبهم وحشة وإفقاراً^(١) . غير أنه إذا كان من المعروف كذلك أن الإمبراطورية التتارية استحالت أجزاء متنافرة متحاربة منذ وفاة چنكيزخان سنة ١٢٢٧ م ، وأن الخطر التتاري الأعظم أضحي على وجه التعميم معدوماً ، فإن الفرع التتاري الذي أسس منه باطو خان دولة القبيلة الذهبية (Golden Horde) — في سهوب الجنوب الشرقي من روسيا الحالية — بقي مهدداً للروسيين في عقر بلادهم .

ولما تبين من السنين ظلت هذه الدولة التتارية — التي قطعت صلتها بالخاقان الأعظم بالصين ، واعتنقت الإسلام — تهيمن على شئون الروسيين من عاصمتها التتارية سراي الواقعة على المجرى الأدنى لنهر إتل (الفلجا) ، وموضعها قرب ستانجراد الحالية . وسمحت هذه الدولة التتارية الإسلامية لإمارات روسيا ومدنها المستقلة بالعيش حسب تقاليدها وعاداتها الموروثة ، في ظلال تبعية مشينة وخضوع تام . وهكذا هوى أمراء روسيا المسيحيون إلى حضيض الذلة ، فقتلوا إماراتهم بإذن من بلاط الخان ، وذهبوا إلى عاصمته سراي للحصول على خلعه التقليد بالإمارة ، ودفعوا ضريبة سنوية من الفراء والعسل وجزية الرعوس ،

(١) ينبغي أن يضاف إلى هذه الأسباب الكثيرة سبب لا يقل أهمية عنها كلها مجتمعة ، وهو حسبما جاء في (Camb. Med. Hist. Vol. IV. p. 643) هزيمة الفرع التتاري الهولاكي على يد السلطان المملوكي قطز عند عين جالوت قرب بيسان بفلسطين الحالية سنة ١٢٦٠ م . أما أهمية هذا السبب ، فهو أن هزيمة التتار عند عين جالوت ، وهي على مقربة من قواعدهم الآسيوية بالقياس إلى ما وصلوا إليه من أواسط أوربا ، كانت أول هزيمة لقيها التتار في طريقهم الدامي منذ حركتهم الهائلة في جوف آسيا ، ولذا فليست عين جالوت هزيمة حربية فحسب ، بل هزيمة سيكولوجية حلت عقدة الرهبة التي أحدثتها أعمال التتار في جميع البلاد التي امتدت إليها أظفارهم . زيادة .

وأمدوا الجيش الذهبي الإسلامي التتارى بفصائل من المشاة الروسين . ولم يشذَّ عن تأدية ذلك كله أمير من أولئك الأمراء . حتى إسكندر . نفسكى أمير نوفجورود (١٢٥٢ - ١٢٦٣ م) نفسه - وهو صاحب الانتصارات الشهيرة على الفرسان الليثونيين والسويديين والفنلنديين^(١) - فإنه حرص وتوخى أن تؤدى مدينتا نوفجورود وسوزدال^(٢) ما عليهما من الجزية لخان القبيلة الذهبية ..

ومن الطبيعى أن يحدث طول هذه العبودية المحيطة أسوأ الأثر وأعظمه فى المجتمع الروسى ، وهذه المرحلة من تاريخ الروسين هى فى الواقع أصل القطيعة القاطعة الفاصلة بين روسيا وغرب أوروبا ، وأصل التأخر الثقافى الذى لم تستطع روسيا تعويضه حتى العصر الحاضر . وفى هذه المرحلة أقام أمراء روسيا بأقاليم الغابات الصنوبرية الكثيفة فى روسيا الوسطى أشكالا وألواناً من ظلم الاستبداد وغاشمه ، وخذت آخر جذوة من جذوات الحياة الحرة ، تحت أقدام الجبروت الناشئ من اتحاد الكنيسة والدولة . ولم ينبج من المحزنات التى عمّت روسيا المسيحية فى هذه المرحلة سوى الرهبان والقسس الذين أعفاهم التتار من جزية الرعوس ، وبنوا لأنفسهم - فى جو جاهل مشبع بالخرافة والإرهاب - مكانة بلغت من الثراء العقارى والنفوذ السياسى ما لم يبدده سوى زلزال الثورة الروسية ، عقب الحرب العالمية الأولى .

على أن مذلات هذه المرحلة من تاريخ روسيا لا يرجع إلى قيام دولة القبيلة الذهبية التتارية بين أضلاع البلاد الروسية فحسب ، بل يرجع كذلك إلى فئة من الأمراء الروسين . والواقع أنه لا يوجد فى تاريخ روسيا الصاخب فصل تملأه المخازى مثل الفصل الذى اصطلح المؤرخون على تسميته باسم قيام الدولة المسكوفية ، لأن أمراء موسكو لم يتغلبوا على جيرانهم ومنافسيهم من الأمراء الروسين بشن الحرب ضدهم ، أو ضد أعداء روسيا من القبيلة الذهبية التتارية ، بل بفضل التخضع

(١) الاسم الأصلى لهذه الهيئة الدينية ، نقلا عن (Camb: Med. Hist. VII. pp. 216, 244, 250, 253) هو الإخوان العسكريون المسيحيون (Fratres militiae Christi). وهم كذلك معروفون باسم إخوان السيف . كعرفو فيما بعد بأسماء البلاد التى امتد إليهم نشاطهم التبشيري والحضارى ، مثل الفرسان الليثونيين نسبة إلى إقيم ليفونيا المطل على البحر البنى ، وهكذا . وانضم الفرسان الليثونيون وغيرهم من الهيئات التبشيرية لعسكرية إلى هيئة الفرسان التيوتونيين ، وأسهموا معهم فى فتح كثير من بلاد الوثنية للديانة المسيحية والحضارة الألمانية ، واصطدموا أحيانا ببعض الإمارات الروسية . زيادة .

(٢) هذه المدينة هى أصل مدينة موسكو الحالية . انظر ، ص ٤٠٩ ، ٤١٢ . زيادة .

والتودد إلى خانات أولئك التتاريين القابعين في عاصمتهم سراى . ولئن سلخت مدينة موسكو المقدسة من قرية صغيرة من قرى سوزدال ، التي لم تجتذب عين التاريخ إلا سنة ١١٤٧ م^(١) ، فرجع ما أصبحت فيه موسكو من العظمة والضحامة والقداسة أن أمراءها في القرن الرابع عشر الميلادي ضمنوا مساعدة الجيوش التتارية لهم ضد جيرانهم ومنافسيهم من الروسيين الآخرين ، وأنهم أقاموا أنفسهم مقام الجباة ووكلاء الأمن عن طيب خاطر لخانات سراى ، حيثما أرادهم الخانات تأدية هذه الأعمال . والواقع أن قيام الأمير إيغان كاليتا - أى إيغان أبو الذهب (١٣٢٨ - ١٣٤١ م) - على وظيفة الجباة وما فيها من مكاسب ونجazy ، والتزامه هذه الوظيفة نيابة عن خان سراى ، هو الذى مكن له في روسيا الوسطى ، وجعله يسبق جيرانه ومنافسيه في تأسيس دولة روسية جديدة وسط السهول الروسية الشاسعة ، بعد أن تفككت دولة روسيا الغربية التي قامت على ضفاف نهر دنيبر قبل ذلك ، وكانت فيما يبدو أحسن مكاناً ورثياً ومستقبلاً في حابة الحضارات . ذلك أن وظيفة الجاني - الضامن^(٢) للضرائب من الفلاحين - تجعل صاحبها شخصية كريمة في كل العصور ، وفاق إيغان كاليتا الجباة والضمان في الكراهية والبغضاء وسوء السمعة - وهو أول أمراء موسكو العظيمة - حين التقس من خان سراى أن يقوم على هذه الوظيفة البغيضة للدولة دينها غير دينه ، وهى فضلاً عن ذلك محتلة لجزء كبير من روسيا .

غير أن إيغان كان رجلاً واقعياً يبحث عن السلطان حيث يوجد السلطان ، فأثناه بمحسركر خان سراى ، وحرص على ألا يشاركه شريك فيما وجد ، فقال لبعض جيرانه ومنافسيه ذات يوم من الأيام : "سوف يكون الاتصال بالخان من شأنى وحلى ، لا من شأنكم" . على أنه إذا استعرضنا سلسلة الطبقات الجبابرة الذين بنوا صرح الدولة المسكوفية بعد إيغان وضح لنا أن إيغان هذا لم يتصف بصفة إلا كانواها ، ولم يعمل عملاً إلا أقاموا شبهة في عهودهم بعده . ثم إنه لم يتعد صفات الكادح في سبيل هدفه مهما طال السفر ، المتصيد للمال حيثما كان المال . الدائب على توسيع ممتلكاته بالشراء أو الاستيلاء أو الارتياح أو المعاهدة سواء ، مع عدم الإحجام

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٤٠٩ ، ٤١١ . زيادة .

(٢) هذا اللفظ مستمد من مصطلح دولة المماليك في مصر العصور الوسطى . زيادة .

عن استخدام الجيوش التتارية ضد أعدائه من الروسيين ، والحرص على نشر الأمن واستئصال قطاع الطرق من بلاده .

الخلاصة أنه ليس باستطاعة باحث في تاريخ روسيا العصور الوسطى أن يُغفل هذا الرجل الذى كفل لبلاده الراحة والسلامة من الإغارات التتارية . خمسين عاماً تقريباً ، بالتزامه سياسة الامتثال والخضوع . ففي عهده (١٣٢٨ - ١٤٣١ م) أضحت موسكو واسطة العقد بين مجموعة من المدن الجديدة ، وغدت مقر مطران (Metropolitan) الكنيسة الروسية ، وحاضرة الدولة المسكوفية العظمى . ومن هذا يتضح أن إيقان زعيم بأن يكون أحد مؤسسى روسيا ، وأنه توفى بعد حياة ملؤها اغتصاب أموال الناس بغير حق ، مع الاقتصاد فى كل شىء إلى درجة التقدير . وكُنْ إيقان بملايس بالية من مسوح الرهبان ، بعد أن فُحص عن رأسه بحلق النافوخ على طريقة الرهبانيين ، شأنه فى ذلك شأن سلالته من الأمراء المسكوفيين الذين أدوا لدولتهم ما استطاعت طاقاتهم المتوسطة تأديته من خدمات .

ونشأت هذه الدولة المسكوفية الرائدة فى مجتمع زراعى على أسس زراعية ، وهو سر بقاءها وطول عمرها ، بالقياس إلى الدولة الاتحادية التى نشأت حول كييف على أسس تجارية . ذلك أن أمراء هذه الدولة الاتحادية كانوا جميعاً من شجعان الفارانجيين الذين احترفوا الجندية مرتزقة . وخدموا سلسلة من المويولات الروسية النهرية الممتدة من نهر نيتا إلى نهر دنيبر . فعاشوا مقيدين بما تمليه عليهم أطماع هذه المويولات وتقاليدها أهلها العارفين بفنون الحكم منذ سنين . ولم تتوفر هذه الأحوال فى روسيا الوسطى . فلم يجد أخلاف القديس فلاديمير مدناً عامرة متمدينة حين اتجهوا شرقاً نحو أقاليم الغابات بحوض نهر فولجا ، بل وجدوا عدداً من محطات نهرية منفصلة بعضها عن بعض تمام الانفصال ، بناها بعض الرائدین الأولین فى أرض بكر . وراء مساحات شاسعة من الغابات الكثيفة الوعرة ، بحيث تكون محجوبة عن أعين الجماعات الدائمة التنقل والرحلة من بانو السهوب الجنوبية ، وهى الجماعات المزرعة التى كانت إغاراتها التخريبية أول سبب من الأسباب المؤدية لإنشاء دولة الفارانجيين على نهر دنيبر . وفى هذه المحطات التى امتلأت حياة أهلها بالكد المتصل والحرق والزرع ، خلع الأمراء عن أنفسهم صفات الجندية واللصوصية والمتاجرة فى الرقيق ، واتسموا بسمات الرائدین الذين أضحو من الملاكين للأراضى ، وأضحى نظام الوراثة الدورية التى لا تتجزأ غير ملائم

لما صار لأولئك الأمراء من حقوق ثابتة في أراضيهم المتفرقة بعضها عن بعض بمسافات بعيدة . ثم أخذت سلطة الإمارة تنحصر في أصلاب الأسرة الحاكمة ، حتى إذا استقرت التقاليد المسكوفية على تخصيص النصيب الأكبر من الميراث للابن الأكبر ، غدا الطريق ممهداً لتكوين دولة ذات دعامة قوية ، وقدرة على النمو والتوسع .

وبينما تأخذ هذه التطورات مجراها طرأ على الجانب الغربي من روسيا طارئ سياسي هائل ، وهو الجانب الذى أقام فيه الفارانجيون دولتهم قبلاً . ذلك أن أمة من الجنس اللتوانى الوثنى القديم استطاعت أن تفرّ من قبضة الفرسان التيوتونيين^(١) إلى غابات نهر نيمن ومستنقعاته ، منذ القرن الثالث عشر الميلادى ، وأن تؤسس لنفسها عاصمة في قيلنا ، وأن تعيش في عزلتها محتضنة شيئاً من الطموح السياسى والأمل في المستقبل . ثم قفزت هذه الأمة الصغيرة فجأة إلى أعلى مسارح التاريخ ، بفضل أربعة من ذوى المقادرة والمغامرة من أدواقها ، فأوصلت فتوح أولهم جوديمين (١٣١٥ - ١٣٤٠ م) وفتوح ابنه أولجيرود (١٣٤٥ - ١٣٧٧ م) حدود لتوانيا إلى نهر دنيبر ، وجعلت كيشف مدينة لتوانية ، وأخضعت روسيا الغربية على سعتها لسيطرة دولة مقرها قيلنا القاصية ، وكل ذلك في سرعة خالصة للأبصار . ولم يكن باستطاعة أهل روسيا الغربية - وهم لا يزالون منقسمين على أنفسهم ، وحالهم أسوأ حال من أثر الغزو التتارى - أن يقاوموا أولئك اللتوانيين الوثنيين مقاومة مجدية ، بل رضوا - مع مسيحياتهم البيزنطية - أن يطأطئوا الرأس لأصحاب بيركون إله الرعد ، وفضلوا فوضى اللتوانيين الممججين في شئون الضرائب على إمعان التتار في ابتزاز الأموال .

وربما سأل سائل هنا : كيف استطاعت الأمة اللتوانية الصغيرة أن تهض

(١) تأسست جمعية الفرسان التيوتونيين سنة ١١٩٧ م للدفاع عن الأراضي الصليبية بالشرق ضد المسلمين ، على نمط الاستبارية في المرحلة الثانية من تاريخهم . غير أن أحد مقدمى هذه الجمعية ، وهو هرمان سالزا (١٢١١ - ١٢٣٩ م) أحس بقلّة الجسوى في نشاط الفرسان التيوتونيين بالشرق ، نظر لما بدا من أحوال الصليبيين منذ أيام السلطان صلاح الدين الأيوبي . لذا حول هرمان سالزا جهود أولئك الفرسان نحو الحرب ضد الوثنية التي لم تزل وقتذاك ضاربة بشرق ألمانيا ، وغيرها من البلاد الأوروبية ، وعملت الجمعية منذئذ في شرق ألمانيا وبولندا ولتوانيا وليقونيا وغرب روسيا ، وأدت جهودها فيما أدت إلى توسع ألماني عظيم في شرق أوروبا وسواحل البحر البلطى . وبذا صارت بروسيا مثلاً مسيحية ، كما صارت جزءاً من دائرة التوسع الألماني ، ثم زعيمة للإمبراطورية الألمانية أواخر القرن التاسع عشر الميلادى . زيادة .

بأعباء إمبراطورية بلغت رقعتها هذا الاتساع ، وتمّ تكوينها في هذه السرعة؟ .
الجواب على هذا السؤال أن اللتيوانيين لم يظلوا طويلاً دون مساعدة خارجية، إذ تحالفت دوقية لتيوانيا. العظمى ومملكة بولندا تحالفاً عائلياً سنة ١٣٨٦ م . بفضل زواج دوق ياغيلون الأول بن أولجيرود من ملكة بولندا ، ونبذ الوثنية ، ودخوله ودوقيته حظيرة المسيحية الكاثوليكية ؛ ومن ثمّ ارتكزت الإمبراطورية اللتيوانية واعتمدت على سيوف البولنديين ، كما اعتمدت على مجهودات المبشرين الكاثوليكين من الفرسان التيوتونيين^(١) .

هكذا شهدت خاتمة القرن الرابع عشر الميلادى في أرض روسيا — باستثناء السهوب الجنوبية وأهلها البدو — دولتين كل منهما يتربّص للأخرى الدوائر ، وهما روسيا الغربية ومحورها السياسى لتيوانى بولندى ، وأهلها خليط من الكاثوليكين واليهود والأرثوذكسيين ، ثم روسيا الشرقية وهى كتلة واحدة مسكوفية بيزنطية قلباً وقالباً . وتعلأ حوادث النضال بين هاتين الدولتين الروسيتين — أى روسيا اللتيوانية أو روسيا الصغرى ، وروسيا المسكوفية أو روسيا العظمى — فصلاً دامغاً بقيت ذكره واضحة لا تمحوها القرون في تاريخ روسيا كله . ومن هذه الذكرى تولد العداء المرير بين الروسيين والبولنديين ، وهو العداء الذى ظل حياً إلى العصر الحاضر ، وأدّى إلى زحف جيش بولندى سنة ١٩٢١ م . حتى أصبح قاب قوسين أو ذنى بكثير من مدينة كييف . وقيام جيش روسى للأخذ بالثأر حتى بلغ ضواحي وارسو في السنة نفسها . حين كان بلسودسكى على رأس الجمهورية البولندية . ولينين طاغية الدولة الروسية .

ويتضح من هذه الإشارات أن روسيا المسكوفية هى التى جعلت من الروسيين جميعاً أمة واحدة ، منذ أواخر العصور الوسطى . ذلك أن الوضع الجغرافى الذى جعل هذه الدولة الأرثوذكسية جارة للبولنديين واللتيوانيين وكثلكتهم الكريمة إليها من ناحية . وجارة للتتار وديانتهم الإسلامية الكريمة إليها كذلك من ناحية أخرى ، مكن لعاصمتها موسكو المقدسة أن تبسط نفوذها الدينى على المسكوفيين . فازداد بذلك سلطان الكنيسة ، وازداد معه عدد الكنائس والأديرة للرجال والنساء في

(١) انظر تفصيل ذلك في (Camb. Med. Hist. Vol. VII pp. 259 et seq.) ، حيث يستطيع القارئ أن يتبين أهمية هذا التحالف في تاريخ هيئة الفرسان التيوتونيين . زيادة .

سرعة ملحوظة، وغدا المطران مصدر قوة شددت من أزردوق روسيا المسكوفية كائناً من يكون . ورفعت من شأنه، وجعلت مخافة الدين - وهي أداة هائلة - طوع إشارة السلطة السياسية في البلاد . وظل الحال على هذه الوتيرة حتى جاء إلى الدوقية رجل يسعى إلى تسليد ضربة حاسمة في سبيل تحرير الروسيين ، من ربقة الخضوع للتتار والليتوانيين ، وهو ديمتري دونسكوى . فنذ سنة ١٣٦٩ م ، وهى السنة التى بلغ فيها ديمتري سنّ الرشد ، أخذ اسم هذا الدوق يملأ الآفاق بانتصاراته الداخلية على بضع إمارات روسية ، فضلاً عن توفيقاته في دفع غزوة بولندية ليتوانية عن موسكو . ثم هزم ديمتري جيشاً تاتارياً هزيمة شنيعة ، سنة ١٣٨٠ م ، في وقعة كُوليكوفو على نهر دُنْ ، وهذه الوقعة هى أصل تلقب ديمتري بلقب دونسكوى ، إشارة إلى انتصاره عند هذا النهر . على أن موضع الأهمية في وقعة كُوليكوفو أنها أزالَت عقدة النقص عند الروسيين بصدد التتار ، ومع أن جيوشاً تاتارية عادت إلى روسيا بعد ذلك بقليل ، وأعمت السيف في موسكو نفسها ، فإن وقعة كُوليكوفو دلّت على أن التتار ليسوا معصومين من الهزيمة . وصفوة القول أن هذه الوقعة شهدت مولد أمة روسية متوثبة ، ومولد وطنية روسية جديدة ، وهى وطنية أساسها عقيدة أرثوذكسية واحدة ، وتعاليم مستمدة من كنيسة بيزنطية ذات فضل عظيم في المزج بين الشعوب السلافية والفنلندية ، وغيرها من الشعوب الصغيرة التى عاشت بعيدة عن معترك الحضارات في غمرة السهول الروسية المظلمة . وإذ حرّكت هذه الروح العامة كوامن ما في صلور الروسيين من حماسة للتخلص من الاحتلال الأجنبي ، وأمدّتهم اختراعات البارود والمدفعية بسلاح جديد لأول مرة سنة ١٣٨٩ م ، لم يلبث جنود الدولة المسكوفية أن أصبحوا أنداداً لأعدائهم التتاريين .

على أن الدولة المسكوفية تدين بتحريرها إلى الفاتح التتارى العظيم تيمورلنك ، وجيشه البالغ مائة ألف وخمسين ألف مقاتل ، أكثر مما تدين إلى ديمتري دونسكوى . ذلك أن تيمورلنك لم يقنع بحرب الدول المسيحية التى وجدها في طريقه شمالاً ، بل أعمل الدمار والشار بدولة القبيلة الذهبية ، حتى إذا هدأت موجة غزواته الكاسحة (١٣٩٠ - ١٣٩٢ م) غلّت جهود المسكوفيين في القضاء على هذه الدولة أمراً سهلاً ، وغدا نجاحها مؤكداً في هذا السبيل . ثم سقطت القسطنطينية في أيدي العثمانيين المسلمين سنة ١٤٥٣ م ، فأضحى أدواق موسكو بعد ذهاب

الإمبراطورية البيزنطية ، لا ورثة الخانات التتاريين فحسب ، بل خلفاء الأباطرة البيزنطيين ، كما أضحت دوقيتهم المسكوفية أكبر دوقية أرثوذكسية . ولذا يدين دوقات موسكو لخانات التتار بما عكفوا عليه بعدهم من أساليب استبدادية شديدة ، ونظم مالية مرهقة ، وبما افترضوه من فرص للثروة الوفيرة والسلطان العريض في البلاد الروسية . بحوض نهر فولجا وروافده . أما الإمبراطورية البيزنطية ، فورثوا عنها سياسة الاعتماد على كنيسة نظيمة ، واعتقاد راسخ في السلطة الإمبراطورية ، وهو الاعتقاد الذى خلفته الإمبراطورية الرومانية القديمة لأجيال العصور الوسطى .

ولما سقطت القسطنطينية في أيدي العثمانيين ، ومات آخر إمبراطور من بيت الباليولوجيين وهو يقاتل في سبيل عرشه ، أضحت موسكو نتيجة لهذه الحال عاصمة الكنيسة الأرثوذكسية في أوروبا ، وغدا دوقها وريث القياصرة البيزنطيين . وسأل الروسيون المعاصرون سؤالاً يبتغون به جواباً ، شارحاً لما جرت وجاءت به المقادير . فقالوا : أليس من تدبير العناية الإلهية أن تُختار ثلاث مدن لتكون كل منها على التوالى مركز إمبراطورية عالمية ، وعقيدة مسيحية عالمية كذلك ؟ ولماذا خَلُفت القسطنطينية روما . وخلفت موسكو القسطنطينية ، في المكانة السامية والمسئولية الخطيرة ^(١) ؟ وهكذا كانت المعتقدات والآمال التى ساورت رهبان روسيا وقساوسة الكنيسة الروسية . وهكذا كان المنطق التاريخي الذى حمل إيقان الأكبر (١٤٦٢ - ١٥٠٥ م) على أن يتخذ لنفسه لقب قيصر (Tzar) ، وأن يتزوج أميرة بيزنطية من البيت الباليولوجي ، وأن يجعل صورة النسر ذى الرأسين (النسر المثنى) - وهو رنك الدولة البيزنطية - رنكاً للدولة المسكوفية . ومن هنا بدأت دراما تاريخية ملؤها أحلام إمبراطورية مختلفة تمام الاختلاف عما درجت عليه روسيا الأولى من حريات همجية صاخبة ، ولكنها أحلام شاءت القرون أن تجعل منها مصدراً لسياسة طامحة طويلة الأمد ، لولا ما انتابها من كوارث الحرب العظمى الأولى (١٩١٤ - ١٩١٨ م) ، ومذهبية الشيوعية التى أحكم نسج خيوطها الشيوعى الألمانى الإسرائيلى الأصل - كارل ماركس .

(١) انظر الشرح المسمى لهذا السؤال فى (Coopland : Tree of Battles pp. 39, 304) ، وكذلك سفر حزقيال وسفر دانيال فى كتاب العهد القديم ، ص ١١٧٥ - ١٢٨٥ . راجع أيضاً (Stremmooukhoff : Moscow, The Third Rome) فى (Speculum, 1953, pp. 44-64) . زيادة .

بعض المراجع لهذا الفصل

Donald Mackenzie Wallace : Russia. 1912.

Kluchevsky, (V.), History of Russia. Tr. C.J. Hogarth. 1911-1931.

Makeef & O'Hara : Russia (Nations of the Modern World Series). 1925.

Rambaud, (A.) : Histoire de la Russie. 1884.

الفصل الخامس والعشرون

الحكام المستبدون في إيطاليا

تفكك إيطاليا — التجارة والحرب — الجند المرتزقة — الدول الخمس في إيطاليا — ميلان وحكومة الفسكوريتين — البندقية — فلورنسة — أسرة آلبيزى — قيام المديتشيين — نابلى — اتحاد نابلى وفلورنسة وميلان .

* * *

فقدت إيطاليا بزوال أسرة الهوهنشتاوفن آخر عامل من عوامل الوحدة السياسية ، فيما بقي لها من العصور الوسطى . فبذ زوال هذه الأسرة التي تغيت أن تجعل من ألمانيا وإيطاليا وتوابعهما إمبراطورية واحدة ، واستبدت بشئون الإيطاليين استبداداً كفيلاً بانقلاهم — عاجلاً أو آجلاً — إلى شيء من الوحدة والاستقلال ، وببذ انتقال الوظيفة الإمبراطورية عن هذه الأسرة إلى الهابسبورجيين^(١) ، أصبحت زيارة الأباطرة لإيطاليا نادرة عابرة ، وأضحى تأثير هذه الزيارات في حكومات الدول الإيطالية المختلفة تأثيراً جناح العلجوم الطائر فوق الماء فيما تحته من أمواج . الواقع أن إيطاليا التي غدت بعد أباطرة الهوهنشتاوفن حرة طليقة لتقرير مصيرها ، لم تعم حتى أمست — باستثناء مملكة نابلى والدولة البابوية — خليطاً من المدن المستقلة (الحكومات) التي ركب كل منها متن الأثرة والاستمسك ، مع الشطط العام في سبيل فديتها وأطماعها التجارية الخاصة ، وأهدافها السياسية الجاحمة . لذا شنت هذه الدول المتنافرة أنفه الحروب ، وعقدت أدناً التحالفات حسبما تمليه منافعها الآنية الطارئة ، ولم تتردد واحدة منها يوماً في التحول عن موقف إلى نقيضه من المواقف ، كلما أحست بتغيير في تيار الحوادث . وفي هذا المحيط الطافح بالمنافسات الحارة والتحالفات المضطربة علا نجم المدينة من المدن ، ثم هوى بين عشية وضحاها ، فبينا هي ممتطية ذروة

(١) يتطلب شرح هذه العبارات الافتتاحية رجوعاً إلى ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١٣٨ - ١٣٩ ، ٢٦٠ - ٢٦٢ ، وكذلك ما سبق هنا في ص ٣٤٥ ، وما بعدها . زيادة .

القوة والمجد إذا بها متردية في حضيض الهوان . مثال ذلك أن أهل جمهورية البندقية العظيمة بلغوا من اليأس ، بعد سنة واحدة من حصار جنوا لمدينتهم ، أن فكروا في نقل الجمهورية إلى جزيرة كريت . وبلغوا من الحيوية ذات يوم ما جعلهم يطعمون أطماعاً لا تعرف الحدود . وإذا انطبق هذا الوصف على أحوال كل مدينة من المدن الإيطالية في تلك العصور . فهو منطبق كذلك على أحوال أحزابها الصاخبة في مراكم الفتنة والفساد ، ولا تزال أبراج مدينة سان جيمينانو الخالبة للأبصار — وهي جنوبي فلورنسا الحالية — تعيد للزائر ذكرى الأيام التي أشعل فيها النبلاء المحليون نيران أحقادهم بشوارع المدينة وأزقتها ، في غير خشية أو اعتبار ، أو احترام لمصالح الناس .

ودلّ هذا العنف الخارق على حيوية تنفست عن حركة دافقة في ميادين التجارة والفن والنشاط الأدبي ، وهي حركة رفعت إيطاليا إلى أعلى عليين في مستوى الحضارة ، بالقياس إلى أي بلد أوروبي آخر . الواقع أن الزائر القادم إلى إيطاليا من الشمال إلى السهل اللومباردي — في تلك العصور — لم يستطع إلا أن تتملكه الدهشة مما يرى من قنوات مائية متشابكة ، وتجارات ضخمة ، ونظم مالية عالية ، وصناعات راقية ، ومدن كثيرة مزدهجة بالسكان ، وهي تجاور بعضها بعضاً ، ولا تفصل الواحدة منها عن الأخرى إلا مسافة قريبة ، وكلها تخبر بمظاهرها العامة والخاصة من المباني والعمائر والأسواق عن غنى وأبهة ورقة . وفي النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادي وصف بونفران داريفا (Bonvesin da Riva) — وهو أحد الإخوان الفرنسيسكانيين والشعراء الأولين في اللغة الإيطالية الأولى^(١) — مدينة ميلان بأن عدد سكانها مائتا ألف نسمة ، وبأن بها خمسين ألفاً من الرجال القادرين على حمل السلاح ، وأربعمائة كاتب ، ومائتي طبيب ، ومثلهم من المحامين ، وثمانين

(١٠) اللغة الإيطالية إحدى اللغات التي تفرعت من لغة اللاتينية أواسط العصور الوسطى ، لا قبل ذلك ، وتكلمها عامة الإيطاليين منذ تلك العصور . على حين بقيت اللاتينية لغة الثقافة والشتق في إيطاليا وغيرها من البلاد التي اشتقت لغتها من اللسان اللاتيني . وأشهرها فرنسا وإسبانيا ، وكذلك إنجلترا وألمانيا ، ورغم عدم اشتقاق اللغتين الإنجليزية والألمانية من اللاتينية . والفصل في تطور الإيطالية ، من لغة شعبية (Vulgar tongue) إلى لغة قومية ، يرجع إلى قيام دانتي (نظر ما سبق هذا القسم من الكتاب ، ص ٢٧١) وبونفران داريفا المشار إليه هنا ، وغيرهما من أرباب القلم ، بإحلال اللسان الإيطالي محل اللاتينية في مؤلفاتهم ، من النظم والنثر والكتابة عامة . زيادة .

مدرساً . وخمسين من النساخين والورّاقين والكتّبة ، وستين بيتاً من بيوت النبلاء الأغنياء . ومائة وخمسين قصراً من قصور الريف ، ومثلها من القرى الملحقة بها ، وثلاثمائة من الجزارين ، وثلاثمائة من الحبازين ، وألفاً من المزارعين ، أصحاب الأراضي التي تمتد السكان بالغلّال والخضر والفواكه . وفي الحىّ المالى من لندن الحالية شارع اسمه لومبارد ستريت (Lombard Street) ، وهو يدلّ على أن اللومبارديين أول الرائدین فی تأسيس المصارف (البنوك) ، وأن صياغة أوروبا ورجال المال بها جميعاً سمّوا بهذا الاسم ، في وقت من الأوقات .

غير أن اجتماع العنف والتجارة في إيطاليا العصور الوسطى أنتج نتاجاً لم يكن منه محيص ، وهو الحاكم المستبدّ . ذلك أن كلّ مدينة من المدن الإيطالية في تلك العصور لم تلبث أن أدركت حاجتها الماسة إلى يدٍ قوية تدرأ عنها خطراً داهماً ، أو تكبح فيها جماح الروح الحزبية ، أو تصون لها صناعاتها وتجارتها ، مع العمل على تنمية نشاطها العام . وتحقيقاً لهذه الغايات عمدت المدينة من المدن أحياناً إلى اجتذاب قائد عسكري ذائع الصيت ، وأحياناً إلى رجل مدنى من غير أهلها يمكن الركون إلى عدم محاباته لفريق دون فريق ، لبعده عن المنازعات والأحقاد المحلية .

سارت المدن الإيطالية أول عهد لها بهذه التجارب في حذر وبقظة ، احتراماً لروح الحرية الدافقة وقتذاك بين الإيطاليين ، فعينت البودشطا^(١) (Podesta) — أى الحاكم عليها من العسكريين أو المدنيين — لمدة سنة واحدة ، أو لبضع سنين معدودة . غير أن الفائدة التي تنجم عن وجود سلطة تستطيع القيام بعمل سريع في أوقات الحرج ، وتغضى عن القيود التي تحفل لها الدساتير الشعبية ذات الآفاق المحلية الضيقة ، وتستطيع اتباع سياسة حازمة — كل ذلك جعل تعيين أولئك الحكام بمختلف المدن الإيطالية لازمة من لزوميات التقاليد السياسية في البلاد . وأولئك الحكام الذين ملأوا مسارح التاريخ الإيطالى في القرن الرابع عشر والخامس عشر الميلادى — وهم ممن جرى الواقع والمصطلح بتسميتهم الطغاة (Despots) — هم البودشطا ، بعد أن غدت وظيفتهم مستديمة ، قابلة للتوريث خالفاً عن سالف .

(١) ذكر القلقشندي (صبح الأعشى ، ج ٨ ، ص ٤٦) أن ديوان الإنشاء في مصر ، على عهد السلاطين المماليك ، استعمل هذا اللفظ بنصه وقصه للدلالة على حاكم جنوا ، في المكاتبات الرسمية ، كما استعمل لفظ الكبطان في هذه المكاتبات ، للدلالة على من يليه في الحكم والمرتبة . زيادة .

وأول هذه الطبقة من الطغاة كانه جراندى دلا سكالاً حاكم فيرونا، وهو الذى انتخب الفيرونيون أباه كبطاناً^(١) للمدينة (Capitano del Popolo) مدة حياته . ولع اسم دلا سكالاً هذا فى التاريخ ، لأنه هو الذى تعهد الشاعر دانتي - والفنان جيوتو كذلك - بالتشجيع والرعاية ، وهو أول الطغاة الإيطاليين الذين جمعوا فى شخصياتهم صرامة الاستبداد فى شئون الحكم ، وفخامة المظهر فى المجتمع الفيرونى ، وسعة البذل والسخاء فى سبيل تشجيع الفنون .

وكما أدت الجهود المتواصلة من أجل الحصول على قسط من الأمن الداخلى إلى قيام البودشطا بحق التعيين ، ثم الحاكم الطاغية بحق الوراثة ، فى مختلف المدن الإيطالية ، أدت هذه الجهود كذلك إلى الاستعاضة عن الجيوش الوطنية بالجنود المرتزقة ، وهى المعروفة فى التاريخ الإيطالى باسم الكوندوتيري (Gondottiere) . وقامت هذه المرتزقة بدورها فى مضمار الحضارة الإيطالية أواخر العصور الوسطى ، إذ آذنت بفلسفة جديدة ، وهى أن الحرب ليست - كما كانت قبلاً - ملهاة الطبقة الحاكمة من التجار وأرباب المال ، ومفخرتهم وميزتهم دون سائر الطبقات ، بل الحرب مهنة دموية تشبه مهنة الحزارين ، لا ينبغى أن يتولاها إلا الإخصائيون . وبهذا تحرر التاجر من واجباته العسكرية ، واستطاع الانصراف إلى تنمية ثروته ، وإصلاح شئون الحكم فى مدينته ، على حين وجد النبيل - وهو المحروم من الاشتراك فى أمور الحكم على الإطلاق ، بمقتضى دساتير أغلب المدن الإيطالية - أن صفوف مهنة المرتزقة العسكرية مجال حيوى لإشباع أهوائه ونشاطه .

يتضح من ذلك أن نمو هذه الجيوش المرتزقة لم يكن - كما يتبادر إلى الذهن - دليلاً على ما سوف ينزل بإيطاليا من انحلال ، بل دليلاً على أن قيماً ومعايير إنسانية جديدة بدأت تظهر ، على الأقل فى إيطاليا . ذلك أنه غدا من الواضح أن الحرب جزء لا يتجزأ من الأحوال السياسية لذلك العصر ، ولكنها ليست من الأهمية بدرجة توجب استخدام الرجال الذين يكونون أكثر صلاحية ميادين التجارة والمال ، أو بناء الكنائس ، أو رسم الصور ، أو إدارة دفة الحكم فى المدن . غير أن نظام المرتزقة تطور فيما بعد إلى فساد ، فالخروب غدت للمرتزقة العسكرية حروباً لا معنى للعمل على إنهاؤها أو اجتنابها ، ما دامت أرزاقهم

(١) راجع الحاشية السابقة . زيادة .

في كل من الجانبين المتحارين ؛ والمعارك الحربية غدت معارك باهظة التكاليف ، دون أن تكون فيها رائحة قتال . والروح المدنية والعسكرية غدت فاترة فتوراً ذمه السياسي الوطني ما كياقللى الشهير ، وهو فتور عرض إيطاليا منذ نهاية القرن الخامس عشر الميلادى إلا مذلّات الغزو الأجنبي ، مرة بعد أخرى .

ومع ما بالتاريخ من عصور كثيرة دالة على ما يحدثه الاستبداد في نفوس المحكومين من خمود وهمود ، وتدهور وانهار ، يبدو أن عصر الطغاة الإيطاليين برغم ما اتسم به من قسوة ودهاء ، وتقلب وحيلة ، لم يمنع الروح الإنسانية من الانطلاق في شيء من الحرية ، ولم يغرس في الإيطاليين شيئاً من العبودية والاستكانة . الواقع أن هذا العصر يعدّ أحد العصور القليلة التي أزهرت أثناءها العبقريّة الإنسانية في إيطاليا أبدع إزهار ، لأنه فضلاً عن رائع الأعمال التي قام بها أفراد من صفوة الرجال في حلبات الفنون والآداب في ذلك العصر ، بقيت إرادة الناس على حالها من القوة ، حتى إن أعظم الطغاة نجاحاً وتوقيقاً — مثل آل مد-تشي في فلورنسا — هم الذين لصقوا مصالحهم إلى مصالح الناس ، وفهموا حاجاتهم فهماً حسناً .

وفي القرن الرابع عشر الميلادى انضوت عدة مدن مستقلة بعضها إلى بعض ، تدريجياً في وحدات كبيرة . غير أن عرضاً تاريخياً عاماً لا يتسع لتتبع هذا الانضواء التدريجى . في تفصيل كثير أو قليل . ويكفى هنا القول أن الأحوال السياسية في إيطاليا غدت — منذ بداية القرن الخامس عشر الميلادى — مرهونة بالعلاقات الكائنة بين خمس دول إيطالية رئيسة ، هي مملكة نابولى ، ودولة البابا ، وجمهورية البندقية ، واستبدادية ميلان . واستبدادية فلورنسا التي هيمن على شؤونها آل آلبيترى (Ibizzi) فعلاً ، مع بقائها جمهورية اسماً . وقبل ذلك اختتم النزاع الطويل بين جنوة والبندقية على سيادة البحار ، بانتصار البندقية في حرب تشيوجيا (١٣٧٨ — ١٣٨١ م) ، وهو انتصار يعدّ من أعظم المفاجآت الحربية ، وأروعها في تاريخ الحروب . لذا عاشت جنوة التي ما فتئت — منذ أيامها الأولى — فريسة الحزبية الداخلية ، بعيدة في شبه عزلة عن سائر الدول الإيطالية بين البحر والجبل ، وبلدت بفضل جالياتها التجارية بالقسطنطينية أكثر أهمية على شواطئ البوسفور منها في إيطاليا .

وفي هذه المجموعة من الدول الإيطالية أضحت الظاهرة الكبرى بينها هي

التنافس الشديد بين البندقية وميلان ، حول شىء من الزعامة العامة فى شبه الجزيرة ، حيث بدت البندقية فى رخاء وغنى ، بفضل تجارتها الواسعة فيما وراء البحار ، على حين بدت ميلان فى وفرة من المال واليسر كذلك ، بفضل زراعتها الوفيرة ، وخصوبتها



المنقطعة النظير ، وأقمشتها الحريرية الرفيعة ، ومنسوجاتها المطرزة ، ووضعها الجغرافى عند بداية طريق تجارى هامّ يخترق جبال الألب إلى جوف أوروبا ومدنها التجارية ، وهذا كله فضلاً عن صناعتها الحريرية التى أمدت جيوش الدول المختلفة بأنحاء المعمورة بأنواع السلاح والعتاد الحربى ، دون اعتبار للفوارق الدينية^(١) .

(١) يشير المؤلف هنا إشارة خاطفة إلى المنشورات البابوية التى حرمت على جميع الدول المسيحية ، فى العصور الوسطى ، أن تمد الدول الإسلامية بشىء من السلاح ، أو تتجر معها فى غير ذلك من المواد الحربية . واشتهرت هذه المنشورات ، منذ أول صلورها فى القرن الثالث عشر الميلادى ، بما أدت إليه من عمليات تهريبية ضخمة ، بين مختلف المدن الصناعية بإيطاليا والدولة المملوكية الإسلامية بمصر والشام ، كما اشتهرت بما لقيته من إهمال تام فى القرن الخامس عشر الميلادى ، بفضل جنوة والبندقية وتجارتهما الواسعة فى المواد

ومن الواضح أن أصحاب هذه الدولة الميلانية استطاعوا - في سهولة وسرعة - أن يجعلوا أنفسهم أغنى أسرة في أوروبا .

وهذا تماماً هو ما حدث لأبناء أسرة فسكونتي ، وهي أسرة جيلينية^(١) السياسية فرنجية الأصل . بدليل الشعر الأصب والبشرة الشقراء التي امتاز بهما أفرادها ، جيلا بعد جيل . ذلك أن هذه الأسرة غدت ، منذ سنة ١٢٧٧ م ، صاحبة السلطة السياسية في دوقية ميلان ، وممتلكاتها الشاملة معظم شمال إيطاليا وجزءاً كبيراً من إيطاليا الوسطى . ثم لم تلبث هذه الأسرة أن أضحت أغنى بيت في أوروبا ، بل بلغت من الغنى ما جعل الحصول على عروس فسكونتية أعظم صفقة مالية في سوق الزواج بأوروبا ، كما بلغت من التوفيق في مصاهراتها الملكية ما جعلها تنتسب عن طريق نسائها إلى خمسة بيوت ملكية ، وهي قالوا بفرنسا ، وهابسبرج بالهنا ، وتيودور بإنجلترا ، واستيوارت باسكتلندا ، وهانوفر بألمانيا . غير أن الانتساب إلى أسرة فسكونتي لم يكن دائماً مصحفاً للفخار ، لأنه على حين اشتهر بعض أفرادها بالنزاهة والكمال ، اشتهر منهم بعض آخر بالوحشية والغدر ، والخبث والفسوق والقتل .

وأعظم أبناء هذه الأسرة - وأظهر شخصية فيها - هو جيان جالياترو فسكونتي (١٣٧٨ - ١٤٠٢) ، وهو من أولئك المحظوظين الذين اتفقت مطامعهم الشخصية وحاجات الدولة التي يحدون أنفسهم على رأسها يوماً من الأيام . وعكف جيان على تحقيق مطامعه هذه في مضاء ومثابرة ، دون أن يزعه وازع خلق ألبنة . واتفقت هذه المطامع وحاجات الطبقة العليا المنقسمة إلى جولفين وجيلينيين^(٢) في ميلان ، إذ رغبت هذه الطبقة رغبة شديدة أن توجد بينها يد قادرة على الفصل في خصوماتها الحزبية ، كما رغب تجارها وصناعها وأهل الزراعة في ريفها أن تظلمهم حكومة قوية . ولم يشذ عن ذلك أهل المدن الخاضعة لحكومة ميلان ، لأنهم برغم ما ساورهم من أسف على فقد استقلال مدنها ، وجدوا عزاء كافياً فيما عاد عليهم من عظيم الفوائد الناجمة عن إدارة حكومية نظيمة مدبرة ، وتجارة واسعة وافرة المكاسب . وما زاد في سلطة دوق جيان وغيره من أدواق ميلان بعده ، بالإضافة إلى ما تقدم ، أن

الحربية وغير الحربية مع سلاطين المماليك بمصر والشام ، وملوك البلاد الإسلامية الأخرى بالشرق الأدنى والأوسط . زيادة .

(١) راجع ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١٩٥ ، حاشية ١ . زيادة .

(٢) راجع الحاشية السالفة هنا . زيادة .

الإقامة في ميلان لم تلبث أن أصبحت عادة بين النبلاء اللومبارديين ، فأصبح النبلاء بذلك تحت عين النوق ورقابته ورهن إشارته ، كما أصبح النوق مهيمناً على شئون الدوقية كلها أدق هيمنة ، على قول المؤرخ الفرنسي كومنين .

ومما يسترعى التفات الأجيال إلى دوق جيان — وهو أول أدواق ميلان^(١) ، بحق الوراثة — أنه دلّ على شيء من سعة الأفق ، وبعده النظر ، إذ تراءى له خطر الغزو الأجنبي من بعيد ، ورأى أن استقلال إيطاليا لن يتأتى ما لم توجد دولة قوية متينة البناء في شمال إيطاليا ، كالتى اعترم تأسيسها بنفسه . وإذا بدا من العسير على الباحث أن يتصور شيئاً من حميد العواطف في قلب هذا الرجل الذى تدنس أخلاقه تدنساً بصفات الخداع والغدر والوحشية ، فمن المسلم به على الأقل ، وفي غير شك ، أن جيان فسكونتى برهن على أنه داهية أربية ، خبير بانتهاز الفرص السياسية . مثال ذلك أن دوق جيان رأى أن انصراف البابوية إلى مشكلات الانقسام الدينى^(٢) ، وابتلاء نابولى بشلل الفتن الداخلية ، جعل الجوّ خلواً من العقبتين الكؤودين اللتين ربما وقفنا إحداهما أو كلاهما حجر عثرة في سبيل امتداد دولته إلى جزء كبير من إيطاليا . واتصف جيان جالياتزو كذلك بما اتصف به أشباهه من أصحاب المستويات العالية في الحضارة والفخامة ، بالإضافة إلى صفات الخسة والغدر التى اصطبغ بها عصره . فبنى الجسور والحصون والقصور ، وفى كل من دير تشرتوزا بمدينة پاڤيا ، وجامعة پاڤيا نفسها ، دليل على اهتمامه بأن يسطع اسمه بين أحياب الدين والفن والعرفان .

أما انتصارات جيان جالياتزو في ميادين القتال ، فليس هو صاحبها ، لأنه لم يكن من رجال الحروب ، بل يرجع الفضل فيها إلى فائق المهارة الحربية التى اتصف بها فاشينو كاتى (Fascino Cane) ، وهو قائد جيوشه المرتقة .

أقلقت هذه الانتصارات مضاجع الدولتين المجاورتين للنوقية . ميلان ، وهما البندقية وفلورنسا اللتان خشيتا كل الخشية من امتداد ممتلكات جيان جالياتزو ، وحرصتا كل الحرص على الوقوف في طريق تقدمه . ذلك أن ميلان انتزعت من البندقية مدينتى فسترا وبادوا ، وطردت فلورنسا من سينا وبيروجيا وأسيى وبيزا .

(١) انظر (Camb. Med. Hist. VII. 71-72) ، لمعرفة تفصيلات سياسة جيان جالياتزو فسكونتى في ميلان ، حيث غدا صاحب السلطة المطلقة فيها ، منذ سنة ١٣٨٦ م . زيادة .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٧٧ ، حاشية ١ . زيادة .

وذلك في سلسلة من الهزائم التي كالمها فاشينو كانى لجيوش الفلورنسيين ، وعلى رأسهم وقتذاك سيرجون هوكود القائد الإنجليزي المأجور ، وهو الذى لا يزال تمثاله قائماً في الكتدراثة الفلورنسية . (Duomo di Florenza) .

وفي النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادى — أى منذ وفاة جيان جالياتزو سنة ١٤٠٢ م — امتلأ شمال إيطاليا بحروب كلها هجوم من ناحية ميلان لتحقيق أطماعها التوسعية ، ودفاع من ناحية البندقية وقلورنسا أولاً في إيقاف هذه الأطماع . واستنفدت هذه الدول الثلاث — وهى أغنى الدول الأوروبية وأعظمها حضارة وقتذاك — تلك السنوات الثمينة التي لا تعوّض في حروب لا معنى لها ، ولا فائدة منها في مضمار التقدم الحضارى ، وهى السنوات التي كان من المستطاع أثناء هادغ الأتراك العثمانيين عن جنوب أوربا ، لو أن إيطاليا استطاعت أن تنهض بعمل حربى جامع . لكن الذى حدث كان عكس ذلك ونقيضه تماماً ، إذ هدمت مراحل الحروب الخمس التي وقعت بين ميلان والبندقية — وهى حروب امتدت مرحلتها الخامسة وحدها سبع سنوات — كل أمل في توحيد القوى الإيطالية لمواجهة الخطر العثمانى من ناحية الشرق ، حتى إذا انتهى ما بين الدولتين في صلح لودى سنة ١٤٥٤ م ، كان الأتراك العثمانيون في القسطنطينية .

غير أن ميلان لم تحقق بحروبها شيئاً من آمالها العريضة في إيطاليا ، لأنه مع الفرض جدلاً بعدم وجود البابا والبابوية في شبه الجزيرة ، بدت كل من البندقية وقلورنسا على جانب من الثروة ، وعلى جانب من القوة كذلك ، مما يجعل في مقدورهما — عاجلاً أو آجلاً — أن يحولا دون تأسيس مملكة عاصمتها ميلان ، في شمال إيطاليا . وعلى الرغم من مهارة فيليبو ماريا فسكونتى الذى استطاع — بعد سنوات كلها حروب — أن يضيف إلى ممتلكات أبيه جيان جالياتزو ، ظلت دوقية ميلان بعيدة من أن تكون مملكة أحلامه ، لأن البندقية وقلورنسا وقفنا دون تحقيق ذلك ، وبدت كلبتهما راجحة الكفة على ميلان ، عند وفاة فيليبو سنة ١٤٤٧ م . وللبندقية قصة تدل — برغم ما يتخللها من حروب وهزائم فادحة باترة في البحر والبر — على أن البنادقة عاشوا في رخاء اقتصادى عظيم وأمن داخلى تام ، وهى ترك في ذهن الباحث صورة من سياسة تبدو كأنها معجزات الفطانة واللقانة ، في تدبير شئون الحكم . الواقع أن دولة من الدول الإيطالية لم تنعم بمثل ما بدت البندقية ناعمة به ، مطمئنة إليه ، من حياة آمنة معتدلة الموازين بين الناس . ذلك أن البندقية

خلت خلواً حميداً من الوباءين السياسيين اللذين أصابا معظم المدن الإيطالية أواخر العصور الوسطى ؛ وهما أولاً كثرة المنفيين المغضوب عليهم من أبناء هذه المدن ، ومؤامرات أولئك المنفيين على تمزيق الحكومة القائمة في مدينتهم ، كائنه ما تكون ، عند أول فرصة تحين ؛ وثانياً كثرة الضغائن العائلية التي ملأت مشكلات السياسة بأغلب هذه المدن مرارة وحرارة ، واضطراباً . وعاشت البندقية دون غيرها من المدن الإيطالية عيشة راغدة هائلة ، بفضل خلوها من هذين الوباءين . وساعد على ازدياد رغدها وهنائها ما توفر لأهلها من عدالة نزيهة في تناول جميع الطبقات ، وضرائب خفيفة العبء على الفقراء ، وأعياد ومواسم حافلة بالمباهج والملاهي ، وتنظييات تشمل عدداً من نقابات مهنية صغيرة ، وهي نقابات متكفلة بمواردها وحاجاتها ، والغرض منها توفير أسباب العيش والعمل في مختلف المهن . وهذا وذاك فضلاً عن مسرح تمثيلي متواضع ، هيأته حكومة البندقية لأصحاب المواهب من الكتاب والمؤلفين والممثلين . ولم ينغمس البنادقة أو تنغمس حكومتهم في هذه المظاهر انغماساً أريد به صرفهم عن شئونهم ومصالحهم القومية في البحر والبر ، فإن تعيين الدوج في وظيفته مدى حياته ضمن استمرار الحكم أطول مدة ممكنة ، في شيء من الاطمئنان ، كما أن سعة السلطان المحولة لمجلس العشرة كفلت إدارة دفة الحكومة في كثير من الحزم والدقة . لكن يضاف إلى ذلك أن حكومة البندقية جنحت إلى شيء من الاستبداد ، حين استعانت بهيئة من العيون والحواسيس لتجسس بها أنباض المدينة ، وتتخذ حذرهما من المفاجآت المكبرة ذوات العواقب الوخيمة . غير أنه إذا كان هذا هو الاستبداد الذي عاش عليه البنادقة ، فلا مشاحة أن حكم أدواج البندقية ، بالقياس إلى غيره من ألوان الاستبداد في التاريخ ، كان استبداداً ملؤه الأبوة والرحمة . وكفى دلالة على رقي التشريعات البندقية تحريم استخدام الصغار في المهن الخطيرة ، وتعيين حد أقصى لحمولة السفن ، وهي تشريعات لم تعرفها تشريعات بريطانيا العظمى إلا في القرن التاسع عشر الميلادي ، بعد أن غدت أعظم دول العالم في ميادين الصناعة والملاحة فيما وراء البحار .

وحبت الطبيعة جمهورية البندقية بوضع جغرافي جعلها مفتاح الطريق بين الشرق والغرب ، واستخدمت وضعها الجغرافي هذا في مهارة وجسارة ، وسبقت جنوة وأرجونة سبقاً بعيداً في ميادين للتجارة ، وهما أقرب المنافسين لها في

هذه الميادين . فحملت سفن البندقية الجزء الأكبر من التجارة الأوربية ، وجلبت غلايتها السكر والتوابل من الشواطئ المصرية والشامية إلى إنجلترا ، والصوف الإنجليزي الخام من إنجلترا إلى بلاد الفلمنكيين^(١) (الفلاندرز) ، والمنسوجات الفلمنكية من بلاد الفلاندرز إلى مدن البحر الأبيض المتوسط . ولم تنشب حروب البندقية ضد جنوة حول أمور تافهة حقيرة الشأن ، كما هو الحال في كثير من حروب العصور الوسطى ، بل كانت نضالا مهلكاً عنيداً من أجل السيطرة على أسواق التجارة . ذلك أن التجارة هي التي وجهت سياسة البندقية ، حتى إذا غدت البندقية إمبراطورية ذات ممتلكات واسعة في حوض البحر الأبيض المتوسط لم تكن هذه الإمبراطورية غاية في ذاتها ، بل أصبحت وسيلة للتوسع في التجارة . وغدا البحر سبيلاً لجميع مغامرات البندقية ، ومثاراً لجميع أطماعها الواسعة . والتحق الشباب من نبلاء البنادقة في البحرية ، لأنها الطريق الطبيعي للشهرة والمجد والمال . وفي البحر أنشأت حكومة الجمهورية ستة أساطيل على طراز واحد ، وعينت لكل منها موانيه ومراسيه ، وقصدت بتوحيد طرازها أن يكون باستطاعة القناصل البندقيين — في مختلف الموانئ الأوربية — إمداد السفن بما تحتاج إليه من " قطع للغير " (spare parts) — ذات نوع واحد ؛ وفي هذا ما يدل دلالة واضحة على مبلغ ما اتصفت به حكومة البندقية من بصيرة وتدبير ، في كل ما يتعلق بشئون البحرية .

أما السياسة الخارجية في البندقية ، فاتجهت منذ أول أمرها إلى تحقيق أهداف ثلاثة على وجه التحديد ، وهي الاستيلاء على ساحل دالماشيا ، والتملك على مساحات زراعية كافية بشمال إيطاليا ، والسيطرة على الممرات الألبية التي تخترقها قوافلها التجارية البرية . وفي سبيل تحقيق هذه الأهداف اتصلت البندقية أحياناً مختلفة بملوك المجر ، وأدواق بادوا وفيرونا . غير أن البندقية وجدت في فيليپو ماريا فسكونتي ، دوق ميلان (١٤٠٢ - ١٤٤٧ م) ، أشد منافسيها خطراً معظم النصف الأول من القرن الخامس عشر الميلادي ، إذ استطاع فيليپو بفضل فرنشيسكو كارمانيو لا (Francesco Carmagnola) ، وهو قائد المرتزقة في ميلان ، أن يوسع في الممتلكات الميلانية بالحرب ، وأن يغدو فيليپو نتيجة هذه الحرب مسيطراً

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣١٧ . زيادة .

على شمال إيطاليا أتمّ سيطرة ، سنة ١٤٢١ م .

هل تستطيع البندقية أن تقف جامدة ، على حين عكف هذا المنافس الخطير على تقوية مركزه ؟ هل تتق في عدم هجومه على فيرونا عند أول فرصة مناسبة ؟ أليس المحجوم في الوقت المناسب خير وسيلة للدفاع ؟ أليس امتداد حكم البندقية إلى السهل اللومباردى هو الضمان الكفيل وحده بسلامتها ؟ وفي سنة ١٤٢١ م نادى الزعيم الشاب فوسكارى (Foscari) ، في حرارة وحماسة ، أن تقوم البندقية ضدّ ميلان بحرب سريعة لمنع الحرب ، قطعاً لما لا بدّ لميلان أن تقوم به — عاجلاً أو آجلاً — ضدّ البندقية . واعترض اللودج الشيخ موتشينيجو (Mocenigo) بأقوال شبيهة بما تسوقه حكمة الشيوخ في كل العصور ، من حجج ضدّ مذهب المبادرة بالحرب لمنع الحرب ، وما فيه من خراب ، وما دام ذلك اللودج العجوز على قيد الحياة تجنبت البندقية هذه الحرب . لكن موتشينيجو توفى سنة ١٤٢٣ م ، وحل فوسكارى محله في منصب اللودج ، فلم يبق لصون السلام صدى في دوائر حكومة البندقية . ونزولا على إلحاح فلورنسا في طلب الحرب ، ولا سيما بعد أن تحول كارمانيو لا إلى خدمة البنادقة ، أعلنت البندقية الحرب على فيليبو ماريا فسكونتى دوق ميلان .

غير أن جمهورية القديس مرقص — وهو الاسم الرسمي للدولة البندقية — لم تلق من التوفيق ما جعلها تحمد هذا القرار ، لأن شخصيات مرتزقة أكثر مهارة من كارمانيو لا ملأت سوق الخدمة الحربية المرتزقة في إيطاليا أواخر العصور الوسطى ، وأشهرها فرنشيسكو سفورزا (Francesco Sforza) ، وهو ابن أحد مشاهير المرتزقة من إقليم رمانية (Romagna) بإيطاليا ، وصاحب الفضل في نصر ميلان على البنادقة . وبدأ سفورزا على جانب من هائل الحيوية وقوة الاحتمال ، ودلّ أثناء الحروب الطويلة التي اشتعلت بين البندقية وميلان على أنه جندي واسع الخيلة ، وسياسي من أبرع السياسيين في عصره . ولم يكن كارمانيو لا نداءً لمثل هذا الخصم ، ولم يلبث أن أثار شكوك البنادقة في إخلاصه لهم ، بعد أن أحرز لجيوشهم بعض النصر أول مراحل القتال .

ذلك أن أسطول البندقية في مياه نهر بو تحطّم سنة ١٤٣١ م ، فسألت حكومة القديس مرقص عما شغل خديمها كارمانيو لا المتقلب حين حلّ بأسطولها الدمار ، وأوغته إلى البندقية ، حيث أتهمته بالخيانة العظمى ، وقدّمته للمحاكمة سرّاً ، ثم

أمرت بإعدامه علناً . وأعجب القاصي والداني من المعاصرين بالشجاعة البالغة التي حملت البندقية على إعدام قائد من قادة المرتزقة ، في غير جلبة أو هرج ، ورأوا في ذلك دليلاً على عزم البندقية أن تكون السلطة المدنية فيها فوق الاعتبارات الحربية . غير أن هذه الحادثة لم تجرّ في أذياها نصراً ، ولم تؤدّ إلى شيء من الحكمة في دوائر البندقية . والدليل على ذلك أنه لما مات فيليبو ماريا دوق ميلان سنة ١٤٤٧ م ، دون أن يخلف وريثاً ذكراً ، وغدت ميلان جمهورية مرّة أخرى ، اقتضت الفطنة السياسية أن تمدّ البندقية يد الصداقة للحكومة الجديدة بميلان ، وهي لا تزال واهنة مزعزعة الأركان . لكن شاء النحس ، وشاءت صلابة حزب الحرب في البندقية — وهو الحزب الذي أنجب جميع البلايا السابقة — أن يقرّر اللدوج فوسكارى ما عقد عليه نيته من هدم جمهورية ميلان .

غير أن البندقية بنت قرارها دون أن تحسب حساباً للقائد الداهية فرنشيسكو سفورزا ، وهو الذي احتاط لما عسى تتمخض عنه الحوادث في ميلان بالزواج من الابنة الوحيدة لآخر الفسكونيين ، وهي بيانكا ابنة فيليبو ماريا . واتخذ سفورزا من غلطة البنادقة فرصة لتحقيق أطماعه الشخصية ، فانبرى للدفاع عن الحكومة الجمهورية الناشئة في ميلان ، وهزم البنادقة برّاً وبحراً . حتى إذا ذلت البندقية وانقسمت مصالحته ومحالفته ، انقلب هو على الجمهورية الميلانية وأهلها أصحاب نعمته ، ونصّب نفسه دوقاً في ميلان ، سنة ١٤٥٠ م . وهكذا بعد خمس وعشرين سنة كلها حروب لا هوادة فيها ، منذ سنة ١٤٢٢ م ، باتت البندقية آخر الأمر قبالة دوق جعل سلفه فيليبو ماريا فسكونتي يهدو طفلاً ساذجاً ، بالقياس إليه في الحيلة والبطش . ومن المعقول أنه لم يكن باستطاعة سفورزا أن يحدث ما أحدث من انقلاب ، وأن ينصبّ نفسه دوقاً في ميلان ، لولا انقلاب غير متظر في سياسة فلورنسا المجاورة . ذلك أن سفورزا لقي منذ أوائل عهده بخدمة الفسكونيين في ميلان مساعدة مالية متصلة من صديقه كوزيمو دى ميديتشى (Cosimo di Medici) ، وهو تاجر فلورنسى عاش منفياً عن بلاده فلورنسا مدة سنين ، ثم عاد إليها سنة ١٤٣٤ م ، ولم يلبث أن جعل نفسه الحاكم الفعلي للجمهورية الفلورنسية وقتذاك . وكان من رأى هذا الرجل الهادئ البصير أن البندقية — لا ميلان — هي العدو الحقيقي لفلورنسا ، لأنها هي التي تنافسها في مصالحها المصرفية وأسواقها التجارية ، بأنحاء أوروبا .

الواقع أن فلورنسا اشتهرت من الناحية الاقتصادية بمصارفها المالية (البنوك) ،

وتجارتها الضخمة ، فضلاً عن صناعة المنسوجات ، وهي بالإضافة إلى ذلك عاصمة روحية لأواسط إيطاليا، منذ غدت إيطاليا الوسطى إقطاعاً للبابا جريجورى السابع ، أواخر القرن الحادى عشر الميلادى . ثم إن فلورنسا كذلك مسقط رأس دانتي ، وموطن أسرة بترارك ، وأسرة بوكاشيو . وفى أثناء النضال بين الجولفيين والجليليين^(١) مال أهل فلورنسا إلى الجانب البابوى ، ثم إلى الجانب الفرنسى ، لأنهم اعتقدوا أن الرضا بالإمبراطورية فى أية صورة من الصور إثم لا يغتفر . ولما كانت أغراض فلورنسا غير مقتصرة على الدين والسياسة فحسب ، بل تهدف دائماً إلى الغنى والثروة ، فإنها أفادت أموالاً طائلة جزاء ميلها إلى الجانب البابوى ، بأن صارت مصرف الكرسى البابوى بأنحاء أوربا . غير أن النهوض بالأعمال المصرفية على مقياس كبير ، وهو ما نهضت به فلورنسا ، تطلب دخول الجهد وريّة الفلورنسية ميادين السياسة والديبلوماسية . ولذا أدّى اهتمام فلورنسا بالأعمال المصرفية إلى ارتباطها بعلاقات سياسية مع كثير من الحكومات فى مختلف البلاد ، وأضحت أسرة أكيايولى (Acciaiuoli) مصدراً لشخصيات بارزة فى دوائر السياسة ، وهى الأسرة التى سيطرت بأموالها على جميع المصارف الفلورنسية فى القرن الرابع عشر الميلادى ، وأشبعت بذلك أسرة روتشيلد فى القرن التاسع عشر الميلادى . وكان من الأكيايوليين رئيس وزراء فى ناپولى ، وحاكم فى مالطة ، وطاغية فى كورنثة ، وسلسلة من أدواق أثينا . لكن أهل فلورنسا أنفسهم ظلوا على حالهم متمسكين بروح المساواة المطلقة بين الناس ، فى كثير من الحماسة والتحامد ، وهذا برغم تطور أعمال فلورنسا المصرفية ، ونشاطها التجارى بين عواصم الدول الأوروبية . فعلى حين لم تسمح أية أسرة من الأسر الفلورنسية أن يكون لغيرها شىء من الأولوية عليها ، طمعت كل واحدة منها أن تكون هى الأولى دون غيرها من الأسر .

ووضحت هذه الصفات الدالة على التقارب والتحامد والطموح فى دستور فلورنسا ، وهو دستور تنقذه لزميات الحكم الصالح النظيم . ذلك أن هذا الدستور اكتظ بمواد لتحديد السلطات ، ووسائل للاستثناء من التحديد ، ومواد للانتخاب بالاقتراع ، ومواد لضمان تقصير ولاية المناصب التنفيذية ، ومواد لتركيز السلطة الفعلية فى النقابات الصناعية الكبيرة أو الهيئات التجارية . ولو لم يحرم النبلاء والعمال على السواء من الحقوق المدنية فى فلورنسا العصور الوسطى ، لاستطاع

(١) انظر ماسبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ١٩٤ ، حاشية ١ . زيادة .

الباحث أن يصف هذا الدستور الفلورنسي، العجيب بأنه ديمقراطية بورجوازية نظرية متطرفة، تقرب من الاختلال العقلي. فالجوفالونييري^(١) (Gonfaloniere)، (di Giustizia)، وهو رئيس الحكام (Signorio)، يتولى منصبه لمدة شهرين، وكل اقتراح لمجلس الحكام لا يصبح قانوناً إلا بعد إقراره بأغلبية ثلثي الأعضاء في خمس بلجان — أى مجالس — متفرقة. ويصعب على الباحث أن يتصور دستوراً أكد وأضمن من هذا الدستور، تخفض مستوى الحكم، وعرقلة سير الأداة الحكومية. وكان مما لا بد منه أن ينهار هذا الدستور عند أول محنة حتى إذا أحسّ الفلورنسيون خطر جيرانهم، وأدركوا أن مدينة فلورنسا وحدها لا تستطيع مقاومة هذا الخطر، وأن الاستيلاء على الأراضي المحيطة بها ضروري لتأمين صلاتها التجارية، عمدوا إلى إجراءات عملية سريعة، وأخذوا يغفلون كثيراً من حرفة القيود المعقدة في دستورهم العجيب، وهو الدستور الذي بلغ من تعلق الناس به أن أحداً لم يجرؤ على اقتراح بنده. وكان حزب الجولفا (Parte Guelfa) — وهو منظمة حزبية لم ينص عليها الدستور الفلورنسي — أول حزب من الأحزاب التي هدفت جديداً إن انتهاك روح الديمقراطية الفلورنسية، مع مراعاة حرفيتها. غير أن وسائل هذا الحزب للوصول إلى أغراضه لم تشمل على شيء من الرقة أو الحياء، بل أشبهت وسائله وأغراضه أسوأ أعمال عصابات المجرمين في بعض المدن الأمريكية الحالية؛ ولم تكن فلورنسا مدينة مشهورة بالهدوء والخضوع والخلو من الصخب، يوماً من الأيام. ثم أدت شناعة أعمال الجولفا — بالإضافة إلى سحق عمال الصناعة من كساد أحوالهم وقتذاك — إلى الثورة الشعبية الكبرى في تشيومبي (Ciampi)، سنة ١٣٧٨ م، وهي الثورة التي كفلت للنقابات الصغرى (Arti Minori) مكاناً في حظيرة الدستور. ومع أن حزب الجولفا خسر بعد ذلك جميع مظاهر نفوذه،

(١) المرادف لحرفي المتبادر لهذا اللفظ في اللغة العربية هو أمير علم، وهو في دستور دولة سلاطين المماليك بمصر المصور الوسطى أمير مملوكي يتولى أمر الأعلام السلطانية وترتيبها، في الركوب والاحتفالات. (انظر المقرئى: كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك — نشر زيادة — ج ١، ص ١٢٤، حاشية ١، وما بها من مراجع). غير أن هذا المرادف العربى لا يصلح لتأدية المراد هنا، لأن لفظ جوفالونييري جرى في مصطلح الفلورنسيين في العصور الوسطى بمعنى رئيس الحكام، مع العلم بأنه اسم مركب تركيباً مزجياً، مقطعه الأول من اللغة الألمانية القديمة، ومعناه "علم"، ومقطعه الثانى إيطالى ومعناه "مسك". انظر (Camb. Med. Hist. VIII, pp. 219-222)، لمعرفة تفصيلات دستور فلورنسا وحكومتها في ذلك العصر. زيادة.

بسبب شناعة أعماله ، لم يتحرك أحد لتعديل الدستور الفلورنسى ، بل ظل هذا الدستور موضع تعلق الفلورنسيين ، رغم استحالة تطبيق الكثير من موادّه ، ولم يزد عليه سوى أن الحاجة إلى تجاهله وإغفاله بالدوران حوله أصبحت ضرورة واضحة .

وفي هذه المرحلة من تاريخ فلورنسا انتقلت السيطرة على شئون المدينة — نتيجة ثورة أخرى — إلى أيدي أسرة فلورنسية ذات مكانة بارزة في التجارة والمال والوطنية ، وهي أسرة آلبيترى . وعرف آلبيترىون كيف يحفظون لأنفسهم قسماً وافراً من السلطة ، دون أن يخلقوا شعوراً بظلم ، أو يثيروا روحاً من سخط . ومن هؤلاء الأخوان ماسو ورينالديو اللذان حكما فلورنسا بحكم أصحاب التيجان ، من سنة ١٣٨٢ إلى ١٤٣٤ م . واطدأنت فلورنسا وتوابعها من المدن بإيطاليا الوسطى لهاتين الشخصيتين ، وما شملت فيهما من المقادرة على دقة البت في الأمور ، فضلاً عن الخبرة بشئون التجارة ، والاهتمام بالفنون والآداب ، والسخاء على الفقراء مع التسوة على الأثقياء ، والدأب على الظهور بمظهر المواطنين العاديين ، والحرص على إخفاء مصادر السيطرة . ومما مكن لهنّذين الأخوين في فلورنسا — بالإضافة إلى ذلك كله — أن الفلورنسيين أحسوا وقتذاك بخطـر خارجي عام ، إذ وافق حكم آلبيترىين ازدياد قوة ميلان على عهد جيان جالياـتزو وفيليبو ماريـا فسكونتي ، وأصبحت فلورنسا بحاجة إلى يد قوية لتسلم إليها دفعها راضية مطمئنة .

وفي هذه الأثناء شقت أسرة أخرى طريقها نحو مسرح الحوادث في فلورنسا وإيطاليا الوسطى ، وهي أسرة آل مدتشى التى فاقت بثروتها آلبيترىين ، واشتهرت منذ ثورة سنة ١٣٧٨ م بعطفها على المصالح الشعبية . ونشأ آل مدتشى في دوائر المال حتى غدوا أربابها ، والفضل كل الفضل لهؤلاء المدتشيـين المهرة الأعلام ، فيما بلغتـه فلورنسا من غنى ومعرفـة وسعة نفوذ ، في بلاط الملوك والأمراء بعواصم الدول الأوروبية . وبلغ من أهمية الخدمات المصرفية وضخامتها زمن آل مدتشى في فلورنسا أن صار من البدائـة المالية أن أى عجز يطرأ على المصارف المدتشية يهوى بجميع الأوضاع والنظم المالية — في أوربا — إلى مهاوى الانهيار . غير أنه إذا غدت الأعمال المصرفية هى الأساس الاقتصادى الذى أقام عليه آل مدتشى حكمهم في فلورنسا ، فإن المال لم يكن سوى عامل من العوامل الكثيرة التى اشتقوا منها نجاحهم وسلطانهم المديد . وإذا صار آل مدتشى أرباب مصارف وأموال ضخمة ، فإنهم ظلوا كذلك أرباب مزارع ومحاصيل زراعية ، وفي استطاعتهم مناقشة فلاحي

تسكانيًا ومسامرتهم في مسائل الماشية وأحوال المحاصيل ، مع الخبرة بالآداب والفنون ، والدراية بكل جلائل الأمور في سياسة الدولة ، ودقيق الصغائر وأحقرها في التآمر السياسي . وفي جميع ما درج عليه الآليتيون من سلوك في مختلف شئون فلورنسا — خطت عبقرية المدتشرين خطوة إلى الأمام ، على مقياس أكبر وخيال أوسع . غير أن الضرائب ظلت وسيلة لمساعدة الأصدقاء وإيذاء الأعداء ، كما ظلت الانتخابات موضع التلاعب . ثم إن حرفة الدستور الفلورنسي بقيت موضع الرعاية ، على حين أضحت روحه ومراميه موضع العبث والإغفال في كثير من البراعة ، ومهما تكررت الانتخابات أسفرت النتيجة دائماً عن عودة المرشحين المدتشرين . وتغافلت الديمقراطية الفلورنسية عن هذه المخالفات والاختلالات الصريحة ، لأن علو كعب المدتشرين في تصريف شئون الحكم ، وفخامة بلاطهم ، ورعايتهم للفنون رعاية سخية ذكية ، مع حرصهم على التخلق بأخلاق ممعنة في البساطة والتواضع والاختلاط بالناس — كل ذلك كفّل لكل من كوزيمو دي مدتشى وحفيده لورنزو سنوات رائعة من واسع السلطان .

أما نابولي — وهى المملكة العسكرية التى يكمل تصويرها تاريخ إيطاليا أواخر العصور الوسطى — فلم يوجد بين الدول الإيطالية ما هو جدير أو زعيم أن يفوقها في القوة والبطش ، مع العلم بأنه لم يكن بين الدول الإيطالية ما يمكن أن يشبهها في الضعف والهوان . وبدى أولاً أنه ليس ثمة علاقة بين مصائر دولة — كائنة ما تكون — وبين اعتدال أحوالها الجوى ، أو بهاء مناظرها الطبيعية ، أو أصالة النسب الذى ينتسب إليه أهلها . ثم إنه يبدو أن نوعاً من النحس وسوء الطالع لزم هذا الإقليم الإيطالى الجميل " الذى طاب للصوص وقطاع الطرق أن يجعلوا منه موطناً " (١) ، وطاب قبل ذلك أن يكون موطناً لأول قبس من نور الحضارة اليونانية القديمة شبه جزيرة إيطاليا ، حين حلت به جالية يونانية في القرن الرابع قبل الميلاد ، وهى الجالية التى بنت نابولي (Neapolis) — أى المدينة الجديدة . غير أن حضارة من الحضارات لم تقو على النمو والبقاء طويلاً في هذا الإقليم الذى غدا تكوينه الحضارى أشبه شئ بمجموعة (Palimpsest) من حضارات رغيدة تهدمت بعضها فوق بعض طبقات ، بعد إيناع

(١) اقتبس المؤلف العبارة الواردة بين الشوالات المقلوبة من مرجع لم يذكره ، ولم يستطع المترجم أن يهتدى إلى ذلك المرجع . زيادة .

كل منها زمناً ، دون أن تخلف واحدة منها شيئاً مذكوراً . ذلك أن الدولة الرومانية استولت على هذا الإقليم من اليونانيين أوائل القرن الثالث قبل الميلاد ، ثم استولى عليها القوطيون الشرقيون من الرومانيين في القرن الخامس الميلادي ، ثم أعادها جستنيان وجنوده إلى حظيرة الدولة الرومانية (الشرقية) أواسط القرن السادس الميلادي ، وظلت على حالها هذه حتى صارت دوقية مستقلة أوائل القرن الثامن الميلادي ، ثم مملكة نورمانية تشمل إقليم نابولي وجزيرة صقلية سنة ١١٣٩ م ، وهي مملكة الصقليتين . وحلّ الهوهنشتاوفن محلّ النورمانيين في هذه المملكة المزدوجة ، فأضحت نابولي وإقليمها وجزيرتها على عهد أولئك الهوهنشتاوفن أبهى وأرقى الممالك الأوربية وأحسنها حكماً ، في العصور الوسطى . غير أن قوة الهوهنشتاوفن تهدمت تحت مطارق النزاع والتخاصم فيما بين الإمبراطورية والبابوية ، وانتقلت مملكة الصقليتين على أيدي البابوات إلى حكم الفرنسيين ، وأواخر القرن الثالث عشر الميلادي ، في شخص الملك شارل آنجو ، أخى القديس لويس التاسع ملك فرنسا . ومنذئذ جاءت النحوس ترى في مملكة الصقليتين ، إذ دلّ الملك شارل آنجو على أنه طاغية أناني لا خير فيه ، فثار عليه الصقليون ثورة اضطبغت بكلّ ما هو معروف عن أهل صقلية من عنف وقسوة ، فذبحوا ما استطاعوا من جنده وحاشيته وموظفيه ، وغيرهم من سائر الفرنسيين رجالاً بأنحاء الجزيرة ، ثم أسلموا أمرهم إلى حليفهم بيتر الثالث ملك أراجونة ، وهو الذي اكتسب بزواجه من ابنة ما نفرد بن الإمبراطور فردريك الثاني هوهنشتاوفن حق المطالبة بإرث صقلية^(١) .

بهذا باتت مملكة الصقليتين الإنجوية الفرنسية قاصرة على إقليم نابولي ، وغدت صقلية تابعة لمملكة أراجونة . ومن ثم اشتعلت بين أسرقى آنجو وأراجونة حروب طويلة حامية باء فيها الأنجويون بالخسائر ، على حين بقيت صقلية في أيدي الأراجونيين ، وهم ثالث الدول البحرية القوية في حوض البحر الأبيض المتوسط . غير أن قصة النحوس بنابولي وجنوب إيطاليا لم تتمّ فصولاً بهذه الخاتمة ، لأن الأنجويين ظاوا أسرة عريضة الأطماع ضيقة التفكير ، يهتمون بمظاهر الحكم أكثر من اهتمامهم بشئون الحكومة . ثم إنهم لم يقنعوا بمملكة نابولي ، بالإضافة إلى

(١) انظر تفصيل ذلك في (Previté-Orton : A History of Europe. p. 92). زيادة .

(٢) انظر تفصيل هذه التطورات الهامة في تاريخ مملكة نابولي العصور الوسطى في

(Camb. Med. Hist. Vol. VII. pp. 62-64). زيادة .

كونتيتهم پروفانس الفرنسية ، بل راح فرعهم الأكبر يعمل للتملك فى بلاد المجر ، على حين بقى فرعهم الأصغر يحكم فى مملكة نابولى . ولم يَرْ لويس آنچو - بعد أن صار ملك المجر - أية غربة أو شذوذ فى التوفيق بين التناقض من الممتلكات على اختلاط أوضاعها الجغرافية والسياسية . فغزا إيطاليا أملا فى الجمع بين تملكى نابولى والمجر تحت صولجانة . ثم إنه على الرغم من نزول لويس آنچو عن هذا المشروع الأخرق ، وسأحه أن تظل مملكة نابولى فى فرع من الفرع الأنچوى الأصغر - أى شارل الثالث أمير دورازو وابنه لادسلاس وابنته جوانا الثانية (١٣٨٢ - ١٤٣٥ م) ، وهم الذين استطاعوا لعدم وجود ممتلكات لهم فى فرنسا أن يجانسوا بين مصالح نابولى ومصالحهم الشخصية - فإن الملكية الأنچوية استندت إلى قواعد هاوية . ذلك أن حقوق بيت دورازو ظلت غير مقبولة أو معترف بها فى صقلية ، أو فى پروفانس ، وأن ملوك نابولى من ذلك البيت واجهوا طبقة من البارونات الذين وجدوا فى التآمر مع الطامعين فى العرش من بيت مملكة أرجونة خير سبيل لتحقيق آمالهم الإقطاعية . وبسبب هذه الحال تعثرت الملكية الأنچوية فى نابولى بمختلف المعثر والعقبات الخطيرة ، على حين أضحت الملكية فى كل من فرنسا وإنجلترا مصدراً للقوة والوطنية . والخلاصة أن قيام أسرة ملكية أجنبية فى نابولى ، وتعاقب سلسلة من الملوك المستهترين والملكات الفاجرات أمثال جوانا الثانية على العرش ، واستمرار القلق الناجم عن تنازع الأنچويين والأرجونيين حول أحقية كليهما فى المملكة - كل ذلك جعل سياسة نابولى على عهد بيت آنچو أشبه شئ بمأساة درامية رخيصة . ثم وجدت نابولى أخيراً فى ألفونسو الخامس ملك أرجونة (سنة ١٤٣٥ م) حاكماً رشيداً ممتازاً بصفاته ، وسياسياً حازماً كريماً رفيع الثقافة ، من شاكلة ملوك عصر النهضة فى أوروبا ، وهو فضلاً عن ذلك قوى بما تحت يده من جيوش مرتزقة . ورأى ألفونسو أن أسرته لن تكون فى مأمن من خطر الفرنسيين إلا بحلف وثيق مع فلورنسا وميلان ، ونجح ألفونسو فى عقد ذلك الحلف الذى يعدّ فخرًا لسياسة نابولى فى القرن الخامس عشر الميلادى ، وهو فى الواقع السهم الوحيد الذى أسهمت به نابولى فى سبيل تحسين شئون إيطاليا السياسية . ثم انهار ذلك الحلف بعد وفاة ألفونسو (سنة ١٤٥٨ م) ، بسبب خيانة ميلان ، وافتتح بذلك فصل جديد من المتاعب والاضطرابات فى تاريخ إيطاليا عامة ونابولى خاصة ، وهو فصل اعتبره بعض المؤرخين لضخامة نتائجه خط التقسيم الزمنى بين العصور الوسطى والعصور الحديثة .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Ady, (C.M.) : A History of Milan under the Sforzas. Ed E. Armstrong 1907
- Armstrong. (E.) : Lorenzo de Medici and Florence in the Fifteenth Century, 1896.
- Butler, (W.F.T.) : The Lombard Communes. 1906.
- Horatio Brown : Venice, A Historical Sketch of the Republic. 1893.
- Trevelyan (Janet) : History of Italy, 1908.
- Sismondi (J.C.I.) : History of the Italian Republics. (Everyman's Library). 1907.
- Symonds (J A) : The Renaissance in Italy. (The Age of the Despot.) 7 vols. 1875-1886.
- Villani, (G.) : Chronicles. Selections. Tr. R.E. Selfe. 1896.
- Villani, (P.) : The Two First Centuries of Florentine History. Tr. L. Villani. 1894-1895.

الفصل السادس والعشرون

الأتراك العثمانيون

مواطن الضعف في الإمبراطورية البيزنطية بعد عودتها إلى القسطنطينية - العصبه القطلانية - نهضة الأتراك العثمانيين - البنى شارية (الانكشارية) - الصربيون - وقعة قوصوة الأولى - غزوة تيمورلنك - وقعة أنقرة - المجرىون - حنا هنيادى وانتصاراته الأولى على العثمانيين في البلقان - هزيمته النهائية في وقعة قوصوة الثانية - أثر الانقسام بين المسيحيين في سقوط القسطنطينية .

* * *

هانت الدولة البيزنطية هواناً ليس يرجى منه شفاء أو ينتظر ، بعد أن استولى اللاتينيون الصليبيون على عاصمتها ، وحاولوا حلها بمعظم أقاليمها^(١) ، وهى الإمبراطورية التى وقفت حائلا بين أوروبا وهجمات الشرقيين من المسلمين وغير المسلمين ، لعدة قرون . ولعل أقرب الأدلة على ذلك أن عودة البيزنطيين إلى عاصمتهم وبعض أقاليمهم في آسيا وأوروبا ، سنة ١٢٦١ م ، لم يعقبه شيء من عودة إلى سلطانهم القديم ، برغم ما أئنع بالدولة البيزنطية وقتذاك من نهضة ختامية متأخرة في حابة العلوم والآداب . ذلك أن أباطرة البيت الباليولوجى عادوا إلى إمبراطورية بيزنطية مختصرة ، ممزقة مبعثرة^(٢) ، وهى لشدة تمزيقها وضعفها لا تملك إلا أن تغرى جيرانها إغراء دائماً بالهجوم على أشلائها هى ، وكان هجوم أولئك الجيران دائماً في جراءة وجسارة . فبينما غدت أقاليم الأناضول منذ أجيال تحت سلطان التركمان من آل سلجوق في قونية ، وهى الأقاليم التى أمدت الإمبراطورية البيزنطية القديمة بالجنود والرجال . غدا كذلك معظم شبه جزيرة البلقان خاضعاً لسلطان البلغاريين . ثم إن بلاد اليونان ، خلا

(١) انظر ما سبق بالقسم الأول من هذا الكتاب ، ص ٢٤٦ - ٢٤٨ . زيادة .

(٢) انظر الخريطة بالصفاحة التالية هنا ، لمعرفة أسماء بعض الدوقيات والإمارات التى تكونت بمختلف الأقاليم البيزنطية ، غداة حلول الصليبيين اللاتينيين بالقسطنطينية ، وغيرها من أجزاء الإمبراطورية . ومن هذه الخريطة تتضح مساحات إمبراطوريتين بيزنطيتين طريدتين ، إحداهما في نيقية قبالة القسطنطينية ، وثانيتهما في طرابزون بأقصى الجنوب الشرقى من ساحل البحر الأسود . زيادة .

إقليم واحد بشبه جزيرة المورة (Peloponnese) ، غدت خليطاً من إقطاعات فرنجية — أى لاتينية — لا يونانية . ولم يبق للإمبراطورية سوى شريط ضيق من الأرض على الشاطئ الأسوى ، بالإضافة إلى مدينة القسطنطينية وتراقيا الغربية ، ومدينة سالونيك ، وخلقيدونيا الطراقية ، وولاية مامسترا في المورة ، وبضع جزر معدودة في بحر إيجه . ثم إن الإمبراطور لم يعد قادراً على حماية هذه الجزر من هجوم الهاجمين ، وهى على أية حال لا تبلغ في مجموعها مبلغ أهمية جزيرة رودس التى استولى عليها فرسان الاسبتارية^(١) — أى فرسان القديس يوحنا — سنة ١٣١٠ م .

وليس أدل على مبلغ الضعف الذى ران على الإمبراطورية البيزنطية ، أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، من قصة العصبة القطلانية ، وهى عصبة شرسة من جند مرتزقة ، تنم في كل ما يتصل بها عن مستقبل ملؤه نذر ومخاوف ثقيلة . وتكونت هذه العصبة من جماعة النبلاء القطلانيين الذين أخنى عليهم الفقر ، دون أن ينحني على جائش أطماعهم ، وهم الذين شاعت لهم المقادير فيما بعد أن يملأوا الآفاق بشهرتهم الحربية . وخبر أولئك النبلاء القطلانيون أول ما خبروا من حروب المرتزقة في نضال الصقليين من أجل استقلال صقلية عن الفرنسيين (١٢٨٠ — ١٣٠٢ م) ، فتعلموا كيف يقفون مواقف الأنداد في وجه فرسان إيطاليا وفرنسا ، حتى إذا اختتم ذلك النضال المرير دخلوا خدمة الإمبراطور البيزنطى . وتزعم هذه العصبة في العاصمة البيزنطية قرصان ألماني قديم اسمه رجار دى فلور (Roger De Flor) ، كان أبوه حارس الطير (Falconor) في بلاط الإمبراطور فردريك الثانى هوهنشتاوفن ، وكانت أمه إيطالية برندينزية ذات مال . وأغدقت الإمبراطورية البيزنطية على رجار هذا لقب جراندوق (أى دوق أعظم) ، ثم لقب قيصر

(١) الاسبتارية (Knights Hospitallers) إحدى جمعيات الإخوان الرهبانيين التى تكونت بالشام زمن الصليبيين بالشرق ، وهى معروفة كذلك باسم فرسان القديس يوحنا . وظلت هذه الهيئة تخدم أغرضها المسيحية حتى خرجت مع الصليبيين من الشام ، بعد سقوط عكا آخر المعاقل الصليبية ، سنة ١٢٩١ م . واستقرت الاسبتارية بجزيرة رودس . وأنشأت لها فروعاً بمختلف البلاد الأوربية ، وبلغت من الثروة والغنى والنفوذ ما جعلها موضع الحاسدين من المسيحيين والمسلمين . ثم استولى الأتراك العثمانيون على جزيرة رودس سنة ١٥٢٣ م ، فانتقل مركز الاسبتارية إلى جزيرة مالطة ، وظلت بها حتى استولى نابليون على تلك الجزيرة سنة ١٧٩٨ م . ومن ثم انكشبت هيئة الفرسان الاسبتارية ، وصارت فروعها تعرف بأسماء البلاد القائمة فيها ، مثل هيئة فرسان القديس حنا في إنجلترا (Knights of St. John) منذ سنة ١٨٢٧ م ، وهيئة فرسان القديس حنا في براندنبرج بألمانيا (Brandenberg Johanniterorden) منذ سنة ١٨٥٣ م ، كما انتقل مركز الاسبتارية إلى روما منذ ١٨٩٧ م . زيادة .

أى أمير^(١) من أمراء الإمبراطورية ، بعد أن تزوج من أميرة بلغارية . غير أن هذه الحمايلات - وما وأكثرها في القسطنطينية وقتذاك - لم تغن شيئاً عند رجار وأصحابه الغرباء المتغطرسين ، المشغوفين بالشحناء . والواقع أن رجار وعصبته فهموا سادتهم البيزنطيين تمام الفهم ، وأدركوا أنه لا حرج عليهم في دولة برّح بها الضعف أن يسفها في خدمتها أكبر سفه ، وأن يتطولوا على حكومتها وإمبراطورها أعظم تطول . ولذا اختاروا محاربة فرقة المرتزقة اللانين (Alans) - وهم أقوى فرقة بالجيش البيزنطى بالقسطنطينية - ، كما اختاروا مشاجرة الجنوية (Genoese) ، أهل جالاطا بالقسطنطينية كذلك ، - وهم الذين أمدوا البحرية البيزنطية بالسفن اللازمة للأسطول ، وهذا وذاك بدلان من الذهاب في حملة حربية ضد الأتراك السلاجقة ، والتعرض لمشاق الأسفار والعيش في ميادين القتال . ثم ألحت الإمبراطورية عليهم في الرحيل لهذه الحملة ، فلم يرحلوا إلا بعد أن استولوا على حصن جاليبولى لأنفسهم ، وهو مفتاح الدردنيل ، وإلا بعد أن حاصروا القسطنطينية سنتين (١٣٠٥-١٣٠٧ م) ، وهزموا الإمبراطور أندرونيق الثانى في معركة حامية .

وبينما هذه الأحداث تجرى في الدولة البيزنطية انتقلت دوقية أثينا سنة ١٣٠٨ م إلى أولتر دى برين ، وهو سليل عنيف مغامر من أسرة فرنسية اشتهرت بمغامراتها ، في كثير من بلاد الغرب والشرق في العصور الوسطى^(٢) . وانتهى بذلك الانتقال عهد مدته قرن من الزمان ، نعمت فيه أثينا بحكم أدواق من أسرة برجندية وديعة السلطان . ففي ساعة هي من ساعات النحس على دوق أولتر دى برين ، بقلر ما هي من طوابع السعد للإمبراطور أندرونيق الثانى ، دعا هذا الدوق بالحديد عصبة القطلانيين ، ليستعين بهم في إعادة نفوذ أثينا ودوقيتها على إقليم من أقاليم شمال اليونان . ورحّب القطلانيون بهذه الدعوة التي هيأت لغرامهم بالشحناء

(١) لا علاقة بين هذا اللفظ ومعناه الرومانى القديم ، إذ الواقع أن لفظ قبصر غدا شائع الاستعمال في الدولة البيزنطية للدلالة على أبناء البيوت الإمبراطورية الحاكمة . واتسع شيوع هذا الاستعمال ، فصار لقب قبصر يمنع البارزين في الدولة البيزنطية ، فضلا عن أمراء بعض البلاد التي امتدت إليها في عز أيامها ، مثل بلغاريا وصربيا وروسيا العصور الوسطى . زيادة .

(٢) أسهمت هذه الأسرة في حوادث الإمبراطورية التي تأسست في القسطنطينية على أنقاض الإمبراطورية البيزنطية ، بعد حوادث الحملة الصليبية المعروفة بالرابعة سنة ١٢٠٤ م ، فقام حنا دى برين إمبراطوراً في القسطنطينية ، كما قام ولتر دى برين المذكور هنا دوقاً في أثينا . انظر تفصيل ذلك في (Camb. Med. Hist. IV. pp. 427, 449-454-475, 488, 489, 608) . زيادة .

فرصة من نوع ما اقتربوا منذ أيامهم الأولى بجزيرة صقلية ، وكان من أديهم إما أن يشاحنوا غيرهم أو يشاحنوا بعضهم بعضاً . ولذا هبط القطلانيون إلى شمال اليونان وأيديهم مخضبة بدماء أحد عشر ضابطاً من ضباط عصبهم ، وأعملوا خناجرهم الطويلة في اليونانيين سنة كاملة ، هي مدة خدمتهم المتفق عليها . ثم تراءت لهم سهولة العيش في تلك البلاد الحصبة الخضراء ، فرفضوا الرحيل عنها إلا بشروط لم يستطع دوق وُلتر قبولها ، وأقسم قسماً مغالطاً أن يخرجهم من بلاده على وجوههم . غير أن المقادير شاءت مشيتها دون هذا القسم العظيم ، ففي سهل بوئيشيا — وهو ما يرى زائر أثينا عن يمينه حين يعبر التلال الأثينية إلى وادي نهر كفيوسوس — وقعت واقعة أودت بحياة الدوق (مارس سنة ١٣١٠ م) ، وألقت بدوقيته في قبضة القطلانيين مدة أربع وسبعين سنة . ذلك أن القطلانيين — وعدتهم ستة آلاف وأربعمائة رجل معظمهم من المشاة — لم يخشوا ما عسى أن يقوم به وُلتر لتنفيذ قسمه ، فعسكروا في سهل بوئيشيا بين حقول القمح الخضراء ، وجعلوا من أنفسهم هدفاً مغرياً لخصيمهم وأعداده المتفوقة . وفصل بين الفريقين أرض واطئة حرثها القطلانيون حرثاً عميقاً أول قدومهم إلى هذا السهل ، ثم غمروها بماء من نهر كفيوسوس حتى صارت مستنقاعاً متوحلاً تعلوه خضرة حديثة ، يخيل للرائي أنها مرج من المروج . وتقدم دوق وُلتر وجنوده نحو هذا الوحل المخجوء ، ففاصت الخيل حتى بطونها ، وعجزت الخيالة عن الحركة . وانهاled القطلانيون بخناجرهم الطويلة ، فذبحوا وقتلوا ما شاءوا من ذبح وقتل ، فكانوا بذلك — وهم مسيحيون كاثوليكيون — أكثر وحشية من الفرس الأقدمين ، في حروبهم القديمة ضد اليونانيين .

وفيا وراء الشاطئ الآسيوي لبحر مرمرة ، كانت قبيلة من قبائل الأتراك الضاربة بين تلال بيشنيا تتأمل عجائب المقدور في أخبار القطلانيين ، الذين غلبوا فئة كبيرة من الفرسان بفئة قليلة من المشاة . وقال أولئك الأتراك العثمانيون إن أى جيش من الجيوش — بالغاً ما يبلغ من القوة — يستطيع النهوض بالمعجزات ، ما دامت به فئة من المشاة المارئة على النظام . الواقع أن انتصار المشاة القطلانيين في بوئيشيا علم الأتراك العثمانيين درساً أرسخته الأيام في رموسهم الرزينة الواعية ، فلم يلشوا أن أعدوا هم كذلك جيشاً عماده المشاة ، واستولوا على حصن جاليبولي ، وهزموا الإمبراطور البيزنطي أندرونيق الثالث وجنوده ، ووطئت أقدامهم المظفرة أرض

أثينا والأكربول ، ليسودوا فيها وغيرها من بلاد اليونانيين ، لعدة قرون .
على أن تاريخ الأتراك العثمانيين لا يعدو أن يكون في أوله تاريخ عشيرة من
رعاة الأغنام والماشية ، إذ أخذت هذه العشيرة تجمع إليها شيئاً من القوة والنفوذ
على مرّ الأيام ، ثم استطاعت بفضل ما توفر في أهلها من صفات الأناة والعدالة
— الممتزجة بكثير من القسوة والدهاء — أن تجتذب إلى خدمتها أقواماً يختلفون
بعضهم عن بعض تمام الاختلاف . وبذا غدت هذه العشيرة التركية العثمانية في حال
أمكنها من القيام على فتوح هائلة سريعة ، والنهوض بإمبراطورية إسلامية قوية وطيدة
الأركان . وفي صورة مصغرة لما سوف تتمخض عنه الحوادث ، رسم عثمان — وهو الذي
تنسب إلى اسمه هذه العشيرة — بعض الخطوط الرئيسة في السياسة المستقبلية التي سار عليها
أخلافه . على أن مسرح نشاطه اقتصر على مقاطعة بيشينيا ، إذ أغرته أطرافها
الحالية من وسائل الدفاع الإمبراطوري بشنّ الإغارات الخاطفة على البيزنطيين
المسيحيين ، باعتباره أميراً في خدمة السلطان الساجوقى علاء الدين كيقباد الثالث ،
ثم بصفته — بعد سنة ١٣٠٧ م — أميراً مستقلاً بهذه المقاطعة تمام الاستقلال .
وسار عثمان على هدى إيمان عميق وبساطة في الدين ، وبني سياسته على مشورة
الفقهاء المساميين ، وحكم بين الناس حكماً عادلاً يوجب الالتفات في تلك العصور
الطافحة بالبحر والعنف ، وما يتولد عنهما من الرشوة والمحسوبية وبيع الذمم . ورأى
عثمان بثاقب بصيرته — وهو المسلم المتحمس لعقيدته — أنه مع التسليم بصلاحيّة
الشرعية المحمدية أن تكون قاعدة لصروح دولة عظيمة ، فإن عشيرة تركية لن
تستطيع أن تنهض وحدها بتأسيس هذه الدولة ، وأن سبيل النجاح في هذا المضمار
يتطلب مصاهرة الدول المجاورة ، واستجلاب الرقيق من مختلف البلاد ، واستخدام
المغامرين الذين تستهويهم الشهرة في ميادين القتال . ومن ثمّ اختار عثمان لنفسه
زوجة مسيحية من قிலقيا ، وزوج ابنه من فتاة مسيحية ، كما اتخذ من ميخائيل
ذى اللحية المفرجة (Michael Fork Feard) — وهو بيزنطي مرتد عن المسيحية — نائباً
له في ميادين الحروب .

وأتمّ أورخان — وهو أكبر أبناء عثمان — ما بدأه أبوه من فتح بيشينيا ، فانتقلت
نيقية (إسك الحالية) سنة ١٣٢٩ م ، ونيقوميديّة (إزمّت الحالية) سنة ١٣٣٧ م ،
إلى أيدي العثمانيين ، بعد حرب ليّنة هينة ، ضدّ جيوش إمبراطورية نخرت في
شجاعتها السنون . ووضح من سهولة هذه الحرب ، ومن عيوب الخطة الإمبراطورية

قبالة هاتين المدينتين الشهيرتين ، أن باستطاعة أورخان — أو أى قائد كائناً من يكون — أن يثني على ما استقام له من ظفر في آسيا الصغرى بالهجوم على الأجزاء الأوربية من الدولة البيزنطية الخائرة . غير أن أورخان لم يكن قائداً من قادة الحروب فحسب ، ولذا صرف السنوات العشرين التي أعقبت استيلاءه على نيقية ونيقوميديا في مدينة بروصة . عاصمته البيشنية الجميلة ، حيث عكف على تنظيم دولته تنظيمًا جعل هذه السنوات أعظم مرحلة في تاريخ الدولة العثمانية . فبدلاً من محاربة الجيران بساحل آسيا الصغرى ، أو مهاجمة الأقوام بشبه جزيرة البلقان ، انصرفت حكمة أورخان ، وانصرفت همه المحيطين به ، إلى بناء المساجد والمدارس والمشافي والفنادق للتجار . وربط أورخان العملة الرسمية للدولة ، واختار الزئى القوي للرأس (وهى طاقة من جوخ أبيض) ، فضلاً عن تنظيم الجيش ، وهو أهم هذه الأمور جميعاً . ولهذا المرحلة التى استعاض فيها أورخان عن الحروب والفتوح بالإقامة في بروصة ، ترجع الفياثى العسكرية التى جعلت الأتراك العثمانيين مصدر العرب في شرق أوروبا لعدة قرون ، وهى فياثى الإيكنجية ، أى فرق المناوشة الخفيفة ، وفياثى الفرسان الإقطاعيين ، وفياثى الحرس السلطانى ، وفياثى المشاة ذات الشهرة الهائلة ، وهى الينى^(١) شرية التى يتطلب الموضوع هنا شرح تاريخها .

ومعنى الينى شرية الجنود الحديد ، وهم جميعاً أطفال مسيحيون انتزعهم العثمانيون انتزاعاً من مختلف البلاد التى خضعت لحكمهم ، ثم علموهم الإسلام في مدارس ربّوا مناهجها لتمحو كل أثر من آثار أصولهم وعواطفهم المسيحية الأولى ، وتجعل منهم أدوات طوع مشيئة الدولة والسلطين . وخصّص العثمانيون بعض الينى شرية لوظائف الغلمان بالقصر السلطانى ، وأولئك غدوا أتمس إخوانهم حظاً ، على حين عينت الدولة بعضاً آخر منهم لوظائف الحكم والإدارة المدنية . أما الجزء الأكبر من الينى شرية فأضحى فياثى المشاة ، وهى التى بلغ من شجاعتها وتفانيها في الحروب أن وجود فرقة واحدة منها ، في أى جيش عثماني . كان ضميناً باستماتة هذا الجيش كله في ميدان القتال . ويتضح من هذا أن الينى شرية نشأوا أرقاء

(١) دأبت الكتب المتداولة في اللغة العربية على تسمية هذه الفرقة باسم الإنكشارية ، مع أن اللفظ في صيغته الأوربية (Janissaries) ، بله صيغته التركية ، يدل دلالة راضحة على أن الصيغة المثبتة بالثنى هنا هى التى ينبغى استعمالها . زيادة .

— أو أشباه أرقاء — متجردين من جميع المؤثرات السلمية الإنسانية التي تهذب الطباع ، محرومين من جميع الصفات المكتسبة التي تفتح العقول ، بعيدين عن جميع المثل العليا التي تحرك الإرادة . ومرجع ذلك كله صرامة النظام الذي نشأ فيه الفرد منهم ، وتقيده به تقييداً محاضيه محوياً يكون تاماً ، وجعل أفق مستقبله محدوداً بالحروب . ذلك أن النبي شى تعلم أن ينسى أباه وأمه وإخوته وأقاربه ، وأن يعيش دون أمل في زوج وبنات وبنين ؛ فالشكنة العسكرية مأواه ، والحرب مهنته ، والقرآن عقيدته ، وما عليه إلا أن يمضى في قتال أعداء السلطان أعداء الله ، بروح رهبانية ملؤها حماسة متأججة وتعصب ركيز .

أما الاقتراح بتكوين النبي شرية من أطفال مسيحيين — تجمعهم الدولة جزية من مختلف البلاد الخاضعة لحكمهما — ، فيقال إن مصدره هايبيل الأسود ، وزير أورخان ؛ ومن الواضح أنه لولا هذه الجزية ما استطاعت الدولة العثمانية أن تجد مورداً دائماً لتجنيد هذه الفياق في نظام . ويستخلص من هذا أن الإمبراطورية قامت وظلت قائمة ، لا بفضل رجال من العثمانيين فحسب ، وأولئك لم يكونوا كثرة في الجيوش العثمانية ؛ بل كذلك بفضل رجال معظمهم صقالبة الأصل ، ولدتهم أمهاتهم مسيحيين ، ثم جرى بهم إلى مدارس النبي شرية ، حيث طبعوا بطابع الخضوع العسكري والعقيدة الإسلامية . وليس في استطاعة باحث أن ينكر أن أعظم رجال الإمبراطورية العثمانية جاءوا إلى هذه المدارس ، بعد انتزاعهم من أهلهم المسيحيين . وبينما يمضى العثمانيون في بناء دولة هذه أدواتها وقواعدها في غرب آسيا ، أخذت دولة جديدة أخرى تتحرك حركات عنيفة في البلقان ، وتنفذ أعظم الفوائد من الحروب الأهلية والفوضى الضاربة بين البيزنطيين . وهذه هي دولة الصربيين الذين شبههم كاتب حديث بالاسكتلنديين الكلتيين سكان اسكتلندا الوسطى والشمالية ، كما شبه البلغاريين بالاسكتلنديين سكان سهول اسكتلندا الجنوبية . والواقع أن التاريخ الصربي يكشف عن أمة ذات شجاعة وجراحة مشوبة بالقلوب ، وبفضل زعيمها ستيفن دوشان — وهو جندي بارع ومشروع قدير وسياسي ماهر ، ومرتبته في مرتبة قلائل العظماء الذين ألهموا أهمهم إلهاماً ، ونفخوا فيها من روحهم الطامحة إلى المجد — امتدت الدولة الصربية من نهر دانوب إلى بحر إيجه ، بفتح ألبانيا وإيرس وتاليا . غير أن هذه الفتوح التي انطبع في عقول الصربيين انطباعاً لا تمحوه الأيام ، لم تشيع طموح زعيم متوثب في أمة وثابة ، ولذا اتخذ ستيفن

دوشان لنفسه لقب إمبراطور — إشباعاً لطموحه الذى مدّته توفيقاته فى ميادين الحرب والتشريع والسياسة ، وحتى تراءى له أن أحلامه لن تتحقق إلا بإخضاع البيزنطيين لإمبراطوريته^(١) .

ثم توفى ستيفن دوشان سنة ١٣٥٥ م ، وتوفيت معه أحلامه كلها ، دون أن يحقق هو منها شيئاً . وفى سنة ١٣٥٦ م ، — وهى السنة التى شهدت وقعة پواتييه بين فرنسا وإنجلترا^(٢) — عبر سليمان ولى عهد أورخان مضيق الدردنيل ذات ليلة مقمرة من ليالى الخريف ، ونزل شبه جزيرة جاليپولى ، وبهذا أسس أول جالية تركية عثمانية فى أرض أوربا . وذات يوم بعد ذلك بقليل خرج سليمان ليلهو بصقوره فى مرج قريب من بلدة بولير ، فكبا به فرسه كبوة أردته صريعاً ، ودفن حيث لقي حتفه . ولماة من السنين — على قول فون هامر مؤرخ الدولة العثمانية — ظل سليمان هو الأمير العثمانى الوحيد الذى ضمت رفاته أرض أوربية ، وغدا قبره مدعاة العثمانيين لتأدية حجيجهم إلى أوربا بسبب منصورة فاتحة . وليس بين قبور الأبطال التى ترتبط بالتاريخ العثمانى قبراً أجل شهرة ، أو أكثر مزاراً ، من قبر ذلك المؤسس الثانى للإمبراطورية العثمانية ، فهو قيصر الدردنيل ، وهو حجر الأساس فى بناء إمبراطورية العثمانيين بأوربا .

وفى سنة ١٣٥٩ م تولى مراد الأول — وهو أخو سليمان — حكم العثمانيين ، بعد وفاة أبيهما أورخان ، فلم تلبث أوربا أن أدركت ما لم تدرك قبلاً ، وهو ضخامة القوة التى نمت نمواً متصلًا مدة جيل ونيف بالدولة العثمانية الصغيرة — فيما وراء الدردنيل . ذلك أن مراداً عبر الدردنيل إلى شبه جزيرة جاليپولى ، فأبغى الانتصارات كأنما تسعى إليه سعيًا ، إذ استولى على سالونيك وأدرنة — وهما أكبر مدن الإمبراطورية البيزنطية بعد القسطنطينية — فى سهولة توحى بأن هذه الإمبراطورية وشبكة الزوال . لكن مراداً كان بصيراً حاذراً كأبيه أورخان ، فرأى أنه بحاجة إلى شيء من الأناة والسلام ، ريثما يدعم فتوحه الأوربية . بأن يجعل من أدرنة البيزنطية عاصمة عثمانية إسلامية ، ويدخل فى تركية أوربا نظام الإقطاعية الحربية التى استمد العثمانيون منها فيالق الفرسان ، حتى إذا تحققت هذه الأهداف ،

(١) انظر هذه الأحلام وتطوراتها فى الفصل السابع والعشرين من (Camb. Med. Hist. IV. p. 517 et seq.) ، حيث وصف ستيفن دوشان بأنه نابليون الصربيين . زيادة .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ٣١٨ . زيادة .

وتوطدت سيادة السلطان في آسيا الصغرى ، غدا الزحف على القسطنطينية وبلغراد أمراً معقولاً . ولم يخش مراد أن تنبس الإمبراطورية البيزنطية بحركة إبان اتجاهه إلى تحقيق أهدافه هذه ، فالإمبراطور مانويل الثاني باليولوج (١٣٩٠ - ١٤٢٥ م) لين العريكة ، مذعان لمشيئات المقادير ، وروح البيزنطيين منحطة متخضعة ، وليس من المنتظر أن تجد المسيحية معيناً أو نصيراً ضدّ العثمانيين المسلمين إلا في الشمالى الغربى من البلقان ، حيث ظلت الدولة الصربية على شيء غير قليل من القوة . ولئن مات ستيفن دوشان ، فإن قبساً من روحه ظل مشتعلًا في صدر ابنه الملك لازارس ، إذ اهتبل هذا الملك فرصة انصراف السلطان مراد إلى حروبه المظفرة ضد أعدائه من الأتراك في آسيا الصغرى ، وتزعم حلفاً عظيماً من الأمم الصقلية المسيحية بالجنوب الشرقى من أوربا سنة ١٣٨٧ م ، لتحطيم العثمانيين المسلمين . وامتلأت معسكرات هذا الحلف المسيحى العظيم بجند الصربيين والبلغاريين والبوسنيين والألبانيين والبوانديين والمجريين والمغوليين أصحاب دبروجه^(١) ، على حين خلّت من جند الأمم الأوروبية الكبيرة ، اللاتينية منها والبيزنطية سواء . ومن السير على الباحث أن يتوقع أن جيشاً مرتجعاً ، يرطن كل جزء من أجزائه السبعة بلسان خاص به ، لن يستطيع مهما بلغت أجزاؤه وفرداته من الشجاعة ، أن يقف لجيش تركى عثمانى قديم العهد بالحروب ، وهو جيش جعله التنظيم الصارم والمران الطويل وحدة عسكرية هائلة . وهذا هو عين ما تجلّى (شهر يونية سنة ١٣٨٩ م) في وقعة قوصوه الأولى^(٢) ، وهى التى خلدها الصربيون فى بعض ملاحهم الشعرية الدامية ، إذ انتصر العثمانيون انتصاراً ميبئاً على جيوش الحلف المسيحى العظيم ، برغم فقدانهم ساطانهم مراد قبل بداية القتال ، بطعنة وطنى صربى غادر ، وهى طعنة كلّفت الصربيين ذبح ملكهم لازارس .

ولاشئى عشرة سنة بعد هزيمة الصقلية فى قوصوه الأولى ، سار العثمانيون من نصر إلى نصر فى غير انقطاع ، بقيادة بايزيد الأول (يلدزم) ، فتغيرت

(١) دبروجه إقليم من أقاليم رومانيا الحالية ، وفى العصور الوسطى جاءت طائفة من مغول القبيلة الذهبية تبتغى استيطان جزء من أجزاء البنقان البيزنطى ، فاستقلوا بهذا الإقليم المطل على البحر الأسود . زيادة .
(٢) انظر (Camb. Med. Hist. IV. p. 528) ، لتفصيلات وقعة قوصوه الأولى . ولإصاق صفة الأولية على وقعة قوصوه هذه ضرورى ، تمييزاً لها من وقعة قوصوه الثانية ، سنة ١٤٤٨ . انظر ما يلى هنا ص ٤٥٤ . زيادة .

أحوال أم كثيرة ، وتهدمت جيوش صليبية عظيمة ، وهي جيوش جاءت من غرب أوروبا خصيصاً لحرب العثمانيين (وقعة نيقوبوليس ، ٢٨ سبتمبر سنة ١٣٩٦ م) (١) . وامتدت أطراف الدولة العثمانية بعد نيقوبوليس إلى الدانوب والفرات ، وكل ذلك على يد السلطان بايزيد الأول ابن مراد ، وهو السلطان الذى استهل سلطنته بقتل أخيه وقسيمه فى مجد قوصوه الأولى . وذلك بعد الوقعة بساعات .

والخلاصة أن بايزيد الأول بدا ، فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، كأنما بلغ من المجد أقصى ما يستطيع أى إنسان أن يبلغ . وكيف لا يكون ذلك والنصر خديم رايته الدموية الحمراء حيث رفرفت ، فى الجبهة الأوربية أو الجبهة الآسيوية سواء . وذات يوم جلس السلطان بايزيد الأول بقصره الناعم الرغيد بمدينة بروصة ، ونظر فى أرجاء الدولة العثمانية حوله ، وتأمل فيما أفاءت عليه الانتصارات الحربية المتتابعة من نعم وحريم ، وأرقاء مسيحيين ، وبنى شرية أبائهم مسيحية ، وسلاجقة بلادها خاضعة تابعة ، وبيزنطيين فى الجبن والصغار غارقين ، فضلا عن شبكة قوية من ممتلكات واصله بين قارتين متراميتين . وتراءى لبايزيد الأول أن الساعة أذنت للنهوض بآخر ما وجب عليه من مجهود ، وهو الحلول محل البيزنطيين فى القسطنطينية ، صلحاً أو عنوة سواء . وفى سبيل ذلك طلب بايزيد من الإمبراطور مانويل الثانى تسليم القسطنطينية ، ومبارحتها إلى غير رجعة سنة ١٣٩٧ م (٢) ، فرفض مانويل طلبه هذا بصمت لإمبراطورى طويل ، وأخذ بايزيد يعد العدة ليضرب العاصمة البيزنطية ضربة قاصمة .

غير أن القسطنطينية نجت من هذه الضربة القاصمة التى أئذرت بها قبضة بايزيد ، إذ أسعفتها المقادير بكارثة جعلت بايزيد لبضعة قرون عبرة خالدة لتقلب الخطوط ، وبدا نعمت القسطنطينية بسلام من ناحية العثمانيين لخمسين من السنين . ومصدر هذه الكارثة هبوط الصاعقة المغولى تيمور من أقصى الشرق الآسيوى ، على رأس جمحافله من الخيالة الراكبة إلى غرب أوروبا ، واقترابه من تخوم الأراضي العثمانية . وتيمور هو الأشيب الأعرج - تيمورلنك - الذى ملأ

(١) انظر (Atiya : The Crusade of Nicopolis, Methuen, 1934) ، لمعرفة نتائج هذه الوقعة التى جعلت العثمانيين مخافة أوروبا ، لعدة قرون . زيدة .

(٢) ذكر المؤلف هنا سنة ١٤٠٠ م ، والمعروف حسبما ورد فى (Camb. Med.Hist. IV. p. 67) أن مانويل الثانى صرف معظم هذه السنة متجولاً بين العواصم الأوربية ، ليبحث عن نجدة لإنقاذ القسطنطينية من تهديدات بايزيد الأول ، منذ ١٣٩٧ م . زيادة .

الآفاق بمهارته العقلية في لعبة الشطرنج وعلوم الفقه الإسلامى ، وخطط الحرب والفتح والنصر ؛ بل هو أكبر أستاذ عرفه تاريخ البشرية في فنون التخريب ، من تركستان إلى الهند ، ومن العراق إلى الشام . وبلغ بايزيد من الطيش أحرقه حين استجلب غضب هذا المحرّب الذى دانت له دلهى وسمرقند ، وبغداد ودمشق . ودفع العثمانيون ثمن طيش السلطان بايزيد غالياً ، في سهل أنقرة (٢٠ شهر يولية ، سنة ١٤٠٢ م) ، حيث وقع الجيش العثمانى ، ذو الانتصارات الكثيرة المتتابعة ، في فخ هائل من الخيالة المغولية الساحقة العدد . وأبيد هذا الجيش العثمانى عن آخره ، ووقع بايزيد نفسه أسيراً في يد تيمور لnk . وبينما يقطع بايزيد الفيافى أسيراً ، محمولاً في قفص من حديد إلى سمرقند ، انثال المغوليون المنتصرون غرباً لتخريب عاصمته بروصة ، وتزريق ممتلكاته حتى سواحل الدردنيل وبحر إيجه .

ثم نهضت الدولة العثمانية من كبوتها العظمى نهضة غريبة ، تشبه في غرابتها عجز الدول المسيحية عن استغلال هذه الكبوة لفائدتها . والواقع أن أحوال الدولة العثمانية بعد وقعة أنقرة بدت يائسة كل اليأس ، إذ فقد العثمانيون جميع ممتلكاتهم في آسيا ، وبات سلطانهم أسيراً ، وأضّ أبناءه يحارب بعضهم بعضاً من أجل ميراثه . لكنهم تعوضوا عما فقدوا في آسيا بما بقى لهم في أوروبا ، حيث غدت أدرنة مدينة إسلامية منذ أيام مراد الأول . وفي هذه المدينة — وهى العاصمة العثمانية الجديدة — تركّزت جميع المقومات اللازمة للنهوض بالدولة وأصول الحكم ، من خبرة ماضية ، وشجاعة لا تنكر ، ومثابرة شهدت الأجيال بتأصلها في قلوب العثمانيين . وفي هذه المدينة كذلك — ولدة أربعين سنة — نمت نواة الحكومة العثمانية الجديدة ، فتكونت فئات الموظفين ، وفيالق الجند ، وطوائف رجال القانون ، وعلماء الدين والمخلفين ، وتأسست المحاكم ، ونهضت المدارس العسكرية لتعليم البنّى شرية ، وظهر القادة المنتشعون بروح النعرة الحربية القديمة . وكانت أدرنة — بفضل وضعها الجغرافى وسط بلاد معظم أهلها على المسيحية — مركزاً طبيّاً لجمع أبناء المسيحيين للتجنيد ، ولم يدر الأباطرة البيزنطيون أن هذه العاصمة العثمانية الجديدة سوف تشهد عن قريب انطلاق السلطان محمد الأول (١٤١٣ — ١٤٢٢ م) ، والسلطان مراد الثانى بعده (١٤٢٢ — ١٤٥١ م) ، في سبيل إحياء الإمبراطورية العثمانية .

وما يدل أوضح دلالة على اضطراب الحال في أوروبا الغربية وقتذاك أن محاولة

أوربية واحدة لم تنهض للإفادة من كارثة العثمانيين ، إلا بعد أربعين سنة من وقعة أنقرة . ومعنى ذلك أن فرصات ذهبية متعددة ، حين كان العثمانيون بغير جيش أو سلطان ، ضاعت كلها سدى . الواقع أن الدول الأوروبية الغربية لم تلتفت إلى تبعاتها الجسام ، إزاء الخطر العثماني الراض في شرق أوربا ، إلا بعد أن أعاد مراد الثاني تكوين الجيش وتنظيم الدولة ، وجعل الحياة في بلاد المجر فوق المحتمل ، بسبب اعتدائه المتكررة على المجرين ، للحصول على الرقيق المسيحي اللازم لأغراض التجنيد .

لذا أضحي المجرئون أول الدعاة إلى حرب صليبية جديدة ، لأن أمهم غدت أكثر الأمم خوفاً وخشية من إحياء سلطان الأتراك العثمانيين . والمعروف أن المجرين من أبسل الأمم الحربية وأصلها عوداً في أوربا ، وأنهم على جانب عظيم من صفات الثبات والمتانة والرصانة ، شأنهم في ذلك شأن العثمانيين الذين تربطهم بهم رابطة الجنس ، ولكنهم يتصفون بصفات عالية أخرى ليست في العثمانيين ، وهي مما تمتاز به بعض الأمم ذات الخيال الواسع والموهبة الخصبية . واستطاعت الأمة المجرية الباسلة — برغم تأخرها في حلبة الحضارة — أن تتقدم خطوات واسعة في سبيل الوحدة الحربية والتجانس ، بعد أجيال من العصبية القبلية المتنافرة ، والأرستقراطية الإقليمية المتناحرة ، كما استطاعت أن تدرج في مدارج عمرانية في ميادين الإدارة والحكم وشئون المال والقضاء ، بالإضافة إلى قواعد سياسية هدفها السيطرة على البلقان وبولندا وبوهيميا — كل ذلك على عهد ملكين قديرين من ملوك البيت الأنجوى ، وهما شارل روبرت الأول (١٣٠٩ — ١٣٤٢ م) ، ولويس العظيم (١٣٤٢ — ١٣٨٢ م) . ذلك أن كلا من هذين الملكيين استطاع أن يحدد من فوضى الأرستقراطية المجرية الشاغرة ، وأن ينظم نشاطها تنظيمًا يكفل توجيهها لفائدة المجرين . ولهذين الملكيين اللذين جرت في عروقهما الأنجوية الفرنسية دماء نابوية إيطالية تدين بلاد المجر بكثير من نظم الفروسية الفرنسية ، وشيء غير قليل من مظاهر الرفاهة الإيطالية ؛ إذ شيدوا القصور المنيفة ، وزينوا البلاط الملكي بحاشية فخمة ، وحياة اجتماعية بهيجة ، وعنوا بتنظيم مواسم المبارزات وحفلات الفروسية ، وكونوا الجيوش الإقطاعية ، واجتذبوا إليهم نبلاء المجرين ، عن طريق إنشاء الرتب العسكرية . وإغداق الإنعامات السخية . غير أن الحكومة المجرية التي غدت بسبب هذه التنظيمات الكثيرة في حاجة إلى ملك ناشط ، منصرف بكل نشاطه إلى أمور الحكم ، لم تلبث أن آلت مقاليدها بعد

وفاة لويس العظيم إلى زوج ابنته ماري ، أى سجسمند ملك بوهيميا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة^(١) . وهو — بالقياس إلى غيره من ملوك أوروبا جميعاً — أقلهم طاقة على تركيز همته في شئون المجر وحاجاتها ، للدفاع عن نفسها في الحروب .

ذلك أن سجسمند — وهو ملك المجر بحق زواجه من ماري المجرية ابنة لويس العظيم ، وهو كذلك ملك بوهيميا وإمبراطور الدولة الرومانية المقدسة ، ظلّ في شغل شاغل عن المجر وأمورها ، بأمور بوهيميا والإمبراطورية ، إلى درجة جعلت من المستحيل عليه أن ينصرف إلى الدفاع عن دولة بلغ الخطر عليهما من ناحية العثمانيين مبالغاً كبيراً ، بل أضحي الدفاع عنها لا يحتمل هواة أو تأجيلاً . ولذا غدت سياسة سجسمند نحو المجر ، بعد هزيمة نيكوبوليس^(٢) ، متراخية فاضحة فاترة متقطعة ، فبقى يملك ولا يحكم بين المجرين . وظلت الجيوش المجرية قابضة في بيوتها بغير عمل ، مع أن الدولة العثمانية عدوة المجر أمست جثة هامدة من ضربات تيمورلنك ولطماته ، ومع أن هذه الجيوش المجرية كانت قادرة على مواجهة العثمانيين وجيوشهم ، لو أن قيادة أتيحت لها في ملك غير سجسمند .

ثم تغيرت هذه الحال كلها بعد وفاة سجسمند سنة ١٤٣٧ م ، بظهور عبقري من العباقرة بين المجرين . ففي خلال حروب السلطان مراد الثاني لاسترداد الممتلكات العثمانية في أوروبا ، اكتشف المجرين في حنا هنيادي جندياً عظيماً ، وهو على المشهور ابن غير شرعي للملك سجسمند ، من أم مجرية . ودلّ حنا هنيادي على صفات حربية ممتازة تسترعى الانتباه والأمل ، في كثير من اشتباكاتة الصغيرة ضدّ العثمانيين ، وهم وقتذاك يحاولون التوغل في ترانسلفانيا المجرية ، حيث كان هنيادي هو الحاكم من قبل لادسلاس الخامس ، ملك المجر . وذاع اسم هنيادي في سرعة ، فأُسندت إليه قيادة جيوش الحلف المسيحي الكبير الذي تكون وقتذاك لمنازلة العثمانيين مرّة أخرى ، أملاً في التمهيد لإخراجهم نهائياً من أوروبا . وشمل هذا الحلف — لا المجر وبولندة والصرب وبلاد الأفلاخ (Wallacia) فحسب ، بل ودوقية برجنديا وجنوة والبندقية والبابوية وإمبراطورية البيزنطيين . وبينما أبحر أسطول من السفن الإيطالية والفلمنكية صوب الدردنيل . زحف هنيادي جنوباً على رأس جيوش الحلفاء ، فعبر نهر دانوب ، وطرد العثمانيين من بلاد الصرب ، وهزمهم هزيمتين

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٣٨١ . زيادة .

(٢) انظر ما سبق هنا ، ص ٤٥٠ . زيادة .

فادحتين شمالى نهر هاي موس وجنوبيه ، حتى اضطهرهم لأول مرة فى تاريخهم إلى طلب الصلح . وهذا هو صلح سيزجدن (يونيه سنة ١٤٤٤^(١) م) ، وهو الصلح الذى أراد مراد الثانى أن يجعل منه خاتمة حياته السياسية ، ولذا خلع نفسه من السلطنة ، وتولى مكانه ابنه محمد الثانى .

هنا كانت السنة الفاصلة فى تاريخ الشرق الأدنى ، إذ أحرزت جيوش المسيحية نصرين باهرين على الدولة العثمانية ، وغدت هذه الجيوش مرابطة جنوبى نهر هاي موس ، على مسافة هينة من أدرنة عاصمة العثمانيين . ثم إن الألبانيين - بزعمامة جورج كاستريوتس الذى اشتهر فيما بعد باسم اسكندر بك - كانوا وقتذاك فى ثورة ضد العثمانيين ، على حين أثار بعض أمراء قرمان بعض المتاعب للسلطان فى آسيا الصغرى . ولذا وجب على القائد المجرى هنيادى وجوباً واضحاً أن يستغل موقفه بالزحف على أدرنة ، ليتمّ فوزه قبل أن يفيق العثمانيون من أثر الصدمة التى حلت بهم نتيجة نجاحه فى الحرب على غير انتظار ، ولو جاء ذلك مخالفاً لرأى الحلف المسيحى الكبير .

أما الذى حدث فهو أن هنيادى لم يستغل موقفه ، بل قرر احترام الصلح مع العثمانيين ، وسواء أكان هنيادى مدفوعاً إلى هذا القرار - كما يقول البعض - بتأثير رشوة عثمانية ، أم بتحريض جورج ملك الصربيين لغرض فى نفسه ، أم بسبب عوامل شخصية أو حربية أخرى ، فوضع الأهمية هنا أن هنيادى أتاح لأعدائه مدة سلمية كانوا فى أشد الحاجة إليها ، لإصلاح ما أفسدت حظوظ القتال . ثم سارت الأمور على غير ما يشتهى القائد المجرى العظيم بعد هذا القرار ، إذ اضطر إلى السكوت عن عزم لادسلاس على نقض الصلح مع العثمانيين - وهو عزم أثم لنقض صلح أمضاه لادسلاس وأقسم^(٢) عليه . وخشى هنيادى ما سوف يؤدى إليه ذلك من إظهار العثمانيين بمظهر المتعدي

(١) راجع (Camb. Med. Hist. IV. p. 691) . حيث ورد أن مراداً الثانى ، ولادسلاس ملك المجر وحلفاءه ، تعهد كل منهما لصاحبه فى معاهدة الصلح أن يكون نهر دنيوب حداً فاصلاً لا تعبره جيوش الفريقين لمدة عشرين سنة ، وأن مراداً أقسم على القرآن ، ك أقسم لادسلاس على الإنجيل ، وأن هنيادى لم يشترك فى القسم أو التوقيع على صلح ألبنة . وهو لذلك غير مقيد بأى شرط من شروطه ، لكنه رأى احترام هذه الشروط ، لأسباب وردة فيما يلى هنا بلتن . زيادة .

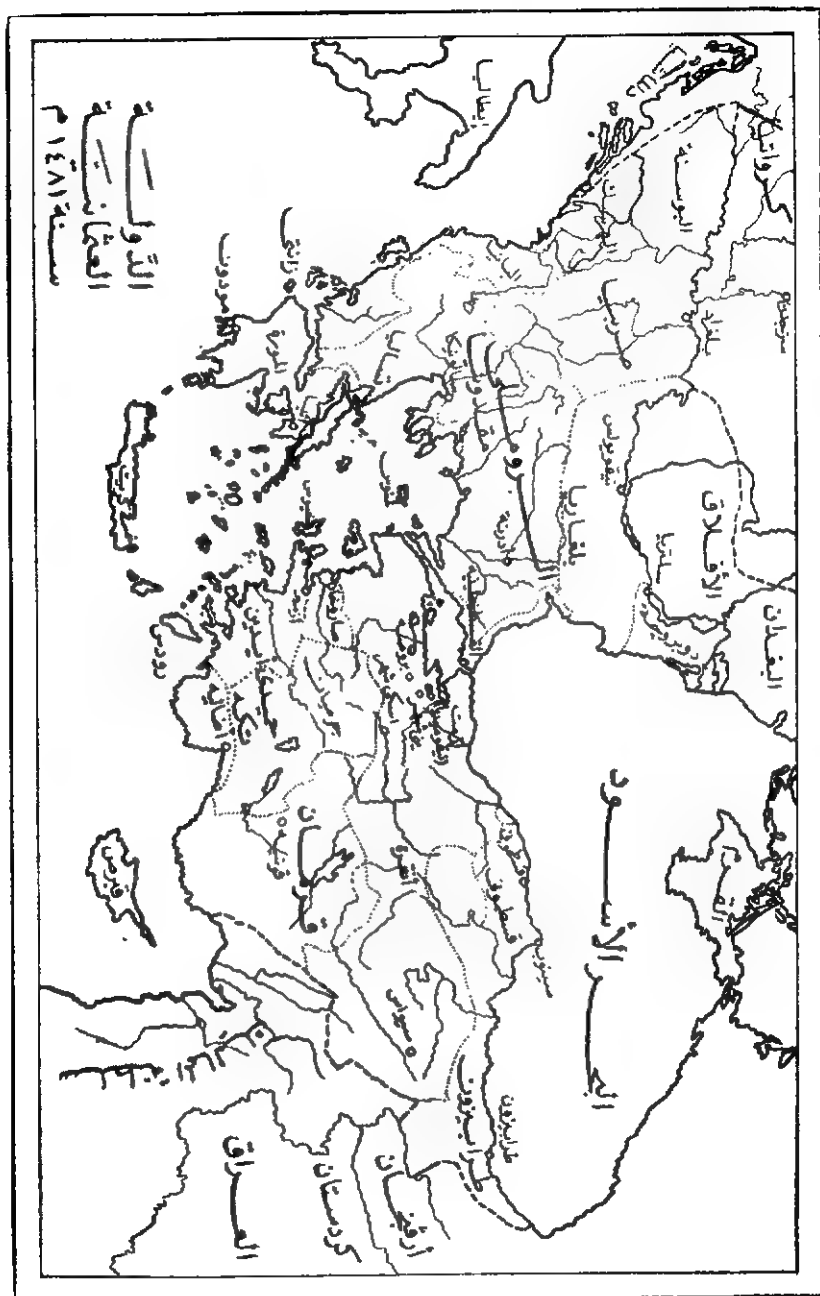
(٢) راجع الحاشية السابقة . زيادة .

عليهم من المسيحيين ، لكنه قبل الاشتراك في الهجوم على المواقع العثمانية جنوبي الدانوب ، مكرهاً لابطلاً. وعند مدينة فارنا علم هنيادى برجوع مراد الثانى إلى السلطنة وقيادة الجيوش العثمانية ، ليقترض لنفسه من أصحاب الأقسام على الإنجيل . ثم لم يلبث هنيادى أن لقي العثمانيين وعدتهم ستون ألفاً . فانهزم هزيمة فادحة ، أوائل نوفمبر سنة ١٤٤٤ م ، وكان ذلك كافياً لإقناع مراد الثانى بسلامة التخلي عن السلطنة لابنه محمد الثانى مرة أخرى .

غير أن هذه الهزيمة على فداحتها لم تهدم هنيادى أو تفل من عزمه ، برغم اندحار جيشه ، ومصرع ملكه لادسلاس فى فارنا ، ولم يمض عليه سوى أربع سنوات حتى ظهر فى الميدان على رأس جيش صغير من خيرة جند المجرين والأفلاحيين ، كما ظهر مراد الثانى فى القيادة العثمانية والسلطنة مرة أخرى ، بناء على طلب ابنه محمد الثانى . وعند قوصوه التقي العثمانيون بجيش هنيادى ، ووقع المصاف ثلاثة أيام حسوماً تحركت أثناءها نحوس الاختلاف البلقانى والفرقة بين المجرين والأفلاحيين ، حتى إذا كان اليوم الثالث ، مال الأفلاحيون إلى جانب العثمانيين وانضموا إليهم ، وانتهى هذا اليوم بانهزام المجرين هزيمة شنيعة ذهبت فيها آلاف من زهرة القروسية المجرية . تلك هى وقعة قوصوه الثانية ، سنة ١٤٤٨ م ، وهى وقعة أخرجت بلاد المجر لعشر سنوات على الأقل من قائمة الدول التى تستطيع النهوض بعمل حربى هجوى ضد العثمانيين ، وقبلها وقعت قوصوه الأولى ، وهى الوقعة التى كانت القاضية على آمال الصربيين فى الحرية^(١) . أما السلطان مراد الثانى ، فظل فى السلطنة حتى وفاته سنة ١٤٥١ م . ومن هنا يصبح الباحث على مقربة من آخر مراحل الشوط الحربى الطويل الذى بدأه العثمانيون من بقعة مغمورة بين تلال بيشنيا بآسيا الصغرى ، وهو شوط ظلوا يطرونه مرحلة بعد مرحلة فى دأب متصل ، حتى انتهوا إلى قصر الأباطرة بالقسطنطينية .

وكانت القسطنطينية لا تزال حتى وقتئذ كمدنية بيزنطية ، وعاصمة لإمبراطورية ، ولئن غدت استحكوماتها أقل منعة مما كانت عليه قديماً ، فإنها استطاعت أن تدرأ هجوماً شنه عليها السلطان مراد الثانى ، فى السنوات الأولى من حكمه . ثم إن القسطنطينية على كثرة الطامعين فى فتحها منذ القرون المسيحية الأولى استعصت

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٤٤٩ . زيادة .



على كل طامع ، وسرى بين الأجيال عقيدة راسخة بأنها لن تسقط في يد فاتح ، مهما أوتى من مهارة وجسارة وبأس . غير أن العقائد لا تعصم المدن من هجوم الهاجمين وفتوح الفاتحين ، بل تعصمها الإرادات والعزمات المتحدة ، والقوات الحربية التي يستطيعها أهلها . فلو كان البيزنطيون متحدين عزومين ، ولو ظلت أساطيل جنوة والبندقية تحت تصرف الحكومة الإمبراطورية ، ولو رضى الأرثوذكسية البيزنطية والكاثوليكية الرومانية بشيء من التوافق المذهبي ، بل لو قام بين البيزنطيين والإيطاليين شيء من نية معقودة على عمل حربي مشترك ، لنجت القسطنطينية من أيدي العثمانيين . غير أن نية معقودة لم توجد ، لأن البيزنطيين أضحوامن شدة ما امتلأت به عاصمتهم من جدل حول توحيد الكنيستين الأرثوذكسية والكاثوليكية — يسخطون على الإيطاليين والكاثوليكين جميعاً كل السخط ، وأضحت قلنسوة الكرديالية الكاثوليكية عندهم أعظم مقتناً من طاقة العثمانيين . ثم إن الكاثوليكين لم يترأوا في البيزنطيين الواهنيين وأرثوذكسيهم سوى هرطقة بغیضة ، وهذه أقل غفراً عندهم من عقيدته المسلمين الفاتحين . وأدهى من ذلك وأمر أنه بينما تفاقت المباحضات الدينية المذهبية وقتذاك ، أضحت روح التقوى والحماصة الخالصة لوجه الدين معدومة أو تكاد . يضاف إلى ذلك أن تجار راجوزة وجنوة والبندقية رأوا في قيام هذه الإمبراطورية العثمانية الجديدة ، لا كارثة طامة على الدين المسيحي ، بل فرصة نادرة لتحصيل امتيازات تجارية كفيلة بربح وفير . وكيف يفكر أولئك التجار النبهاء المهرة أن يباغضوا دولة باغت من القوة والعزة والسيطرة ما سوف يجعلها — ولعدة قرون — صاحبة الأمر في مصائر آسيا الصغرى ، وشبه جزيرة البلقان . وهذا هو بعض السر في قيام التجار الجنوية أهل حيّ جالاطا بالقسطنطينية — وهم أصحاب المتاجر الواسعة في موانئ البحر الأسود — بمفاوضة السلطان محمد الثاني ، وهو على حصار العاصمة البيزنطية ، للحصول على امتيازات تجارية لأنفسهم ، قبل غيرهم من تجار الجمهوريات الإيطالية الأخرى .

وفي هذه السنوات الحرجة في خاتمة الإمبراطورية البيزنطية سطع اسم قسطنطين الحادى عشر (١٤٤٨-١٤٥٣ م) — وهو آخر الأباطرة البيزنطيين — في سماء الدبلوماسية والبطولة ، وبرهن هذا الإمبراطور على استعداد للوصول إلى حل نصفه بين العثمانيين والبيزنطيين ، أو الجلود بالنفس في حومة الدفاع عن القسطنطينية ، برغم أنه مدين بعرشه للسلطان مراد الثاني ، فضلاً عن تبعيته للسلطنة العثمانية منذ أدائه لها جزية

سنوية عن شبه جزيرة المورة . ولم يكن البيزنطيون أهل القسطنطينية قمينين بزعم من شاكلة قسطنطين ، فإنهم أصبحوا وأمسوا قوماً يعيرون المشاحنات الدينية الكنسية اهتماماً أكثر مما يعيرون الصدمة الداهمة بكيانهم وجنسياتهم ، من ناحية العثمانيين المسلمين .

وليس أدلّ على هذا العفن الروحي المشتعل بين أولئك البيزنطيين من امتلاء القسطنطينية بعاصفة من السخط واللعة على الإمبراطور قسطنطين الحادى عشر ، لأنه قرر أن يعترف بقيام الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فى القسطنطينية ، وأن يسمح بإقامة شعائرها الدينية فى كنيسة أيا صوفيا ، أملاً منه — ولات حين أمل — فى اجتذاب غرب أوروبا إلى جانبه . كل ذلك والسلطان محمد الثانى يقرع أبواب القسطنطينية بقذائفه ، ويدك أسوارها بمدافعهم . وهذه المنافسات الدينية النكيدة هى السبب الذى أدّى — فيما يبدو — إلى وقوع الجزء الأكبر من الدفاع عن القسطنطينية ، لا على أكتاف البيزنطيين ، بل على أكتاف الإسبانيين والألمانيين والإيطاليين ، وهم الذين جاءوا إلى القسطنطينية نجدة متطرعة . أو مرتزة مأجورة ، ولم يكن لهم فى الحزبية الدينية نصيب . وكما كانت معظم قوات الدفاع عن القسطنطينية من غير البيزنطيين ، كذلك لم يكن الجيش العثمانى كله من العثمانيين ، إذ المعروف أن كثيراً من جند السلطان محمد الثانى جاء من أصول مسيحية ، بيزنطية وغير بيزنطية ، وهذه هى النبى شرية^(١) . ومعنى هذا كله أن التقصير المسيحي هو الذى جعل القسطنطينية تخور وتمور ، وتهدم تحت ضربات العثمانيين ، وجعل آخر الأباطرة البيزنطيين يخرّ صريعاً شريعاً ، والإمبراطورية نفسها تنأى الموت ، فى اليوم التاسع والعشرين من شهر مايو ، سنة ١٤٥٣ م .

هكذا حل العثمانيون محلّ البيزنطيين فى القسطنطينية ، وظلوا لعمانيتهم حافظين ، وبها فخورين شامخين ، برغم ما شهدوا من قيم حضارية أوربية عبر تاريخهم الطويل ، بالجنوب الشرقى من أوروبا حتى أواسط نهر دانوب . وللمؤرخ الإنجليزى سير تشارلس إليوت فى وصف البيت العثمانى فى القرن التاسع عشر الميلادى ملحوظة خلاصتها أنه — أى البيت العثمانى — لا يحوى من الآثار أكثر مما يستطيع حمله فى سرعة ، على عربة تعود به إلى جوف آسيا ، إذ قال إن البيت العثمانى يبدو

(١) انظر ماسبق هنا ، ص ٤٤٦ . زيادة .

لأول وهلة في عين الزائر الأوربي ليس مقصوداً به أن يكون سكناً ثابتاً دائماً . فالطابق الأرضي إسطلب ومخزن لحاجات البيت ، بالإضافة إلى درّاج هو في أغلب الأحيان سلّم خشبي يؤدي إلى الطابق العلوي . وهذا الطابق العلوي يكون طرازه عادة ممشي طويل ، على جانبيه عدة غرف ، مداخلها ستائر من قماش ، لا أبواب من خشب ، كما لا يخلو سقفها من بيوت العناكب وأعشاش العصافير . أما الغرف نفسها فهي غاية من الأناقة والنظافة ، ولكنها تبدو عارية خالية من الأثاث إلا الضروري القليل ، وهو كل ما تحتاج إليه الأسرة العثمانية المسورة لحياتها اليومية . وهذا كله يصور في عين الزائر الأوربي كأنه يرى بيتاً مهجوراً من البيوت الملحقة بقصور الأغنياء في ريف إنجلترا ، وكأن جماعة من المسافرين عثروا في طريقهم بهذا البيت ، فألقوه خالياً أو يكاد إلا من تراب الإهمال ، فأخذوا في تهيئته للإقامة به بضعة أيام ، وقالوا بعضهم لبعض هامسوا نضع بالطابق الأرضي خيلنا ورواحلنا ، وننظف هذا الطابق العلوي لمبيتنا ، ولا معنى للتنمّر ، فإننا لا بدّ راحلون عنه بعد أسبوع أو أقل من أسبوع . على أن الخلق العثماني امتاز في نظر الأوربيين بشيء غير قليل من الهيبة الممتزجة بوقار الطلعة ، مع ميل إلى الفكاهة والتهكم ، وهي صفات حمدها الأوربيون الذين خبروا العثمانيين عن كذب ، كما حمدا ما اتصفت به الجيوش العثمانية من قصد في المأكل والمشرب . غير أن العثمانيين لم يقيموا للحضارة الأوربية الغربية وزناً ، ولم يدرکوا قيمتها يوماً من الأيام ، ولذا عاش العثماني غربياً أجنبياً في أوربا ، لا نصيب له في تقاليدھا ، ولا يتعدى تفكيره في لزوميات الحكم الإمبراطوري مبادئ الأوليغاركية الاستثنائية ، وهي المبادئ التي تعتمد على الرقيق ، وتنظر إلى البشرية المحيطة بها كأنها لا تصلح إلا للاسترقاق والعبودية والتبعية . غير أن هذا كله وشبهه نبذته الجمهورية التركية الحديثة نبذ النواة .

بعض المراجع لهذا الفصل

Camb. Med. Hist. Vol. IV. Chap. XXI.

Finlay, (G.) : History of Greece. Ed. H.F. Tozer. 7 vols. 1877

Gibbon : Decline and Fall of the Roman Empire. Ed. Bury. 1896-1900.

Hammer-Purgstall. (J.) : Histoire de l'Empire Ottoman. Traduit de l'Allemand. M. Dochez. 3 vols. 1840-1842.

Macartney. (C.G.) : Hungary. (Nations of the Modern World Series). 1934.

"Odysseus" (Sir Charles Eliot) : Turkey in Europe. 1900.

Temperley. (H.W.V.) : History of Servia. 1917.

الفصل السابع والعشرون

آفاق جديدة في العصور الوسطى

انعدام التقدم العلمى فى العصور الوسطى - نمو المعلومات الجغرافية - كشف موقع الصين - الطواف حول أفريقيا .

» * «

يصل الباحث فى التاريخ الأوروبى هنا إلى نقطة يستطيع الوقوف عندها، وهى نقطة تبعد عن العصر القديم الذى تصفه أشعار هوميروس مسافة زمنية طولها نحو ألفين وسئائة من السنين . وفى هذه المرحلة الزمنية الطويلة أنتج العقل البشرى آداباً رفيعة ، ومنشآت معمارية عظيمة ، وديانات وفلسفات جليلة ، وروائع من تماثيل منحوتة وصور منقوشة ، وهى روائع فنية لم تفقد شيئاً من جاذبيتها على مرّ العصور . وفى هذه المرحلة الزمنية كذلك بحث العقل البشرى مسائل الروح والقلب والحواس ، وكل شىء عدا الطبيعة، فإذا سأل أحد فى ظاهرة من ظواهر الطبيعة لم يستطيع متابعة سؤاله حتى النهاية ، وبقي السؤال دليلاً من دلائل اللقائنة العابرة العقيمة فى تلك العصور الوسطى . ولذا ظلّ التقدم معدوم الخطى فى ميادين البحوث والكشوف التى تزيد من سيطرة الإنسان على قوى المادة الغشوم ، وترفع من مستوى الخير العام ، فبقيت وسائل النقل حيث هى منذ أقدم العصور ، ولم تستطع ثلاثة آلاف من السنين أن تبدل الحصان وسرعته بوسيلة أسرع ، أو الريح وقوتها فى تسيير السفن الشراعية بقوة أخرى . وعاش معظم الأوروبيين فى بيوت حقيرة خائفة ، وتغلقت خبراتهم وتجاريهم فى حدود ضيقة ، وتبددت أعمارهم فى الأرض بسوء التغذية وكثرة الأمراض والطواعين ، كأنما كُتب على البشرية أن تنتظر حتى عصر البخار والبترول والكهرباء قبل أن تضيق شيئاً واحداً إلى عظيم مخترعات الإنسان الأول ، من عجلة وشرع ومحرث .

ومع هذا خطا الأوروبيون منذ عصر الحروب الضايبية خطوات واسعة فى ميدان المعرفة ، إذ غدوا على علم أتمّ ومعرفة أدقّ بأحوال البر والبحر ، وأضحى

من المعروف أن الأرض كروية ، وأن السفر إلى أقصى شرق آسيا ينتهى إلى الصين واليابان وجزر البهار . ثم عبر الجنويون الصحراء الكبرى وبلغوا السودان ، كما أسسوا لأنفسهم جالية بجنوب الصين سنة ١٣٣٦ م ، على حين أخذ البرتغاليون طريقهم في البحر جنوباً حول سواحل غرب إفريقيا ، وهم الذين تلقوا فنون الملاحة على أساتذتهم الجنويين . يضاف إلى ذلك اتجاه ملاحى البحر الأبيض المتوسط — في أعداد متكاثرة من مختلف السفن نحو المحيط الإطلنطى — وهذا منذ أوائل القرن الرابع عشر الميلادى ، أى منذ صار للبناقة أسطول تجارى في المياه الغربية بين إنجلترا وبلاد الفلاندرز^(١) . وهذا غدت الملاحة البحرية فرعاً من فروع المعرفة التى تتطلب معلومات وإرشادات دقيقة . وأمدت المراكش البحرية (portolani)^(٢) ، وهى التى قام على إعدادها الملاحون الإيطاليون والقطانيون — في القرن الرابع عشر الميلادى — مختلف الملاحين بخرائط جغرافية علمية .

ولم ينشأ هذا الازدياد في المعرفة بالجغرافية عن حب الاستطلاع ، أو روح المغامرة التى امتاز بهما الأوروبيون . بل كان منشؤه كذلك مغريات الثروة . ذلك أن الشرق امتلأ وقتذاك بمتاجر لم يكده تذوق الغرب طعمها حتى استمرأها ، وألحف في طلبها . فمن الشرق جاء الحرير . وجاءت التوابل (القرفة والفلفل وجوزة الطيب) ، وشاع لبس الحرير في المجتمع الرومانى — أى منذ القرن الرابع الميلادى — حتى صار من ألزم اللزوميات عند النساء ، كما شاع استعمال التوابل ، وهى مما خفف وزنه وغلا ثمنه . وصار الطهى من صنفى الفنون ، لفتح الشهية إلى مزيد من الطعام .

ثم سجد بدودة القز تهرباً من الصين إلى الإمبراطورية الرومانية في القرن السادس الميلادى ، وما أعظم ما ترتب على نقل هذا المخلوق النافه من نتائج اقتصادية كبيرة ، إذ تأسست صناعة المنسوجات الحريرية في سوريا ثم صقلية ، وبعدهما في إيطاليا وإسبانيا . واتسعت صناعة الحرير بعد ذلك اتساعاً جعل أوروبا في غنى عن استيراد هذه الساعة التجارية الهامة من الصين ، لكن أوروبا غدت بذلك محرومة من دافع كان وجوده كفيلاً بحملها على سلسلة من المغامرات في

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٤٢٩ . زيادة .

(٢) انظر (Gordon East : Historical Geography of Europe, p. 320) لمعرفة أوصاف

هذه الخرائط البحرية . زيادة .

سبيل الوصول إلى الشرق الأقصى ، في العصور الوسطى .
 أما التوابل فلم تنقطع عن أوروبا يوماً من الأيام ، غير أنها ظلت باهظة الثمن .
 والسبب في ذلك أن الهنود ، ثم العرب والأحباش الذين أغلقوا طريق البحر الأحمر
 في وجه الملاحين الرومانيين منذ القرن الثالث الميلادى ، ثم سلاطين المماليك
 في مصر في العصور الوسطى — كل أولئك فرضوا مكوساً هائلة على مختلف أصناف
 التوابل ، قبل أن تصل إلى أيدي التجار من الرومانيين البنادقة وبعدهم . ولذا أضحي
 التخلص من دفع هذه المكوس الطائلة التي ملأت جيوب أولئك الوسطاء الشرقيين
 هدفاً اقتصادياً لا بدّ من تحقيقه ، عاجلاً أو آجلاً ، بفتح طريق من طرق
 الاتصال المباشر ببلاد الشرق .

ولم يكن تحقيق ذلك الهدف الاقتصادى الكبير عسيراً على الأوروبيين
 أواسط العصور الوسطى ، فإن الطريق البرى عبر آسيا — وطوله وقتذاك سبعة
 آلاف وخمسمائة ميل ، ومعظمه صعب وعمر مخطور — كان مفتوحاً للمسافرين
 الأوروبيين أكثر من قرن من الزمان ، بفضل حكمة الخانات المغوليين وبصيرتهم
 السياسية المتسامحة . في خلال الأعوام المائة التي امتلأت بالسلام المغولى (١٢٦٤ —
 ١٣٦٨ م) ، وهى الأعوام التي امتدت من عهد قوبلاى الى عهد طوغان تيمور
 غدا الصناع والمبشرون الغربيون موضع ترحيب الصين . ثم انسدل الستار بين
 الشرق والغرب فجأة ، بانهار الدولة المغولية ، وبذا ذهبت مراكز التبشير مع الريح ،
 وهوت آسيا الوسطى مرة أخرى في مهاوى الحروب التيمورلنكية المغولية المتأخرة ،
 وأمست الصين منطوية عن الأوروبيين في غمرة من ظلام دامس ، وعزلة صارمة جامدة .
 غير أن سرّ الوصول إلى الصين لم يعد خافياً على أحد من الأوروبيين المعنيين
 بمعرفته ، والواقع أن القصة الرائعة التي تمّ نشرها سنة ١٢٩٩ م ، والتي روى فيها
 ماركو پولو أخبار أسفاره في آسيا ، وأخبار إقاماته وتنقلاته بين بلاد الصين
 مدة سبعة عشر عاماً ، أحدثت في أوروبا ثورة فكرية لا تقل في أهميتها وأثرها
 عما نجم عن اكتشافات كولبس فيما وراء الإطلنطى ، من امتداد في المعرفة
 الإنسانية ، أواخر القرن الخامس عشر الميلادى . ذلك أن رحلات ماركو پولو
 أوضحت للعقول أن الكرة الأرضية تختلف كلّ الاختلاف عما تصوّر السابقون ،
 وأن بأقصى الطرف الأقصى من آسيا بلاداً تمتاز بكثرة سكانها ، وضمخامة ثروتها ،
 وتعاملها بنقد من الورق لا المعدن ، فضلاً عن مستوى حضارى ونظام عام يحكى

— على أقل تقدير — ما وصلت إليه إيطاليا من مستويات حضارية فى تلك العصور .
 الخلاصة أن كتاب رحلات ماركو بولو فتح سلسلة لا نهاية لها من الافتراضات ،
 والاحتمالات . فى سنة ١٤٢٨ م ، اشترى دون بدور البرتغالى من مدينة البندقية
 نسخة من هذا الكتاب ، وأهداها إلى أخيه الأمير هنرى الملاح (١٤١٥ —
 ١٤٦١ م) ، وهو الأمير الذى استطاعت البرتغال بفضل توجيهاته الذكية أن
 تصبح زعيمة السبق فى حركة الكشف البحرية .

ثم أخذت فكرة الطواف بحراً حول أفريقيا تجتذب إليها الكثير من الاهتمام ،
 ولم يكن مشروع الطواف حول أفريقيا جديداً ، إذ قام به الفينيقيون فى القرن
 السادس قبل الميلاد ، على فرض صحة ما ورد فى هيرودوت . وكان باستطاعة
 الإمبراطورية الرومانية أن تقوم به مرة أخرى فى التاريخ — ولا محل للريب هنا — ،
 لولا أن السيطرة الرومانية على مصر وطريق البحر الأحمر جعلت الرومانيين فى غير
 حاجة اقتصادية إلى محاولته . لكن جمهورية من جمهوريات البحر الأبيض المتوسط
 — وهى جنوة — أحست بقوة هذه الحاجة إحساساً شديداً ، منذ بداية القرن الثالث
 عشر الميلادى ، وذلك لأن جنوة نافست البندقية فى ميدان المتاجر الشرقية ، ولأن
 البندقية حالفت مصر ، واستطاعت بصدقتها لسلطين المماليك أن تحتكر من
 المتاجر الشرقية معظم السلع الواردة عن طريق البحر الأحمر ، للتجارة بها فى أوروبا .
 ولم يكن ثمة سبيل إلى فك هذا الاحتكار عن البندقية إلا وسيلة من وسيلتين
 اثنتين ، إما هدم قوتها بحرب تشنها عليها جنوة فى إيطاليا ، وإما هدم ثروتها بسد
 منابع هذه الثروة أن تصل إليها . وجرت جنوة وسيلتها الأولى ، وأخفقت إخفاقاً
 ذريعاً فى وقعة تشيوجيا^(١) ، فلم يبق لديها سوى وسيلتها الثانية ، فعكفت على دراسة
 الطرق والمسالك الكفيلة بتحقيقها ، وقدّرت أن فى استطاعة السفينة من السفن أن
 تطوف حول إفريقيا ، وتأتى بالتوابل من وراء البحار إلى أوروبا ، دون حاجة إلى استئذان
 العرب أو الأتراك أو المماليك ، أو التعرض لمكوسهم الباهظة واستبداداتهم الثقيلة .

ولذا كان الجنويون أول من قام بتنفيذ هذه الفكرة ، فى شهر ماي من سنة ١٢٩١ م ،
 أبحر أوجولينودى فيفالدى — وهومن أهل جنوة — فى سفينتين كبيرتين للبحث عن الطريق
 البحرى إلى الهند . غير أن فيفالدى وغرق فى سفينتيه قبالة الساحل الإفريقى ، وجاء القرن
 الرابع عشر الميلادى وانتهى دون أن يثنى أحد على مغامرته الباسلة . وفى تلك الأثناء

(١) انظر ما سبق هنا ، ص ٤٢٣ . زيادة .

لقن البرتغاليون فنون البحار عن الجنويين ، وتعلموا بناء السفن الكبيرة والسير بها في المحيطات ، وأمدتهم أسفارهم المتكررة إلى جزر كناريا (الخالدات) ، وسياحاتهم الدائمة في البحث عن ساحل غانة ، بجميع المؤهلات البحرية اللازمة لتحقيق الهدف العظيم الذى جعل أوربا على صاة مباشرة بالمحيط الهندى مرة أخرى ، بعد قطيعة مدتها ألفان ومائتان من السنين ، أى منذ أيام الإمبراطورية الرومانية ؛ وبذا بدأت مرحلة جديدة في تاريخ العالم .

والمؤرخ الحديث لا يستطيع إلا أن يرى في استيلاء العثمانيين على القسطنطينية ، وفي اكتشاف البرتغاليين ساحل غانة . حدّثين متعاصرين عميقين ، جليلين بما انطوى عليه كل منهما من معنى . فأولهما أوصد المنفذ الرئيسى من أوربا إلى الشرق في وجه الأوربيين ، وثانيهما افتتح باب الكشوف البحرية التى نشرت سلطان أوربا تدريجاً على أرجاء الكرة الأرضية ، وغيرت الموازين والمعايير الاقتصادية في أنحاء العالم . غير أن المعاصرين لهذين الحدثين لم يروا أهمية فاصلة مؤذنة بحال جديدة إلا في الحدث الأول ، فإن أوربياً مسيحياً لم يملك أن يتأمل فتح العثمانيين المسلمين عاصمة مسيحية عظيمة دون أن تهتزّ عليه مشاعره . وبالقياص إلى ما سوف يترتب على سقوط القسطنطينية في أيدي العثمانيين من نتائج وبيلة في نظر الأوربيين المعاصرين . بدت تجارة الوارد إلى أوربا من ساحل غانة غير ذات أهمية أو قيمة ، وهى التجارة التى بدأت بجهود هنرى الملاح ملك البرتغال . ومن الدليل على ذلك حرص آزورارا — وهو مؤلف سيرة هنرى الملاح — ألا يقيم مجد الملك البرتغالى على نواحى نشاطه في تنظيم المتاجر البحرية والكشوف ، على طول ساحل إفريقيا ، لخلو هذه الأعمال بما يشتم منه رائحة المجد . تلك هى سنة البشر في الحياة . إذ يمرّ المستقبل تحت أعين الناس وأبصارهم دون أن يروه ، أو يلقوا بالاً إلى مروره . فالإنجليز مثلاً — وهم الذين شاعت لهم المقادير — دون سائر الشعوب الغربية — أن ينعموا بهذا المستقبل أكبر نعمة اقتصادية ، وأن يجنوا أعظم الثمرات من حركة كشف المحيطات ، كانوا وقتذاك يتأسون أشد أسى على ضياع ممتلكاتهم الفرنسية في أرض فرنسا . ولم يدرك الإنجليز وقتذاك أن وراء رحلات البرتغاليين العشواء عصا سحرية تمهد لخزيرتهم الواقعة عند الطرف الأقصى من غرب أوربا ، كما تصبح هذه الجزيرة الصغيرة النائية وسط البحار الباردة . بهرة العالم المعمور ، وصاحبة السيطرة الطويلة على حرية البحار ، ومركز النشاط الاقتصادى والحضارى في الكرة الأرضية ، حتى مطلع القرن العشرين .

بعض المراجع لهذا الفصل

- Beazley, (C.R.) : The Dawn of Modern Geography 3 vols, 1897-1906
 Horatio Brown : Venice. A Historical Sketch of the Republic 1893.
 Hudson, (G.F.) : Europe and China. 1931.
 Pirenne, (H.) and Renaudet, (A.) : La Fin du Moyen Age. 1931.

قوائم تاريخية وشجرات الأنساب

- (١) قائمة بأسماء الأباطرة أواخر الأمبراطورية الرومانية .
- (٢) قائمة بأسماء الأباطرة البيزنطيين حتى سنة ٨٦٧ .
- (٣) أجداد شرلمان
- (٤) بيت تانكرد هوتفيل النورمانى .
- (٥) الملوك السكسونيون والأباطرة الساليون .
- (٦) الأباطرة المقدونيون فى الدولة البيزنطية .
- (٧) الجولفيون والجبلالينيون .
- (٨) ملوك فرنسا .
- (٩) ملوك إنجلترا .
- (١٠) ملوك اسكتلندا
- (١١) المطالبون بعرش فرنسا سنة ١٣٢٨م
- (١٢) أسرة هابسبرج .
- (١٣) بيت لكسمبورج .
- (١٤) الأباطرة البيزنطيون من سنة ١٠٥٤م إلى سنة ١٤٥٣م .
- (١٥) السلاطين العثمانيون حتى الاستيلاء على القسطنطينية .

أسماء الأباطرة الرومانيين

من دقلديانوس إلى روميلوس أجسطيلوس

[illegible]

٣٦٤ م	فالنس وفالنتيان الأول .
٣٦٧ م	جراتيان وفالنتيان الأول .
٣٧٥ م	جراتيان وفالنتيان الثاني
٣٧٩ م	تاوداسيوس الكبير
٣٩٥ م	أركاديوس (في الشرق)
٣٩٥ م	هونوريوس (في الغرب)
٤٠٨ م	تاوداسيوس الثاني (في الشرق)
٤٢٤ م	فالنتيان الثالث (في الغرب)
٤٥٠ م	مارقيان (في الشرق)
٤٥٥ م	مكسيموس أفتيوس (في الغرب)
٤٥٥ م	مايوريان (في الغرب)
٤٥٧ م	ليو الأول (في الشرق)
٤٦١ م	سقيروس (في الغرب)
٤٦٥ م	(فترة شعور في الغرب)
٤٦٧ م	أنثيميوس (في الغرب)
٤٧٢ م	أوليبريوس (في الغرب)
٤٧٣ م	جليكير يوس (في الغرب)
٤٧٤ م	يوليوس نيبوس (في الغرب)
٤٧٤ م	ليو الثاني وزينون وباسل (في الشرق)
٤٧٥ م	روميلوس أجبسطيلوس (في الغرب)
٤٧٦ م	نهاية الأباطرة في الغرب

ومندئذ إلى سنة ٨٠٠ م لم يكن في أوروبا سوى أباطرة الدولة الرومانية في الشرق وهي الدولة البيزنطية .

قائمة بأسماء الأباطرة البيزنطيين حتى سنة ٨٦٧ م

الأسرة الإيسورية

٧٤٠-٧١٧ م	ليو الثالث (الإيسوري)
٧٧٥-٧٤٠ م	قنسطنطين الخامس
٧٧٥-٧٥٠ م	ليو الرابع
٧٨٠-٧٧٥ م	ليو الرابع
٧٨٠-٧٧٦ م	قنسطنطين السادس
٧٩٧-٧٨٠ م	قنسطنطين السادس
	تولت أمه أيريني الوصاية عليه
٧٩٠-٧٨٠ م	من سنة
٧٩٧-٧٩٢ م	ومن سنة
٨٠٢-٧٩٧ م	أيريني
٨١١-٨٠٢ م	نقفور الأول
٨١٣-٨١١ م	ميخائيل الأول
٨٢٠-٨١٣ م	ليو الخامس (الأرمني)

الأسرة العمورية

٨٢٩-٨٢٠ م	ميخائيل الثاني
٨٢٩-٨٢١ م	ثيوفيل
٨٤٢-٨٢٩ م	ثيوفيل
	ميخائيل الثالث
٨٦٧-٨٤٢ م	(السكرير)
٨٥٦-٨٦٢ م	وصاية برداس عليه عن
٨٦٦-٨٦٢ م	وصاية تيودورا عليه من
٨٦٧-٨٦٦ م	باسل الأول

أسرة جستنيان

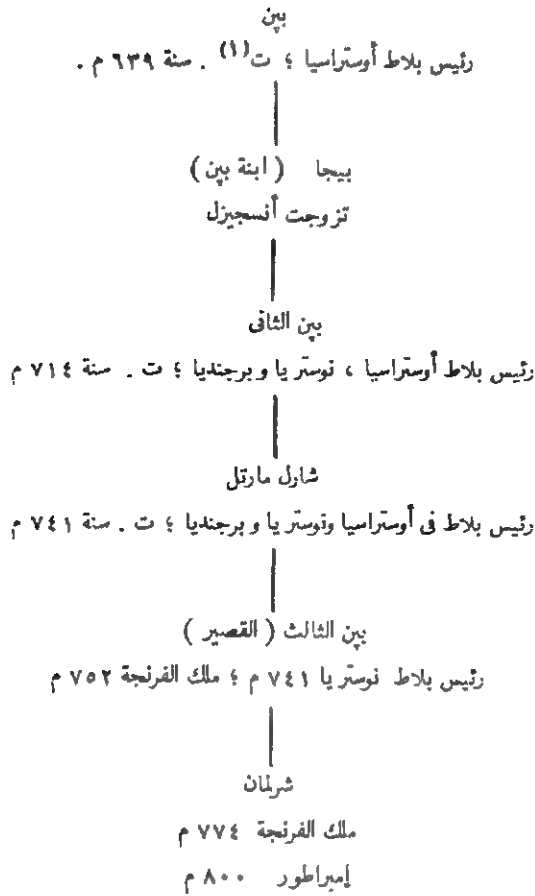
٥٢٧-٥١٨ م	جستين الأول
٥٧٨-٥٢٧ م	جستنيان الأول
٥٧٨-٥٦٥ م	جستين الثاني
٥٨٢-٥٧٨ م	طباريوس الثاني
٦٠٢-٥٨٢ م	موريس
٦١٠-٦٠٢ م	فوقاس

أسرة هرقل

٦٤١-٦١٠ م	هرقل
٦٤١-٦١٣ م	قنسطنطين الثالث ^(١)
٦٤١-٦٣٨ م	هرقلوناس
٦٦٨-٦٤١ م	قنسطانز الثاني
٦٦٨-٦٥٩ م	قنسطنطين الرابع
	قنسطنطين الرابع
٦٨٥-٦٦٨ م	(ذو اللحية المرسلة)
	جستنيان الثاني
٦٩٥-٦٨٥ م	(المحبوع الأنف)
٦٩٨-٦٩٥ م	ليونتيوس
٧٠٥-٦٩٨ م	طباريوس الثالث
	جستنيان الثاني
	(المحبوع الأنف - ولايته
٧١١-٧٠٥ م	العرش مرة أخرى)
٧١٣-٧١١ م	فيليبكوس (باردانس)
٧١٥-٧١٣ م	أنسطاسي الثاني
٧١٧-٧١٥ م	تاوداسيوس الثالث

(١) يدل الاسم المكتوب بالحروف الصغيرة على اشتراك في الحكم مع الإمبراطور السابق له .

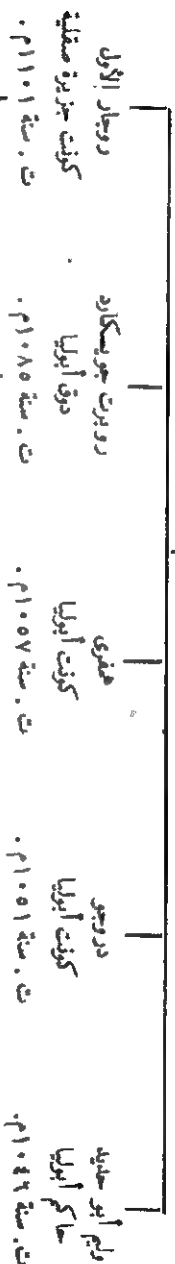
أجداد شلمان



(١) يرمز هذا الحرف « ت » إلى سنة الوفاة في هذه القوائم .

بيت تانكرد هوفيل النورمانى

تانكرد هوفيل



ت. سنة ١١٥٤ م.

ملك ، دوق أبريا ، ت. سنة ١١٢٧ م.

كونستانس النورمانية
تزوجت الإمبراطور هنري السادس هوفشتاين

ت. سنة ١١٦٧ م.

دوق أبريا

الإمبراطور فردريك الثاني هوفشتاين

ت. سنة ١١٨٩ م.

تانكريد حاكم إقليم إيطاليا (غير شرعي) ، ت. سنة ١١٩٤ م.

تزوج جوانا ابنة هنري الثاني بلانشجيت ملك إنجلترا

أليسا

دوق الثالث

روجر الثالث

تزوجت والتر برين

عزلة الإمبراطور هنري السادس هوفشتاين

ت. سنة ١١٩٤ م.

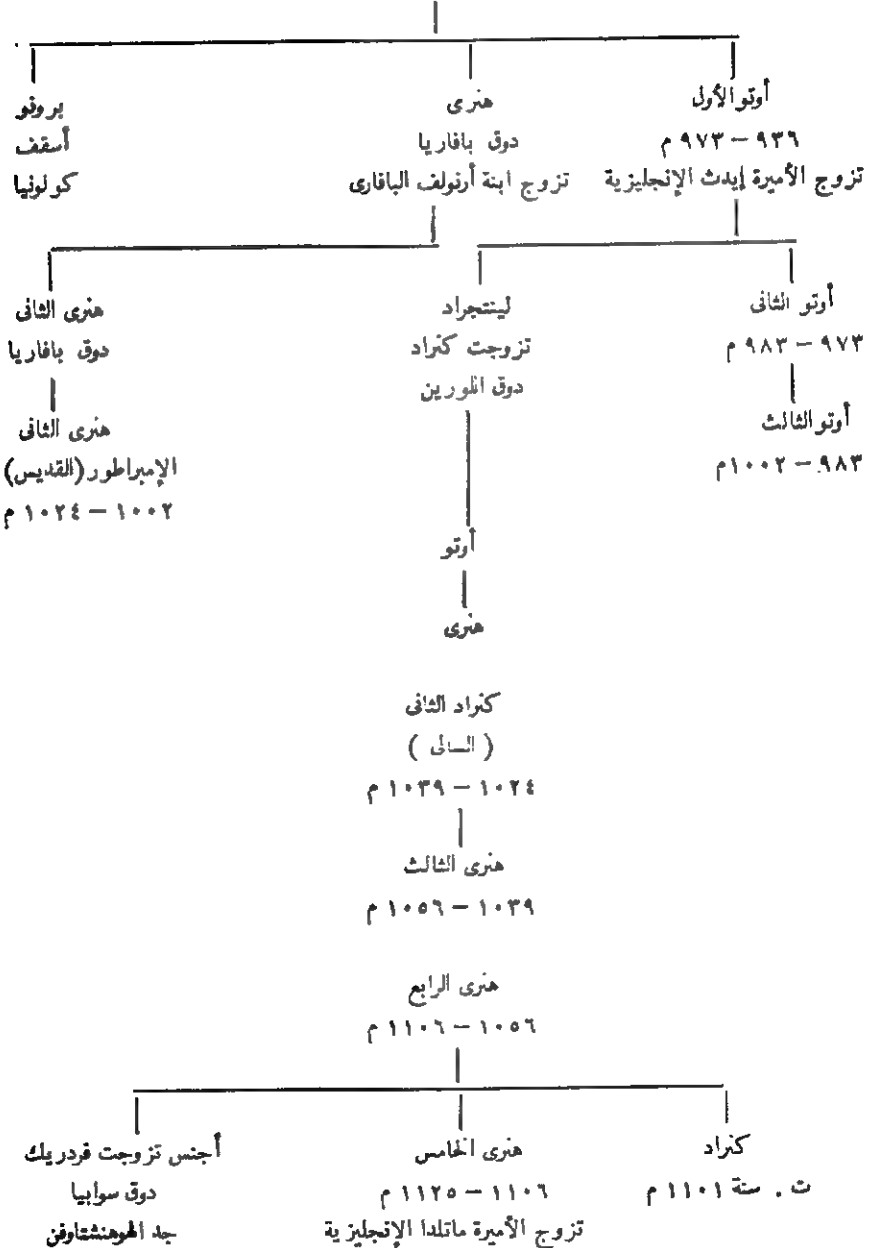
من إقليم أبريا سنة ١١٩٤ م

الاباطرة السكسونيون والساليون

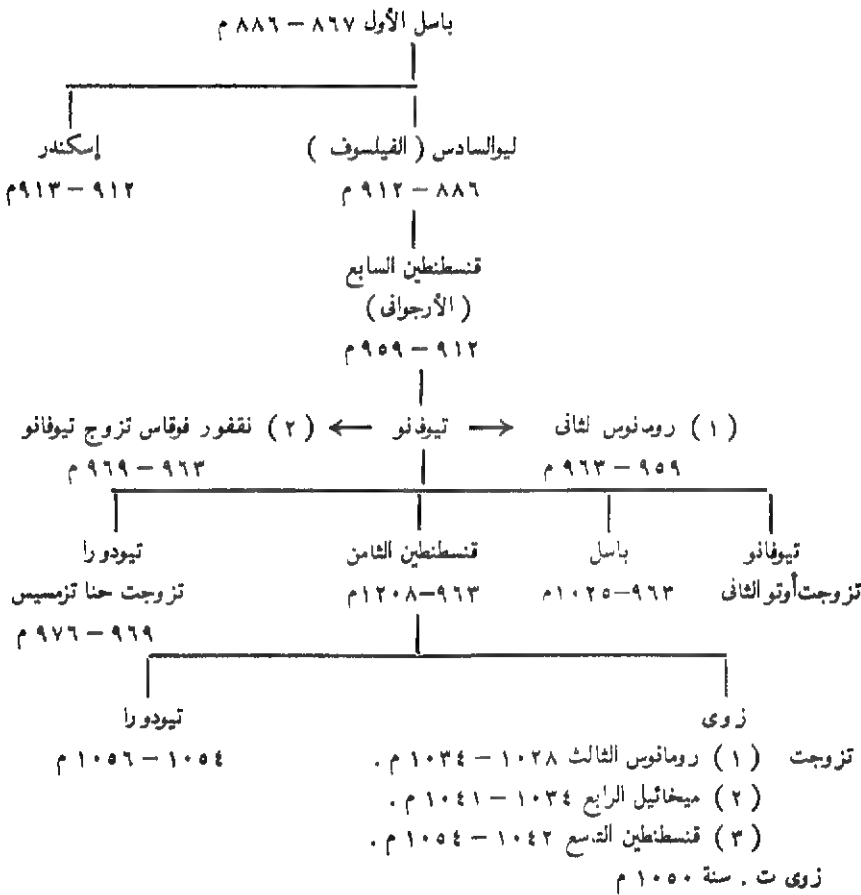
هنرى الأول (الصياد)

دوق السكسونيين

ملك ألمانيا ٩١٩ - ٩٣٦ م



الاباطرة المقدونيون في الدولة البيزنطية



هنري الرابع
ت. سنة ١١٠٩ م.

١- فوريك ، دوق سوابيا
٢- ليوبولد ، باينبرج ، حاكم النمسا

أجنس تزوجت

أوتو
بارون فريزنبرج

دوق النمسا ١١٢٨ - ١١٥٢ م

فوريك تزوجت
فوريك الأول
بارباروسا

١١٢٢ - ١١٩٠ م.

فليب دوق سوابيا

ت. سنة ١٢٠٩ م.

بياتريس

تزوجت فريماند الثالث القشتالي

الفونس الماسر

القشتالي

ولف الرابع

دوق بافاريا ، ت. سنة ١١٠١ م.

هنري الأسد

دوق بافاريا

ولف الخامس

تزوج الكونين مانلدا

ولف السادس

ولف السابع

هنري المنكب

هنري الأسد

أوتو الرابع

ت. سنة ١٢١٨ م.

هنري السادس تزوج كستافس النورمانية

١١٩٧ - ١١٩٠ م

فوريك الثاني

١٢١٢ - ١٢٥٠ م

كزاد الرابع

١٢٥٠ - ١٢٥٤ م

كونرادين

ت. سنة ١٢٦٨ م.

ملوك فرنسا

٩٨٧ - ١٥٨٩ م

٩٨٧ - ٩٩٦ م	هيو كاييه
٩٩٦ - ١٠٣١ م	روبرت
١٠٣١ - ١٠٦٠ م	هنرى الأول
١٠٦٠ - ١١٠٨ م	فيليب الأول
١١٠٨ - ١١٣٧ م	لويس السادس
١١٣٧ - ١١٨٠ م	لويس السابع
١١٨٠ - ١٢٢٣ م	فيليب الثانى (أجسطس)
١٢٢٣ - ١٢٢٦ م	لويس الثامن
١٢٢٦ - ١٢٧٠ م	لويس التاسع
١٢٧٠ - ١٢٨٥ م	فيليب الثالث
١٢٨٥ - ١٣١٤ م	فيليب الرابع
١٣١٤ - ١٣١٦ م	لويس العاشر
١٣١٦ - ١٣٢٢ م	فيليب الخامس
١٣٢٢ - ١٣٢٨ م	شارل الرابع
١٣٢٨ - ١٣٥٠ م	فيليب السادس (١)
١٣٥٠ - ١٣٦٤ م	حنا
١٣٦٤ - ١٣٨٠ م	شارل الخامس
١٣٨٠ - ١٤٢٢ م	شارل السادس
١٤٢٢ - ١٤٦١ م	شارل السابع
١٤٦١ - ١٤٨٣ م	لويس الحادى عشر
١٤٨٣ - ١٤٩٨ م	شارل الثامن
١٤٩٨ - ١٥١٥ م	لويس الثانى عشر (٢)
١٥١٥ - ١٥٤٧ م	فرنسوا الأول (٣)
١٥٤٧ - ١٥٥٩ م	هنرى الثانى (٤)
١٥٥٩ - ١٥٦٠ م	فرنسوا الثانى
١٥٦٠ - ١٥٧٤ م	شارل التاسع
١٥٧٤ - ١٥٨٩ م	هنرى الثامن
(٥) } مرجريت تزوجت من هنرى الرابع بن أنطونى دوق بوربون .	

(١) ابن شارل ، كوفت قالوا ، وشارل هذا هو الابن الذى لفيليب الثالث ، أول ملك فى بيت فالوا .

(٢) ابن شارل ، دوق أورليانز ، وزوج جوان أخت شارل الثامن ، وتزوج قجا بعد آن دوقه بريثافى .

(٣) ابن شارل ، دوق أنجوليم ، تزوج كلود ، ابنة لويس الثانى عشر .

(٤) تزوج كاترين دى مدتشى .

(٥) أبناء هنرى الثانى وكاترين دى مدتشى .

ملوك إنجلترا

من سنة ١٠٦٦ - ١٤٨٥ م

١٣٠٧ - ١٢٧٢ م	إدوارد الأول	١٠٨٧ - ١٠٦٦ م	وليم الأول الفاتح
١٣٢٧ - ١٣٠٧ م	إدوارد الثاني	١١٠٠ - ١٠٨٧ م	وليم الثاني
١٣٧٧ - ١٣٢٧ م	إدوارد الثالث	١١٣٥ - ١١٠٠ م	هنري الأول (أخو وليم الثاني)
١٤١٣ - ١٣٩٩ م	هنري الرابع (٤) حفيد إدوارد الثالث	١١٥٤ - ١١٣٥ م	ستيفن (١)
١٤٢٢ - ١٤١٣ م	هنري الخامس		ماتلدا (٢)
١٤٦١ - ١٤٢٢ م	هنري السادس	١١٨٩ - ١١٥٤ م	هنري الثاني (٣)
١٤٨٣ - ١٤٦١ م	إدوارد الرابع (٥)	١١٩٩ - ١١٨٩ م	رتشارد الأول
١٤٨٣ م	إدوارد الخامس	١٢١٦ - ١١٩٩ م	حنا (أخو رتشارد الأول)
١٤٨٣ - ١٤٨٥ م	رتشارد الثالث	١٢١٦ - ١٢٧٢ م	هنري الثالث

(١) حفيد وليم الفاتح من ابنته أديلدا بزواجها من ستيفن كونت بلوا .

(٢) ابنة هنري الأول .

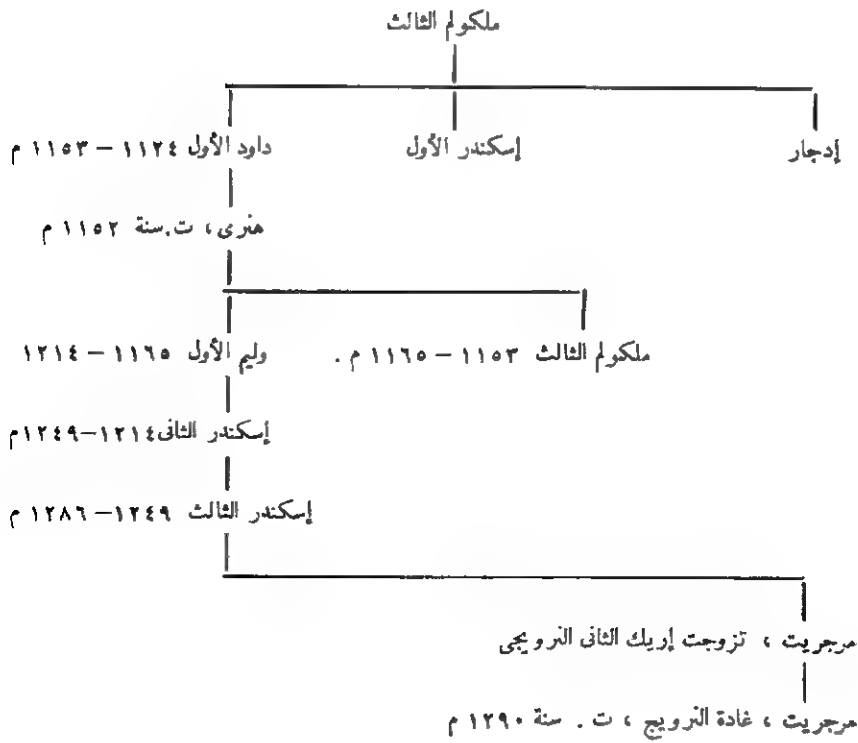
(٣) حفيد هنري الأول من ابنته ماتلدا بزواجها من جفري بلانتاجنت ، كونت أنجو ، وهو

الزوج السابق للأميرة إلينور طليقة لويس السابع ملك فرنسا ووريثة أكويتانيا .

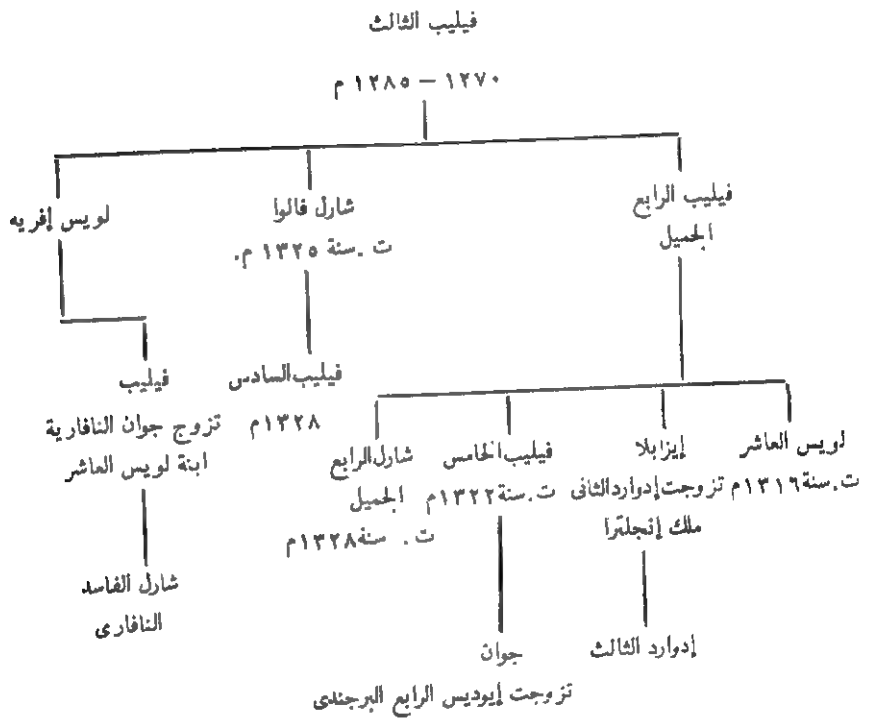
(٤) حفيد إدوارد الثالث من ابنه الثالث حنا جوننت .

(٥) حفيد إدمووند ، دوق يورك ، الإبن الرابع لإدوارد الثالث .

ملوك اسكتلندا



المطالبون بعرش فرنسا سنة ١٣٢٨ م



أسرة هابسبرج

١٢٧٣ - ١٥١٩ م

الإمبراطور رودولف الأول ١٢٧٣ - ١٢٩١ م

ألبرت الأول، تزوج أنيزابث التيرولية

ألبرت الثاني
الملقب ملك الرومان سنة ١٣٣٠ م. ت سنة ١٢١٨ م

لويولد حاكم الممتلكات
الهابسرجية عدا النمسا

ألبرت الثالث
حاكم النمسا

فردريك
حاكم بلاد التيرول وسوابيا
مجموعته ت ١٤٩٦ م
ليس له وريث

إرنست (ت ١٤٢٤)
حاكم ستيريا وكارنثا

فريدريك الثالث
ملك الرومان ١٤٤٠ - ١٤٩٣ م

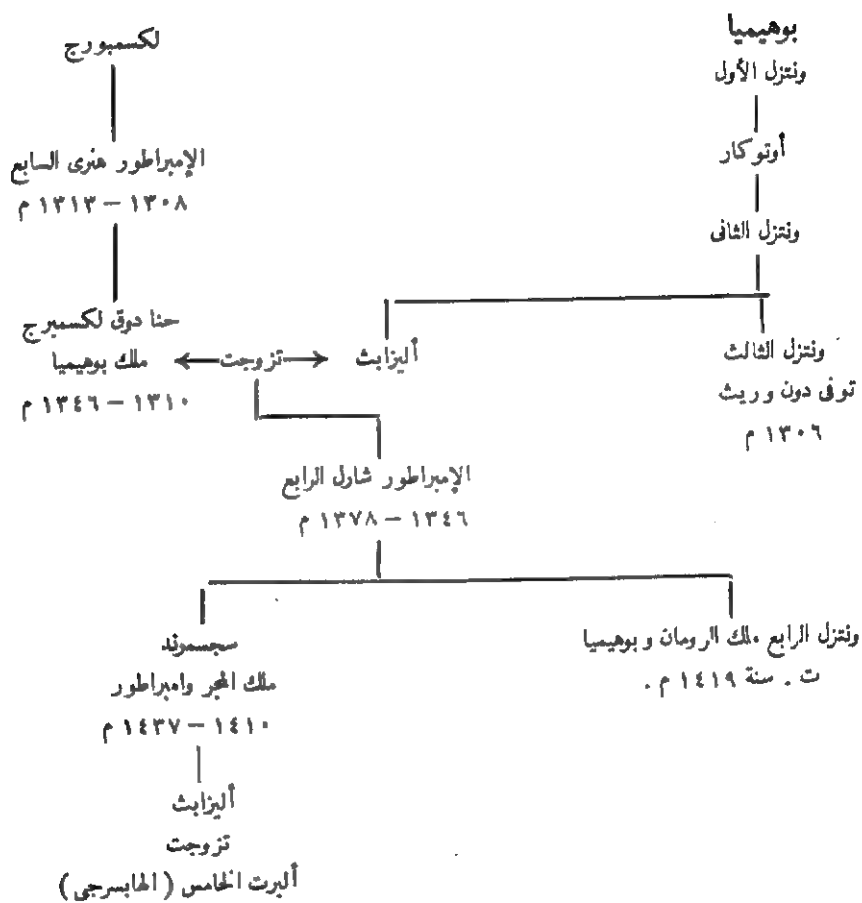
مكسميليان الأول
تزوج ماري البرجنديّة
وصار ملكاً على جميع الممتلكات الهابسرجية

ألبرت الرابع
ت ١٤٠٦ م

ألبرت الخامس
ملك الرومان ١٤٣٨ - ١٤٤٠ م

لاديسلاس يوستوموس
دوق النمسا، ملك بوهيميا وألمجر
(ليس له وريث)

بيت لكسمبورج وعرش بوهيميا



الآباطرة البيزنطيون من ١٠٥٩ إلى ١٤٥٣ م

أسرة الأشاكرة

- (أو إمبراطورية ثيقيّة)
١٢٠٤-١٢٦١ م
١٢٠٤-١٢٢٢ م تيودور الأول
١٢٢٢-١٢٥٤ م حنا الثالث
١٢٥٤-١٢٥٨ م تيودور الثاني
١٢٥٨ م حنا الرابع

أسرة باليولوج

- ١٢٥٨-١٢٨٢ م ميخائيل الثامن
١٢٨٢-١٣٢٨ م أندرونيكوس الثاني
١٣٢٨-١٣٥١ م أندرونيكوس الثالث
حنا الخامس
(تحت وصاية آن أميرة سافوي) ١٣٤١-١٣٤٧ م
حنا السادس
(كانثاكوزين) ١٣٤٧-١٣٥٥ م
حنا الخامس (مرة أخرى) ١٣٥٥-١٣٧٦ م
أندرونيكوس الرابع ١٣٧٦-١٣٧٩ م
حنا الخامس ١٣٧٩-١٣٩٠ م
أندرونيكوس الرابع ١٣٧٩-١٣٨٥ م
مانويل الثاني ١٣٨٦-١٣٩١ م
حنا السابع ١٣٩٠ م
حنا الخامس (مرة أخرى) ١٣٩٠-١٣٩١ م
مانويل الثاني ١٣٩١-١٤٢٥ م
حنا الثامن ١٤٢٥-١٤٤٨ م
قنسطنطين الحادي عشر ١٤٤٨-١٤٥٣ م

أسرة دوقاس

- قنسطنطين العاشر ١٠٥٩-١٠٦٧ م
ميخائيل السابع
(تحت وصاية إيودوخيا) ١٠٦٧-١٠٦٨ م
دومانوس الرابع
(ديوجينيس) ١٠٦٨-١٠٧١ م
ميخائيل السابع ١٠٧١-١٠٧٨ م
نقفور الثالث ١٠٧٨-١٠٨١ م

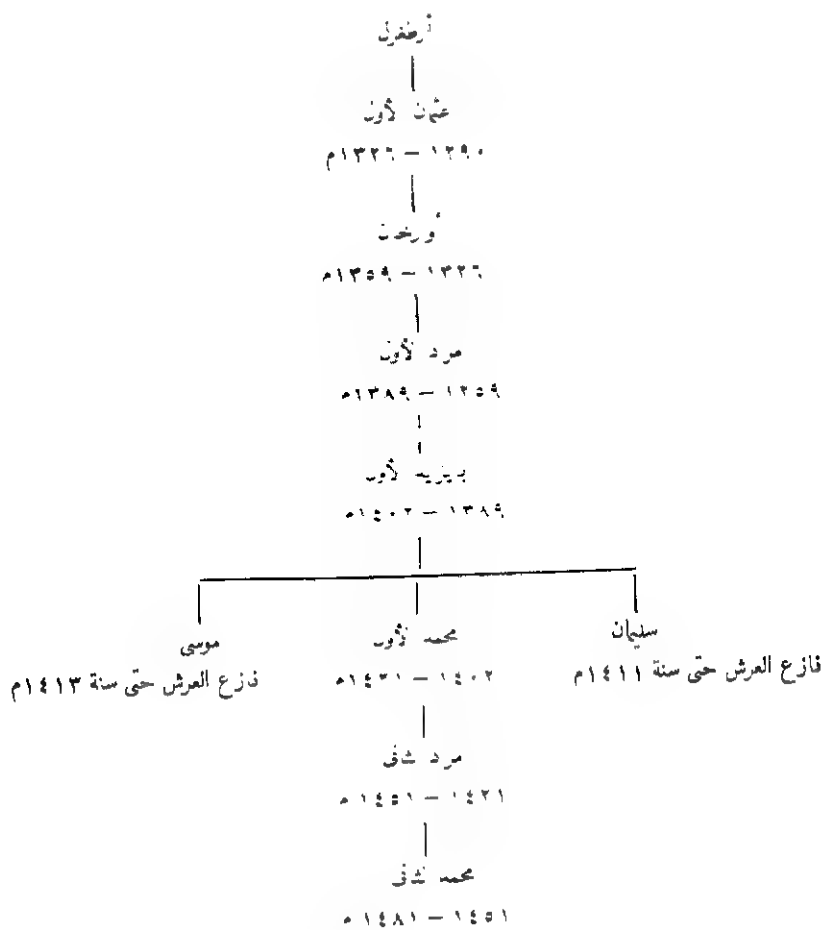
أسرة كومنين

- ألكسيوس الأول ١٠٨١-١١١٨ م
قنسطنطين دوقاس ١٠٨١-١٠٩٠ م
حنا الثاني ١٠٩٢-١١١٨ م
حنا الثاني ١١١٨-١١٤٣ م
مانويل الأول ١١٤٣-١١٨٠ م
ألكسيوس الثاني ١١٧٢-١١٨٠ م
ألكسيوس الثاني ١١٨٠-١١٨٣ م
أندرونيكوس الأول ١١٨٣-١١٨٥ م

أسرة أنجيلوس

- إسحاق الثاني ١١٨٥-١١٩٥ م
ألكسيوس الثالث ١١٩٥-١٢٠٣ م
ألكسيوس الرابع ١٢٠٣-١٢٠٤ م
ألكسيوس الخامس ١٢٠٤ م

السلطين العثمانيون حتى الاستيلاء على القسطنطينية



(١)

- أدواكر : ٤٨ ، ٣٤ ، ٣٣ ، ٣٢ .
 أراس (معاذة) : ٣٣٢ .
 إربان الثاني : ١٧٨ ، ١٧٤ .
 إربان الرابع : ٢٦٠ .
 إربان السادس : ٣٥٩ .
 أرتوا : ٢٨٥ .
 أرجونة : ٣٩٤ ، ٣٦٠ .
 لأرسطالين : ٢٦٨ .
 أرسطو : ٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨ ، ١٢ .
 الأرك (وقعة) : ٣٩١ .
 أركاديوس : ٢٣ .
 آرل : ٧٦ ، ٩٩ .
 أرناخ : ٩٠ .
 أرمتياك : ٣٣٤ ، ٣٣٢ ، ٣٣١ .
 أرموريكا : ٣٠ .
 آرفولد البريشي : ١٩٨ .
 آرفولف : ١٠٠ ، ٧٥ .
 الأرويسية : ٣٤ ، ٢٩ ، ١٨ ، ١٧ ، ٩ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٥١ ، ٥٠ ، ٤٧ ، ٤٥ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٨١ ، ٧١ .
 الساليون : ٣١٥ .
 أسامة بن منقذ : ١٨٥ .
 إسبانيا : ٤٦١ ، ٣٩٨ ، ٣٨٥ ، ٣١٩ .
 الإبتارية : ٤٤١ ، ٢٩٤ ، ١٨٣ .
 الإبتاريون : ٣٠٨ .
 اسكتلندا : ٣١٣ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٦ ، ٣٦٠ ، ٣٤٦ .
 الاسكتلنديون : ١٣٩ ، ١١٨ ، ٣٧ ، ٢٥ ، ١٦٤ .
 إسكندر الثالث : ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ١٩٩ .
 ٢٨٦ .
 إسكندر فسكي : ٤١١ .
 الإسكندرية : ١٠٤ ، ١٨ ، ٩ .
 اسكنديناوة : ١٢٣ ، ١١٨ ، ١١٣ ، ١٦ .
- أيلارد : ٣١٥ .
 آتالوس : ٢٧ .
 اتفاقية بوج : ٣٨٠ .
 أتو الأول (إمبراطور) : ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٥٣ ، ١٥٢ ، ١٤٢ ، ١٤١ ، ١٤٠ .
 أتو الرابع (إمبراطور) : ٢٤٩ .
 أتو وتلسباخ : ٢٠٢ .
 آتولف : ٣٣ ، ٢٧ .
 أتيلا : ٣٢ ، ٣١ ، ٢٩ .
 إتيوس : ٢٩ .
 إثنبرت : ١١٩ ، ٤٠ .
 إثلرد : ١٢٦ ، ١٢٣ ، ١٢٢ .
 أثناسيوس : ١١٠ ، ١٠٦ .
 أثينا : ٤٤٢ ، ٢٣ .
 أجاتياس : ٥٦ .
 أجنكورت : ٣٤٠ ، ٣٣١ ، ٣١٤ .
 أخيلوس : ٢٧٣ ، ١٢ .
 أدالبرت : ١٥٨ .
 أدركة : ٤٤٣ ، ٤٥٠ ، ٤٤٧ ، ٢٢ .
 إدموند : ٢٩٨ .
 إدوارد (الأمير الأسود) : ٣٢٣ ، ٣٢٦ .
 إدوارد الأول (ملك إنجلترا) : ٣٠١ ، ٣٠٠ ، ٣٠٢ ، ٣٠٨ ، ٣٠٧ ، ٣٠٥ ، ٣٠٤ ، ٣١١ .
 إدوارد الثاني (ملك إنجلترا) : ٣٢٩ .
 إدوارد الثالث (ملك إنجلترا) : ٢٨٨ ، ٢٩٠ ، ٣١٨ ، ٣١٧ ، ٣١٥ ، ٣١٣ ، ٣٢٨ ، ٣٣٨ ، ٣٣٧ ، ٣٣٦ ، ٣٣١ ، ٣٢٤ ، ٣٤٤ .
 إدوارد بروس : ٣١١ .
 إدوارديين : ٣٢٢ .

ألفونسو هنريك : ٣٨٩ .

ألكسيوس أنجيلوس (إمبراطور) : ٢٤٤ ،

٣٤٦ .

ألكسيوس كومنين (إمبراطور) : ١٧٣ ،

١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ .

أنكوين : ٩٠ .

اللاتران : ٢٩٦ .

ألمانيا : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٨٢ ، ٩١ ،

٩٢ ، ٩٣ ، ٩٥ ، ١٩٣ ، ١٩٤ ،

١٩٥ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٠٤ ، ٢١١ ،

٢١٧ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٨ ، ٢٤٤ ،

٢٤٩ ، ٢٥٠ ، ٢٥٨ ، ٢٦١ ، ٣٤٦ .

الألباني : ٢٠ ، ٢٥ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٩ ،

١٠٠ .

الألمان : ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ١٥٢ ،

١٥٣ ، ١٥٤ ، ١٧٨ ، ١٩٣ ، ١٩٦ ،

١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٢ ، ٢٠٤ ، ٢٨٧ ،

٣١٥ .

أمالاثوسا : ٤٧ .

أموري الأول : ١٨٦ .

أميان : ٢٨٥ .

إنجلترا : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤١ ، ٥١ ،

١١٦ ، ١١٨ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ،

١٢٥ ، ١٢٩ ، ١٤١ ، ١٥٧ ، ١٦٠ ،

١٦١ ، ١٨٨ ، ٢٠٦ ، ٢١١ ، ٢١٣ ،

٢١٤ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢١٨ ، ٢٢٤ ،

٢٢٥ ، ٢٣١ ، ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٦٤ ،

٢٨١ ، ٢٨٢ ، ٢٨٤ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ،

٢٨٨ ، ٢٨٩ ، ٢٩١ ، ٢٩٤ ، ٢٩٩ ،

٣٠٦ ، ٣٠٨ ، ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣١٥ ،

٣١٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٠ ، ٣٢٥ ،

٣٣٠ ، ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٣ ، ٣٣٩ ،

٣٦٧ ، ٤٣٧ .

الإنجليز : ٣٨ ، ٣٩ ، ٤٠ ، ٤٨ ،

١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ،

١٢٩ ، ١٦٠ ، ١٦١ ، ٢٨٨ ، ٢٨٧ ،

١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٣٢ ، ١٤١ ، ١٧٨ ،

٢٢٦ .

الإسلام (والمسلمون) : ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ ،

٦٣ ، ٦٥ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٧٦ ، ٩٠ ،

٩٧ ، ١٠٠ ، ١٢٧ ، ١٣٠ ، ١٣١ ،

١٤٧ ، ١٧١ ، ١٧٢ ، ١٧٣ ، ٢٤٤ ،

٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٤٩ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ،

٢٥٦ ، ٥٨ .

آسيا الصغرى : ٣١٩ .

أشبيلية : ٣٩٢ .

الإصلاح الديني : ٢٩٣ .

الآثار : ٤٤ ، ٥٢ ، ٧٤ ، ٩١ ، ٩٢ .

أفلاطون : ١٢ .

أفينيون : ٧٦ ، ٢٠٤ ، ٢٦٤ ، ٣١٥ ،

٣١٩ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ ، ٣٣٩ ، ٣٥٥ ،

٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٨٢ .

إقريطش : ١٧١ ، ١٧٨ .

أقطانية : ١٧ ، ١٨ ، ٢٩ ، ٣٣ ، ٧٤ ،

٩٤ ، ٩٨ ، ٩٩ ، ١٢٩ ، ١٥٧ ،

٢٨٦ ، ٣١٧ ، ٣١٨ .

إكارت : ٣٦١ .

أكسفورد : ٣٤٠ ، ٣٥٧ ، ٣٦٢ ،

٣٦٣ ، ٣٦٦ .

أكيابولي (أسرة) : ٤٣٢ .

الآزك : ٢٣ ، ٣٠ ، ٣٥ .

ألب أرسلان : ١٧٢ .

ألبرت الأول هابسبرج : ٣٥٢ .

ألبرت الخامس (هابسبرج) : ٣٥٢ ، ٣٥٣ ،

ألبرت الكولوني العظيم : ٢٦٩ ، ٢٧٠ ،

البرك (راهب . مؤت كاسينو) : ٢٧٢ .

آل أليينزي : ٤٢٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٥ .

الأليجنسيون : ٢٨٨ .

إلجريكو المصور اليوناني : ٣٩٦ .

ألفونس الرابع (ملك قشتالة) : ٣٨٨ .

ألفونس السادس (ملك قشتالة) : ٣٨٩ ،

٣٩٠ ، ٣٩١ .

آيا صوفيا : ٤٥٧ ، ٤٠٤ ، ٥٤ ، ٥٣ .
 آيرلندا : ٣٠٩ ، ١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦٤ .
 ٣١٠ ، ٣١١ ، ٣١٢ .
 ايزابلا : ٣٨٦ ، ٣٨٥ ، ٣١٥ .
 ايزوب : ٦ .
 ايستولف : ٨٢ .
 ايطاليا : ٢٧٥ ، ٢٧٠ ، ٢٦٩ ، ٢٦٨ .
 ٢٧٦ ، ٢١٩ ، ٣٤٣ ، ٤١٩ ، ٤٢٠ .
 ٤٢١ ، ٤٢٢ ، ٤٢٧ ، ٤٦١ .
 ايفان الأكبر : ٤١٧ .
 ايفان كاليثا - (ايفان أبو الذهب) : ٤١٢ ،
 ٤١٣ .
 ايليريا : ٤٥ ، ١٧ ، ٩ ، ٤ ، ١ .
 أيونا (حزيرة) : ٩٠ .
 (ب)
 البابوية : ٢٦٨ .
 باتاي (رقعة) : ٣٣٣ .
 باترك (قديس) : ٣٠٩ .
 بادوا : ٤٢٩ .
 باري : ١٥٨ ، ١٢٨ ، ٣٦ ، ٣٥ ، ٣٠٩ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢٢٤ ، ٢٦٨ .
 ٣١٦ ، ٣٢٣ ، ٣٢٤ ، ٣٢٨ .
 الباستوروه : ٢٩٢ .
 باسل الثاني (إمبراطور) : ١٧٠ ، ١٧١ ،
 ١٧٢ ، ٤٠٤ .
 الباستيل : ٣٢٨ .
 بافاريا : ١٩٥ ، ٢٠٢ ، ٣٤٤ .
 بافيا : ٢٠٠ ، ٢٢٣ .
 بالرمو : ١٤٠ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ .
 بانوكيرن (وقعة) : ٣٠٨ .
 بايزيد الأول (يلدرم) : ٤٤٨ ، ٤٤٩ .
 بترارك : ٨٨ ، ٣٢٣ ، ٣٤٧ ، ٤٣٥ .
 براج : ٣٤٤ ، ٣٧٠ .
 البراجيري : ٣٣٦ .

٢٩٥ ، ٣١٥ ، ٣٢٤ ، ٤٦٤ .
 الانجلو - سكسونيين : ٢٩٥ .
 آنجو : ٣١٥ ، ٢٨٦ .
 أنجوليم : ٢٨٨ .
 أندرونيق الثاني (إمبراطور) : ٤٤٢ .
 أندري بوجوليوسكي سوزدال : ٤٠٦ .
 أنريكو داندولو : ٢٤٤ .
 أنسطاسي : ٥٥ ، ٤٥ .
 آنسلم : ١٦٥ ، ١٦٢ .
 أنطاكية : ١٧١ ، ١٣٠ ، ١٠٤ ، ٥١ .
 ١٧٤ ، ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ .
 أنقرة : ٤٥٠ .
 أنوسنت الثالث (بابا) : ٢٣١ ، ٢٣٢ ،
 ٢٣٣ ، ٢٣٤ ، ٢٣٥ ، ٢٣٦ ، ٢٣٨ .
 ٢٤٣ ، ٢٤٩ ، ٢٥٠ .
 أنوسنت الرابع (بابا) : ٢٥٧ ، ٢٥٨ ،
 ٢٦٣ .
 أنوشروان : ٤٦ .
 إينياس سيلفيوس : ٣٥٣ .
 أوتوكار : ٣٤٣ .
 أوجسطس (الإمبراطور) : ٢٧٥ .
 أوجسطين (القديس) : ١١ ، ١٢ ، ٢٤ ،
 ٣٧ ، ٤٠ ، ٤٣ ، ٧٨ .
 أوجز برج : ١٩٥ ، ٢٢٤ ، ٣٤٦ .
 أوجطاي (الخاقان) : ٤١٠ ، ٤٠٨ .
 أوجولينو دي فيفالديو : ٤٦٣ .
 أورخان (التركي) : ٤٤٤ ، ٤٤٥ .
 أورليان : ١٧ ، ٣٢٣ ، ٣٣٣ .
 الأورليانيين : ٣٣١ ، ٣٣٢ ، ٣٣٤ .
 أوستراسيا : ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ .
 أوفرن : ٢٨٦ .
 أوفيد : ١٢ .
 أولجيرود : ٤١٤ .
 أوليفلا : ١٧ .
 أوليفر كرمويل : ٢٨٣ .
 أوين جلندور : ٣٠٦ ، ٣٣٠ .

تروا : ٣٢ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ .
 التروبادور : ٢٣٤ ، ٢٥٥ .
 تريف : ٣ .
 تريفز : ٢٥ .
 تسكانيا : ٤٣٥ .
 التشك : ٩٥ .
 تشلبرك : ٧٢ .
 تشلدبرت الثاني : ٧١ .
 تشوسر : ٣٣٧ .
 تشيان - المصور الإيطالي : ٣٩٦ .
 تشيوجيا (وقعة) : ٤٦٣ .
 تشيويي : ٤٤٣ .
 تعليم : ٨٩ ، ٩٠ ، ٩١ ، ٩٤ ، ٢٠٩ ،
 ٢١٠ ، ٢١١ ، ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤ ،
 ٢١٥ ، ٢١٦ ، ٢١٧ ، ٢٣٩ .
 تل أوسى (أو تل طابور) : ٣٧٣ .
 توتيللا : ٤٨ ، ٤٩ .
 تورين : ٢٨٧ .
 تولوز : ٢٨٥ .
 توماس (القديس أكويناس) : ١٢ ، ٢٣٩ ،
 ٢٦٩ ، ٢٧٠ ، ٢٧١ ، ٢٧٧ ، ٢٧٩ ،
 ٢٨٠ .
 توماس بكت (رئيس أساقفة كانتبرى) : ٢٨٧ .
 تونس : ٢٩٢ .
 تيرنس : ١٢ .
 التيرول : ٣٤ .
 التيمز (نهر) : ٣٢٦ .
 تيمورلنك : ٤١٦ ، ٤٤٩ ، ٤٥٠ .
 التيوتون : ٣٤٤ .
 تيودور لاسكاريس (إمبراطور) : ٢٤٧ .
 تيودورا : ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٦ .
 التيردوريون : ٣١١ .

(ث)

ثيودوريك : ٢٨ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ،

٣٧٠ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ ، ٣٧٥ ، ٣٧٦ ،
 ٣٨١ ، ٣٨٣ ، ٤٥١ .
 بياتريس : ٢٧١ ، ٢٧٣ .
 بين : ٧٥ .
 بين الثاني : ٧٦ .
 بين القصير : ٨٢ ، ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ .
 البيت الباليولوجى : ٤٣٩ .
 بيت البريمسليدين : ٣٦٨ .
 بيت كاييه : ٢٩٢ .
 بيت المقدس : ٧٨ ، ١٠٤ ، ١٧٤ ،
 ١٨٠ ، ١٨١ ، ١٨٣ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
 ١٨٨ .
 بيده : ٧٧ ، ٧٩ .
 بروجيا : ٣٦١ .
 بيزا : ١٧٦ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ٢٢٣ ،
 ٢٤٥ .
 بيزانسون (مجمع) : ١٩٩ .
 بيزلفطة : ١ ، ١٠ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٦٠ ،
 ٧٥ .
 بيوس الثاني (بابا) : ٣٤٦ .

(ت)

تاكيتوس : ١٦ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٣٩ ،
 تافكرد : ١٧٩ .
 تاوداسيوس (الأول) : ٢٢ ، ٢٣ ، ٣٥ ،
 ٣٣ .
 التاي (ضريبة) : ٣٣٤ .
 التتار : ٤٠٨ ، ٤١٠ .
 تجارة : ٥ ، ٥٩ ، ٦٢ ، ٢٢١ ،
 ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٥ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ،
 ٢٤٧ ، ٢٤٨ ، ٢٦٣ .
 تراجان : ١٩ ، ٢١ ، ٢٢ .
 تراقيا : ٢٢ ، ٢٣ ، ١٨٠ .
 ترانسلفانيا : ٢١ .
 تركستان : ١٧٢ .

١٠٩ ، ٩٣ ، ٧٤ ، ٧٢ ، ٥١ ، ٥٠
 جريجورى الثالث : ٨٢ ، ٧١ ، ٨٠
 جريجورى السابع : ٤٣٢
 جريجورى الحادى عشر (بابا) : ٣٥٩
 جريجورى الثورى : ١٠٩ ، ٧٢
 جزر كناريا (الخالدات) : ٤٦٤
 جزريك : ٣٠
 جستان آدلفوس : ١٧٨
 جستنيان : ٤٣ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٥٢ ، ٥٣ ، ٥٤
 ٤٣٦ ، ٣٠٠ ، ٥٧ ، ٥٦ ، ٥٥
 جستن الأول : ٣٥ ، ٤٥
 جسقونيا : ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٢ ، ٣٣٢
 جنت : ٣١٤
 جند بود : ٢٨
 جنكير خان : ٤٠٨ ، ٤١٠
 جنوة : ١٧٨ ، ١٨٣ ، ١٨٨ ، ٢٢٣ ، ٢٢٤ ، ٢٤٨ ، ٢٥٠ ، ٢٥٩ ، ٤٥٦
 ٤٦٣
 الجوت : ٣٨ ، ٣٩
 جود فرى بويرن : ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١
 جوديمين : ٤١٤
 جورج كاستريوتس : ٤٥٣
 جوفنال : ١٧٥
 الجولفيون : ٢٧١ ، ٢٢٥ ، ٤٣٢
 جون هوكونود : ٤٢٧
 جوين : ٢٨٦
 جيان جالياتزو فسكونتى : ٤٢٥ ، ٤٢٦ ، ٤٢٧
 جيرالد الكامبرنسى : ٣٠٥
 جيمس الأول (ملك أرسجونة) : ٣٩٢
 جين : ٢٩٢

(ح)

حرب المائة عام : ٢٦٨ ، ٣١٣ ، ٣١٤

٤٣ ، ٤٥ ، ٥٠
 الثورة الفرنسية : ٣٣٨

(ج)

الجابل : ٣٣٨
 جارو : ٩٠
 الجاكبرى (ثورة) : ٣٢٤
 جالا بلاسيديا : ٢٧
 جالاطا (ضاحية بالقسطنطينية) : ٤٤٢ ، ٤٥٦
 جالياتزو فسكونتى : ٣١٧
 جاليبولي (حصن) : ٤٤٢ ، ٤٤٣ ، ٤٤٧
 جالييليو : ٨٨
 جامعة أكسفورد : ٣١٣ ، ٣١٤ ، ٣٠٦ ، ٣٦٢
 جامعة أورليان : ٢١٤
 جامعة باريس : ٢١٢ ، ٢١٣ ، ٢١٤
 ٢١٦ ، ٢٦٨ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٦٠
 جامعة براج : ٣٧١
 جامعة بولونيا : ١٩٩ ، ٢١٢
 جامعة سالرنو : ٢١٠
 جامعة كبريدج : ٢١٣ ، ٢١٤ ، ٢١٦ ، ٣٣٧
 جامعة ليبزج : ٣٧١
 جامعة مونبلييه : ٢١٤
 جامعة نابولي : ٢٥٥
 جان بورو : ٣٣٤
 جان دارك : ٣٣٣ ، ٣٣٤
 جان كير : ٣٣٤
 جاي لوزجنان : ١٨٨
 الجبلينيون : ٢٧١ ، ٤٢٥ ، ٤٣٢
 الجيداي : ٥٢
 الجرمان : ١٥ ، ١٦ ، ١٧ ، ١٨ ، ١٩ ، ٢٠ ، ٢١ ، ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣١ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٣ ، ٤٧

خرسون : ٤٠٥ ، ٤٠٤ .
خلقدونيا : ٥٦ ، ٥٥ .

(د)

داسيا : ٢٢ ، ٢١ .
دافيد الأول : ٣٠٦ .
دافيد بروس : ٣١٧ .
دالماشيا : ٢ ، ٣٤ ، ٩٢ ، ١٧٤ .
داني : ٨٣ ، ٢٥٩ ، ٢٧١ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ، ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ ، ٢٨٠ ، ٢٣٧ ، ٢٤٠ ، ٢٤٧ ، ٢٥٦ ، ٢٦٨ ، ٤٢٢ ، ٤٣٢ .
الدانوب : ١٦ ، ٢٢ ، ٩١ ، ١٣٦ ، ١٥٢ ، ١٧٤ .
الدانيون : ٤٠ ، ٩٢ ، ١٠٠ ، ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨ ، ١١٩ ، ١٢٠ ، ١٢١ ، ١٢٤ ، ٢٢٦ ، ٢٢٧ ، ٢٢٩ ، ٣٠٦ ، ٢٩٤ ، ١٨٥ .
الداوية : ٢٩٤ ، ١٨٥ .
ديبروجه : ٤٤٨ .
دقلديانوس : ١ - ٤ ، ١٠ ، ١١ .
دلاسكالا : ٤٢٢ .
دمشق : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٣٩٥ .
دمياط : ١٨٦ .
دنس : ٣٥٧ .
دودة القز : ٤٦١ .
دورازو : ١٨١ .
دورستشر (مقاطعة) : ٣١٩ .
دوقية ليتوانيا : ٤١٥ .
الدولة الرومانية المقدسة : ٣٤٥ .
الدولة المسكوفية : ٤١١ ، ٤١٣ .
دودي : ٣٣٣ .
دومنيك القشتالي (القدس) : ٢٣٤ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ .
الدوفاتيون : ٩ .
دير برعنثريه : ٢١٦ .

٣٣٦ ، ٣٣٧ ، ٣٣٩ ، ٣٤٠ ، ٣٥٦ ، ٣٦٨ .

حرب الوردتين : ٣٠٦ ، ٣٤٠ .
حركة الأحياء الأنجيلي : ٢٣٤ .
الحركة اللواردية : ٣٦٦ ، ٣٦٧ .
حروب إيجور (قصة) : ٤٠٧ .
الحروب الصليبية : ٣٨٩ ، ٤٦٠ .
الحروب الهسية : ٣٧١ ، ٣٧٦ .
حطين : ١٨٧ ، ٣٩١ .
الحكومة الإنجليزية : ٢٩٠ .
حلب : ١٨٥ ، ١٨٦ .
حنا (ملك إنجلترا) : ٢٨٢ ، ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٢٨٨ ، ٢٩٥ .
حنا (ملك فرنسا) : ٣١٧ .
حنا ابلين : ١٨٣ .
حنا باليول : ٣٠٨ .
حنا تاوولر : ٣٦١ .
حنا تزنسكا : ٣٧٢ ، ٣٧٣ .
حنا الثاني : ٣٢٣ ، ٣٢٩ .
حنا الثاني عشر (يابا) : ١٣٧ .
حنا جرسون : ٣٦٠ .
حنا جونث (عميد اللانكستريين) : ٣٦٣ ، ٣٦٤ .
حنا شمشيق (إمبراطور) : ١٧٠ ، ١٧١ ، ٤٠٧ .
حنا فم الذهب : ١٠٥ .
حنا الكريم (ملك فرنسا) : ٣٢٣ ، ٣٢٦ .
حنا المقدام : ٣٢٧ ، ٣٣١ .
حنا منتفرت : ٣١٨ .
حنا هس : ٣٧٠ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٨ .
حنا هنيادي : ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ .

(ذ)

خافات المغول : ٤٦٢ .
خراسان : ١٧٢ .

روبرت بروس : ٣٠٨ .
 روبرت دى سوريون : ٢١٦ .
 روبرت كليف : ٢٢٨ .
 روتسى : ٤٠٢ .
 روجر بيكون : ٢٣٩ ، ٣٥٧ .
 الرويجيون - من الجرمان الشرقيين : ٣٢ .
 رودس : ٤٤١ .
 رودلف هابسبرج : ٢٦٢ ، ٣٤٣ .
 رورك : ١١٥ ، ٤٠٢ .
 روسيا : ٤٥ ، ١١٥ ، ١٢٧ ، ١٤١ ،
 ١٧٥ ، ٢٢٧ ، ٣٤٤ ، ٤٠٠ ، ٤٠١ ،
 ٤٥٥ ، ٤٠٦ ، ٤٠٨ ، ٤١١ .
 روسيا اللتوانية - أو روسيا الصغرى : ٤١٥ .
 رولان : ٩٣ ، ١٢٧ .
 روما : ٣ ، ٩ ، ١٠ ، ١٨ ، ١٩ ،
 ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٠ ، ٣٥ ، ٣٧ ،
 ٣٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٧٥ ، ٨٠ ،
 ٨١ ، ٨٢ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٩٧ ، ٩٩ ،
 ١٠٠ ، ١٠٥ ، ١٠٦ ، ١٠٧ ، ١٤٠ ،
 ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٩٦ ، ٢٣٣ ، ٢٣٩ ،
 ٢٤٤ ، ٢٤٩ ، ٢٥٧ ، ٢٦٤ ، ٣٥٥ ،
 ٣٨٢ .
 رومانوس ديوجينيس (إمبراطور) : ١٧٣ .
 روميلوس أوغسطس : ٣٢ ، ٣٣ .
 روناليا (مجمع) : ١٩٨ ، ١٩٩ .
 الرها : ١٧٤ ، ١٨٣ ، ١٨٥ .
 ريمس : ٣٢٣ ، ٣٣٢ .
 ريمى : ٣٢٢ ، ٣٣٣ .
 رينى (إمبراطورة) : ٨٧ .

(ز)

الزلافة (معركة) : ٣٩٠ .
 زكى : ١٨٥ .
 زينون : ٣٣ .

دير بويو : ٢١٨ .
 دير بيك : ٢١٨ .
 دير ريخنا : ٢١٨ .
 دير سانت البانز : ٢١٨ .
 دير سانت جال : ٢١٨ .
 دير سيتو : ٢١٦ .
 دير شارترو : ٢١٦ .
 دير شارو : ٢١٨ .
 دير فولدا : ٢١٨ .
 دير كلونى : ١٤٣ ، ٢١٦ .
 دير كورفيه : ١٢٤ ، ٢١٧ ، ٢١٨ .
 دير مونت سان ميشيل : ٢١٨ .
 دير مونت كاسينو : ١١٠ ، ٢١٨ .
 دير وستمنستر : ٢٩٨ .
 ديمى دونسكوى : ٤١٦ .

(ر)

راجوزة : ٤٥٦ .
 رافنا : ٢٣ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٣٤ ، ٤٨ ،
 ٥١ ، ٥٤ ، ٨٠ ، ٨٥ ، ١٤٧ ، ١٧١ .
 راجبوند : ١٧٩ .
 الراين : ٣ ، ١٦ ، ٢٤ ، ٣١ ، ٣٦ ،
 ٩٨ ، ٩١ .
 رتشارد الثانى : ٣١٠ ، ٣٢٦ ، ٣٢٨ ،
 ٣٢٩ ، ٣٣٠ ، ٣٤١ ، ٣٦٦ .
 رتشارد الثالث : ٣٢٣ .
 رتشارد دى كليز : ٣١٠ .
 رتشارد قلب الأسد : ١٨٧ ، ١٨٨ ، ٢٠٦ ،
 ٢٨٥ .
 رتشارد كورنوال : ٢٦٢ .
 رجار : ١٣٠ ، ١٣١ .
 رجار دى فلور (قرسان ألماني) : ٤٤١ .
 ابن رشد : ٣٥٧ ، ٣٩١ .
 رمانية : ٣٤٣ .
 روان : ٢٨٤ ، ٣٣١ ، ٣٣٤ .

- سويسرا : ٣٥٢ .
 السويسريون : ٣٤٨ .
 السويش : ٢٤ ، ٢٩ .
 سوين : ١٢٣ .
 سياجريوس : ٣٥ .
 سيجر الباراباتي : ٢٦٨ ، ٢٧٩ .
 السيد القمبيطور (رودريجو دى بيفار) :
 ٣٨٨ .
 سيدونيوس أبولينارس : ٧٢ .
 سيمون دى مونتفرت : ٢٨٣ ، ٢٩٩ ،
 ٣٠٠ .
 سينسيوس : ٢٣ .

(ش)

- شارل (ملك نافار) : ٣٢٤ .
 شارل الأصلع : ٩٨ ، ٩٩ .
 شارل أنجو : ٢٦٠ ، ٢٧٦ ، ٤٣٦ .
 شارل الأول (ملك إنجلترا) : ٢٩٨ .
 شارل الثالث (أمير دوازو) : ٤٣٧ .
 شارل الرابع (ملك فرنسا) : ٣١٥ .
 شارل الرابع (ملك بوهيميا) : ٣٨٦ ، ٣٤٥ ،
 ٣٦٩ .
 شارل الخامس (ملك فرنسا) : ٣١٧ ،
 ٣٢٥ ، ٣٢٦ ، ٣٢٧ ، ٣٢٩ .
 شارل السادس (ملك فرنسا) : ٣٢٦ ، ٣٢٧ ،
 ٣٣٣ ، ٣٣٧ ، ٣٦٠ .
 شارل السابع (ملك فرنسا) : ٣٣٤ ، ٣٣٦ .
 شارل الثامن (ملك فرنسا) : ٣٦٠ .
 شارل بلوا : ٣١٨ .
 شارل روبرت الأول (ملك المجر) : ٤٥١ .
 شارل السمين : ١٠٠ .
 شارل مارتل : ٦٦ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٧٩ ،
 ٨١ ، ٨٢ .
 شارلمان : ٣٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٨٣ ،
 ٨٤ ، ٨٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٨٩ .

- سالفريك : ١٨٧ ، ٤٤١ ، ٤٤٧ .
 سانت شابيل : ٣٣٧ .
 ستانيوس : ٢٧١ .
 ستايخو : ٢٣ .
 ستيفن (ملك إنجلترا) : ٢٨٤ .
 ستيفن (بابا) : ٨٢ .
 ستيفن دوشان (زعيم الصربيين) : ٤٤٦ ، ٤٤٧ ،
 ستيفن لانجتن : ٢٩٧ .
 مجسمونه (ملك المجر) : ٣٧٣ ، ٣٨١ .
 سراى : ٤١٠ ، ٤١٣ .
 سردهة (صوفيا) : ١٠٦ .
 سريوم : ٣ .
 سكسونيا : ٣٤٤ .
 السكسون : ٣٨ ، ٣٧ ، ٣٠ ، ٢٥ ،
 ٣٩ ، ٧٢ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٩ ،
 ١١٦ ، ١٢٥ .
 السكسونيون : ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٥٠ ،
 ١٩٣ ، ١٩٥ .
 السكندنافيون : ٤٠٢ .
 السلاجقة : ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ،
 ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨٦ ، ٢٤٧ .
 السلافيون : ٩٢ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٣ ،
 ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨ ، ٣٧٣ ، ٣٧٤ .
 سلاطين الثالث (بابا) : ٢٠٥ .
 سلاطين الخامس : ٣٦١ .
 سلفستر (بابا) : ٨٣ .
 سلويز : ٣١٨ .
 سليمان (ولى عهد أورشان) : ٤٤٧ .
 سمرقند : ٤٥٠ .
 سوابيا : ٣٤٤ .
 سواسون : ٨٢ ، ٣٥ .
 سوجيه (راهب) : ٢٨٥ .
 سوزدال : ٤٤١ .
 السويديون : ١١٥ ، ١١٦ ، ٢٢٨ ، ٢٢٩ .

- طرابلس : ١٨٣ .
طفرل بك : ١٧٢ .
طليطلة : ١٧٨ ، ٣٨٩ .

(ع)

- العادل (السلطان) : ٢٤٤ ، ٢٥٦ .
عبد الرحمن الأموي (قرطبة) : ٨٧ .
عبد الرحمن الثالث : ٣٨٧ .
عبد الرحمن الغافقي : ٦٦ ، ٧٦ .
عثمان (التركي) : ٤٤٤ .
العثمانيون : ٤٥٠ ، ١٧٧ .
العرب : ٤٤ ، ٧٤ ، ١٩٠ ، ٣٨٥ .
٣٨٧ .
الغشاء الرباني : ٢٧٠ .
العصبة السوابية : ٣٥٠ ، ٣٥٢ .
عصبة المدن الهندية : ٢٢٥ ،
عكا : ١٨٧ ، ١٨٨ .
العقاب (وقعة) : ٣٩١ .
عمر الخيام : ١٨٨ .
المهد الأعظم : ٢٩٥ ، ٢٩٧ .

(غ)

- غالة : ١٦٤ ، ١٦٦ ، ١٦٧ .
غاليا : ٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠ ،
٣٢ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٣٧ ، ٣٨ ، ٤٤ ،
٥٠ ، ٥١ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٣ ، ٧٤ ،
٧٦ ، ٧٧ ، ٧٨ ، ٧٩ ، ٩١ ، ٩٢ ،
٩٧ ، ١٠٨ ، ١٠٩ ، ١١٣ .
الغاليون : ٣٠٥ .
غسقونيا : ١٥٧ ، ٢٢٦ .
الغسقونيون : ١٣٦ .
غرناطة : ٣٨٥ ، ٣٩٢ ، ٣٩٤ .
غنت : ٢٢٤ .

- ٩٠ ، ٩١ ، ٩٢ ، ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ،
٩٧ ، ٩٨ ، ١١٦ ، ١٢٧ ، ١٢٩ ،
١٤١ ، ١٥٢ ، ٢٣٣ .
الشام : ٢٩٣ .
شامبانيا : ٢٨٨ .
شروزيبري : ٣٣٠ .
شفتر : ٣٤٨ .
الشفيفوت (جبال) : ٢٨٦ .
شكسيير : ٣٣٤ .
الشاليون : ١١٣ ، ١١٤ ، ١١٥ ، ١١٦ ،
١٢٠ ، ١٢٤ ، ١٢٧ ، ١٣٢ ، ١٣٥ ،
١٥٨ .
شتياجو : ٣٨٧ .
شيرون : ١٣ ، ٧٨ .

(ص)

- الصقالبة : ٤٤ ، ٤٥ ، ٥١ ، ٦٧ ، ٧٤ ،
١٠٠ ، ١١٥ .
صقلية : ٤٧ ، ٤٨ ، ٥٠ ، ١٠٠ ،
١٢٨ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٤٠ ، ١٦٥ ،
١٧٨ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٣ ، ٢٠٤ ،
٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٣٢ ، ٢٥٠ ، ٢٥٥ ،
٢٥٦ ، ٢٦٠ ، ٢٧٠ ، ٣٠٩ ، ٣١٥ ،
٤٣٦ ، ٤٣٧ ، ٤٤٣ .
صلاح الدين : ١٨٥ ، ١٨٦ ، ١٨٧ ،
١٨٨ ، ٢٤٥ .
صلح سيزجند : ٤٥٣ .
صلح لودي : ٤٢٧ .
الصور المقسمة : ٢٦٩ .
الصين : ٤٦١ ، ٤٦٢ .

(ط)

- الطاعون : ٣١٩ ، ٣٢٠ ، ٣٢٢ .

١٧٨ ، ١٧٤ ، ١٦٧ ، ١٦٦ ، ١٦٥
 ٢٠٠ ، ١٨٨ ، ١٨٥ ، ١٨٣ ، ١٧٩
 ٢٢١ ، ٢١٦ ، ٢١٤ ، ٢١١ ، ٢٠٤
 ٢٣٥ ، ٢٣٤ ، ٢٣١ ، ٢٢٥ ، ٢٢٤
 ٢٨٣ ، ٢٨٢ ، ٢٨١ ، ٢٦٤ ، ٢٤٩
 ٢٨٨ ، ٢٨٧ ، ٢٨٦ ، ٢٨٥ ، ٢٨٤
 ٢٨٩ ، ٢٩٠ ، ٢٩١ ، ٢٩٢ ، ٢١٤
 ٣١٥ ، ٣١٧ ، ٣١٨ ، ٣٢٢ ، ٣٢٤
 ٣٣٤ ، ٣٣٧ ، ٣٦٠ ، ٤٣٧ .
 الإخوان الفرنسكائيون : ٣٦١ ، ٣٦٣ .
 فرنسيس (القديس) : ٢٣٤ ، ٢٣٥
 ٢٣٦ ، ٢٣٧ ، ٢٣٨ ، ٢٣٩ ، ٢٥٨
 ٢٧٣ ، ٢٧٧ .
 القرنكيون : ١٣٥ ، ١٤٠ ، ١٥٠
 ١٩٣ .
 فرواسار : ٣٥٦ ، ٣٦٨ .
 فريزيا : ٧٨ ، ١١٧ .
 الفريزيون : ٧٦ ، ٧٨ ، ٧٩ .
 فسكوني (أسرة) : ٤٢٥ .
 فكتور الرابع (بابا) : ٢٠٠ ، ٢٠١ .
 فكتوريا : ٥١ .
 فلاديمير : ٤٠٣ ، ٤٠٤ .
 فلاسكويز - المصور الأسباني : ٣٩٧ .
 فلاندرز : ٢٨٣ ، ٢٨٥ ، ٣١٧
 ٣٢٧ ، ٣٣٨ ، ٣٢٩ ، ٤٦١ .
 فلسطين : ٧٢ ، ١٨٠ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥
 ٢٤٦ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ .
 فلمنكيون : ٣٢٧ .
 فلوا : ٣٣٣ .
 فلورنسا : ٢٢٣ ، ٢٧٠ ، ٣١٩
 ٣٢٠ ، ٣٨٢ ، ٤٢٣ ، ٤٢٦ ، ٤٣٢
 ٤٣٣ ، ٤٣٤ ، ٤٣٧ .
 فورمز : ٢٥ .
 فورمبي (وقعة) : ٣١٦ .
 فوسكاري : ٤٣٠ .
 فيرونا : ٤٢٩ ، ٤٣٠ .

(ف)

الفانجيون (أى الأحلاف) : ٤٠٢ .
 فاشينو كافي : ٤٢٦ ، ٤٢٧ .
 فارفا : ٤٥٤ .
 فالتينا فيسكوني : ٣٢٧ ، ٣٦٠ .
 فاليز : ٢٢ .
 فالنشيان : ٣٢ .
 فترجيرالد : ١٨٨ .
 فراران (مجمع) : ١٧٧ .
 فرجيل : ١٣ ، ٧٨ ، ٢٧١ ، ٢٧٣
 ٢٧٤ ، ٢٧٥ .
 فردان : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ .
 فردريك بارياروسا : ١٨٧ ، ١٨٨
 ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ١٩٦ ، ١٩٧
 ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠١ ، ٢٠٢
 ٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٨٦ ، ٣٦٨ .
 فردريك (الثاني) : ٢٧٦ ، ٢٩٣
 ٣٤٣ ، ٣٤٤ ، ٣٤٦ ، ٤٤١ .
 فردريك الثالث : ٣٥٣ ، ٣٨١ ، ٣٨٣
 فردريك هوهنشتاوفن (إمبراطور) : ٢٥٠
 ٢٥٣ ، ٢٥٤ ، ٢٥٥ ، ٢٥٦ ، ٢٥٧
 ٢٥٨ ، ٢٥٩ ، ٢٦٠ ، ٢٦١ .
 فردينااند : ٣٨٥ .
 الفرس : ٤٤ ، ٤٧ ، ٥٠ ، ٥١ .
 الفرسان الدارية : ٢٩٣ .
 فرماندوا : ٢٨٧ .
 فرنشسكو سفورزا : ٤٣٠ ، ٤٣١ .
 فرنشسكو كارمانيوولا : ٤٢٩ ، ٤٣٠ .
 الفرنجة : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦
 ٤٩ ، ٦٦ ، ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢
 ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢
 ٨٣ ، ٨٤ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٩٠ ، ٩١
 ٩٣ ، ٩٤ ، ٩٥ ، ٩٧ ، ٩٩ ، ١٢٥
 ١٣٥ .
 فرنسا : ١٥٧ ، ١٥٨ ، ١٥٩ ، ١٦٠

٤٢٣ ، ٤١٦ ، ٢٤٨ ، ٢٤٧ ، ٢٤٦
 ٤٥٤ ، ٤٤٩ ، ٤٤٢ ، ٤٤١ ، ٤٢٧
 ٤٦٣ ، ٤٥٧ ، ٤٥٦
 قشتالة : ٣٨٩ ، ٣٨٨ ، ٣٨٧ ، ٣٦٠
 ٣٩٥ ، ٣٩٤ ، ٣٩٣
 قطالونيا : ٢٨٧
 القطلانيون : ٤٤٣ ، ٤٤٢ ، ٣٢٥
 قاج أرسلان : ١٨٧
 قوافين القابات : ٢٩٧
 قوبيلاي (المغولي) : ٤٦٢
 قوصوه الأولى : ٤٤٨
 قوصوه الثانية : ٤٥٤
 قورسقة : ٣٦٢
 القوط : ٢٢ ، ٢١ ، ١٨ ، ١٧ ، ١٦
 ٢٣ ، ٢٤ ، ٢٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩
 ٣٢ ، ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٥
 ٤٧ ، ٤٨ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ ، ٦٠
 ٧١ ، ١٠٩ ، ١٢٥

القويونات : ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩
 ٢٠٤ ، ٢٨٠
 قونية : ١٨٠ ، ١٨٧ ، ٤٣٩

(ك)

كاييه : ١٥٨ ، ١٥٩ ، ٣١٥
 كاتدراية توتردام : ٢٩١
 كاترين السينية (قديسة) : ٣٥٩
 الكاثوليكية : ٢٦٩
 كارل ماركس : ٤١٧
 الكارلنجيون : ٧٤ ، ٧٥ ، ٨٢
 كارلومان : ٨٣ ، ٨٥
 كازيمير (ملك بولندا) : ٣٢٠
 كالتس (بابا) : ١٠٨
 كاليماخوس : ١٧١
 كاليه : ٢٨٥ ، ٣١٨ ، ٣٢٤ ، ٣٢٥
 ٣٣٦

الفينج : ١١٦ ، ١١٧ ، ١١٨
 فيلكس الخامس (بابا) : ٣٨٢ ، ٣٨٠
 فيليب أغسطس : ١٨٧ ، ٢٤٤ ، ٢٨٨
 ٢٨٩ ، ٢٩١
 فيليب الثاني (ملك فرنسا) : ٢٨٧
 فيليب الرابع (ملك فرنسا) : ٣٣٦
 فيليب الخامس (ملك فرنسا) : ٣١٥
 فيليب السادس (ملك فرنسا) : ٣١٨
 فيليب الحسور : ٣٢٧
 فيليب الخميل : ٢٩٢ ، ٢٩٣ ، ٢٩٤
 ٢٩٥ ، ٣١٧
 فيليب الطيب : ٣٣١ ، ٣٣٢
 فيليب فلوا : ٣١٥
 فيليبو ماريافسكوني : ٤٢٧ ، ٤٢٩
 ٤٣١
 فينا : ١٤٠ ، ١٥٢ ، ٣٥٣

(ق)

القاهرة : ٦٤ ، ١٨٥ ، ١٨٦ ، ٣٩٥
 القبائل السيشية : ٤٠١
 القبيلة الذهبية : ٤١٠ ، ٤١١ ، ٤١٦
 قرطاجنة : ٣٠ ، ٤٧
 قرطبة : ٨٧ ، ٩٥ ، ٣٨٦ ، ٣٨٧
 ٣٩٢
 قسطنطين (الكبير) : ١ ، ٢ ، ٤٤ ، ٦٤ ، ١١٠ ، ١١٦
 ١٠٤ ، ٨٣ ، ٥٢٠
 قسطنطين الحادي عشر (آخر الأباطرة البيزنطيين) : ٤٥٦ ، ٤٥٧
 القسطنطينية : ١٠ ، ١١ ، ٢٣ ، ٣٣
 ٣٥ ، ٤٤ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٥١ ، ٥٤
 ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٠ ، ٨٧
 ١٠٤ ، ١٠٦ ، ١١٥ ، ١١٦ ، ١٦٩
 ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٦
 ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٧٩ ، ١٨٠ ، ١٨١
 ١٨٦ ، ١٨٧ ، ٢٠٦ ، ٢٣١ ، ٢٤٥

كامبانيا : ٣٨٢ .
 الكامل (السلطان) : ٢٥٦ .
 كانوت : ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٢٦ .
 كانوسا : ١٤٦ .
 كريسوبوليس : ١٠ .
 كريسي : ٣١٤ ، ٣١٨ ، ٣١٨ ، ٣٣١ .
 ٣٤٠ ، ٣٦٨ .
 الكلكت : ٣٠ ، ٩٧ .
 كلمنت الرابع (بابا) : ٢٦٠ .
 كلمنت الخامس (بابا) : ٢٦٤ .
 كلمنت السابع (بابا) : ٣٥٩ ، ٣٦٠ .
 كارياداما : ٣٦ .
 كلوديوس : ١٧ ، ٣٨ .
 كلوفس : ٣٣ ، ٣٤ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ٤٤٣ ،
 ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٢ ، ٧٦ .
 ١٥٩ ، ٣٣٢ .
 كليرمونت (مجمع) : ١٧٤ .
 كنراد الثالث (إمبراطور ألمانيا) : ١٨٥ ،
 ١٨٦ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .
 كنرادين : ٣٤٣ .
 كوزيمو دي مدتشى : ٤٣١ .
 كوليس : ٤٦٢ .
 كولونيا : ٢٠٤ ، ٣٤٦ .
 كوليكوفو : ٤١٦ .
 الكوميديا الإلهية : ٢٧٢ ، ٢٧٣ ، ٢٧٤ ،
 ٢٧٥ ، ٢٧٦ ، ٢٧٧ ، ٢٧٨ .
 كوترا د مونتفرات : ١٨٨ .
 كوفيليان : ٢٧١ .
 كيرلس : ٥٥ .
 كييف : ١١٥ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ٤٠٦ ،
 ٤٠٧ ، ٤١٣ ، ٤١٤ .
 (ل)
 لامارش : ٢٨٨ .
 لادسلاس الخامس (ملك المجر) : ٤٥٢ ،

٤٥٣ ، ٤٥٤ .
 اللان : ٢٤ ، ٢٩ .
 لانجدوك : ٢٨٨ .
 لانكستر (بيت) : ٣٢٩ .
 اللانكستريون : ٣٢٩ ، ٣٣٠ .
 لتروث : ٣٦٢ .
 لشبونة : ٣٨٩ .
 لكسمبرج : ٢٧٦ ، ٣٦٨ .
 لندن : ٢٨٣ ، ٢٩٠ ، ٣١٦ ، ٣١٩ ،
 ٣٣٨ ، ٣٦٦ .
 لنيافو (وقعة) : ١٩٨ ، ٢٠١ .
 لوثر (ملك أوستراسيا) : ٩٨ ، ٩٩ ،
 ١٠٠ .
 لوثر الثالث (سبلنبرج) : ١٩٣ ، ١٩٤ ،
 ١٩٥ .
 لوقا (القديس) : ٨٦ .
 اللولاردي : ٣٢٩ ، ٣٣٠ .
 اللويارديون : ٥١ ، ٥٢ ، ٧١ ، ٧٥ ،
 ٨١ ، ٨٥ ، ٩٢ ، ٩٧ ، ١٣٥ ،
 ١٩٧ ، ١٩٨ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ ، ٢٠٤ .
 لوييك : ٢٢٤ ، ٢٢٧ ، ٢٢٨ .
 لويس (القديس) : ٢٩٠ ، ٢٩٢ .
 لويس (بانه) : ٢٩٩ .
 لويس آنجو (ملك المجر) : ٤٣٧ .
 لويس الرابع (البافارى) : ٣٤٥ ، ٣٤٧ .
 لويس السادس (ملك فرنسا) : ٢٨٥ .
 لويس السابع (ملك فرنسا) : ٢١٤ ، ٢٨٥ ،
 ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٢٨٨ .
 لويس الثامن (ملك فرنسا) : ٢٨٣ ،
 ٢٩١ .
 لويس التاسع (ملك فرنسا) : ٤٣٦ .
 لويس العاشر : ٣١٥ .
 لويس المظلم (ملك المجر) : ٤٥١ ، ٤٥٢ .
 لويس (ملك بافاريا) : ٢٧٦ .
 لويس الألماني : ٩٨ ، ٩٩ ، ١٠٠ ،
 ليبان (وقعة) : ٣٧٦ .

محمد الثاني : ٤٥٤ ، ٤٥٦ ، ٤٥٧ .

آل مدتشى : ٤٢٣ .

مدريد : ٣٩٦ .

مدن العصابة الهندية : ٣٤٦ .

المرايطين : ٣٩٠ ، ٣٩١ .

مراد الأول (سلطان تركى) : ٤٤٧ ، ٤٤٨ ، ٤٥٠ .

مراد الثاني (سلطان تركى) : ٤٥٠ ، ٤٥٢ ، ٤٥٣ ، ٤٥٤ ، ٤٥٦ .

مراكش : ٣٩٠ .

مرسيا : ٤٠ .

مسلمة بن عبد الملك : ٦٧ .

المسلمين : ٢٦٨ ، ٢٩٤ .

مصر : ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٩ ، ٦٠ ، ٦١ .

٦٤ ، ٧٥ ، ١١٠ ، ١٧٢ ، ١٨٦ .

١٨٧ ، ٢٤٤ ، ٢٤٥ ، ٢٤٧ ، ٢٤٩ .

٢٩٢ .

مكسيمافوس : ٣ ، ٤ .

مكة : ٦٠ ، ٦٢ ، ٦٤ .

ملفيان (واقعة جسر) : ٧ .

ملياجر : ١٧١ .

المنينجرز : ٢٣٤ .

الموحدون : ٢٣٩ ، ٣٩١ .

مورجارتن : ٣٤٨ ، ٣٥٢ .

موسكو : ٤١١ ، ٤١٢ ، ٤١٥ ، ٤١٦ ، ٤١٧ .

الموصل : ١٨٧ .

المونوفيتية : ٥٥ ، ٥٦ ، ٦٤ .

ميخائيل كريولاريوس (بطريق) : ١٧٦ .

المير وقعنيون : ٦٩ ، ٧٠ ، ٧١ ، ٧٣ .

٧٤ ، ٧٦ ، ٧٧ ، ٨٢ .

ميلان : ٣ ، ١٩٨ ، ٢٠١ ، ٢٢٣ .

٢٣٦ ، ٢٥٩ ، ٢٤٠ ، ٤٢٥ ، ٤٢٦ .

٤٢٧ ، ٤٢٩ ، ٤٣١ ، ٤٣٧ .

ابن ميمون : ٣٩١ .

المنصور بن أبي عامر : ٣٨٧ .

ليسينيوس : ١٠٠ ، ٤ .

ليوج : ٣٣٦ .

ليو الأيسورى : ٦٦ ، ٦٧ ، ٨٠ ، ٨٢ .

ليو الثالث (بابا) : ٧٥ ، ٨٦ ، ٨٧ ، ٨٨ ، ٢٣٣ .

ليو التاسع (بابا) : ١٣١ ، ١٤٣ ، ١٧٦ .

ليوتبراند : ٨١ ، ٨٣ .

ليون : ٢٨٥ ، ٢٨٨ .

ليوفا : ٣٨٧ .

(م)

ماتزني : ٢٧٦ .

مارتن الخامس (البابا) : ٣٧٨ ، ٣٧٩ ، ٣٨٢ .

مارتن لوثر : ٨٥ .

مارجريت النرويجية : ٣٠٧ .

ماركو بولو : ١٨٨ ، ٤٦٢ ، ٤٦٣ .

مارى التيوبودية : ٣١٨ .

ماكسمليان (ملك المجر) : ٣٥٤ ، ٣٥١ .

ماكستيموس : ٦٠٤ .

مانزكرت (وقعة) : ١٧٣ ، ١٧٤ .

مانويل باليولوج (الإمبراطور) : ٤٤٨ ، ٤٤٩ .

مانويل كومنين (إمبراطور) : ١٨٦ ، ١٨٧ .

ماينز : ٧٨ .

المجر يون : ١٥٢ ، ١٧٦ ، ٤٥١ ، ٤٥٢ .

ميجاس كونستانس : ٣٧٢ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

مجمع بازل : ٣٧٧ ، ٣٧٩ ، ٣٨٠ ، ٣٨٣ ، ٣٨١ .

مجمع بيزا : ٣٧٧ ، ٣٧٨ .

محاكم التفتيش : ٢٩١ .

المخلفين : ٢٩٦ .

محمد الأول : ٤٥٠ .

(٥)

- الهابسبورج : ١٤٠ ، ٣٥٠ ، ٣٥٢ ، ٤١٩ .
 هابيل الأسود (وزير أورشليم) : ٤٤٦ .
 هادريان (بابا) : ٨٥ .
 هادريان الرابع (بابا) : ١٩٧ ، ١٩٩ ، ٢٠٠ .
 هارقلير : ٣٣١ .
 هارون الرشيد : ٨٧ .
 هبو : ٢٤ .
 هرقل : ٦٠ ، ٦١ ، ٦٦ .
 هروشيوس : ٢٧١ ، ٢٧٥ .
 الحسين : ٣٧٥ ، ٣٧٦ .
 هلد براند (جرمانيوس السابع ، بابا) : ١٤٤ ، ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ١٦٠ ، ١٦٩ ، ١٧٤ .
 هيبورج : ٢٢٤ ، ٢٢٧ .
 هنري الثاني (بلانتاجنت) : ٢٨٢ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ .
 هنري الثاني (ملك إنجلترا) : ٢١٤ ، ٢٨٤ ، ٢٩٠ ، ٢٩٥ ، ٣٠٩ .
 هنري الثالث (ملك إنجلترا) : ٢٨٣ ، ٢٠٩ ، ٢٩٦ ، ٢٩٨ ، ٢٩٩ .
 هنري الرابع (إمبراطور) : ١٤٥ ، ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٤٨ ، ٣٣٠ .
 هنري الخامس (ملك إنجلترا) : ٣٢٨ ، ٣٣٠ ، ٣٣٢ .
 هنري الخامس (ملك ألمانيا) : ١٩٣ ، ١٩٤ ، ١٩٥ ، ٣١٣ .
 هنري السادس (ملك ألمانيا) : ٢٠٣ ، ٢٠٥ ، ٢٠٦ ، ٢٣١ ، ٢٣٢ ، ٣٣٤ .
 هنري السابع (إمبراطور ألمانيا) : ٣٦٨ .
 هنري الثامن (ملك إنجلترا) : ٣٠٠ ، ٣٦٤ .
 هنري الأسد : ١٩٥ ، ١٩٦ ، ٢٠١ .

(٦)

- فابايون : ٢٩٠ .
 فابول : ٢٧٠ ، ٣٦٠ ، ٤٢٣ ، ٤٣٥ ، ٤٣٦ ، ٤٣٧ .
 فارسيس : ٤٨ ، ٤٩ .
 فافار : ٣٩٤ .
 فسطورس : ٥٥ .
 النظاميين : ٣٤٧ .
 فقفور فوكاس : ١٧٠ ، ١٧١ .
 نقود : ٥ ، ٢ .
 نمرود : ٢٧٣ .
 النخسا : ١٥٢ ، ١٥٣ ، ٣٥٢ .
 نور الدين : ١٨٥ ، ١٨٦ .
 نور شميريا : ٤٠ ، ٤١ ، ١٦٠ ، ١٦٤ ، ٣٠٦ .
 النورمان : ١٢٧ ، ١٢٨ ، ١٢٩ ، ١٣٠ ، ١٣١ ، ١٣٢ ، ١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٧٩ ، ١٧١ ، ١٨٧ ، ٣٠٦ ، ٣٩٥ .
 نورمانديا : ٢٨٢ ، ٢٨٥ ، ٢٨٦ ، ٢٨٧ ، ٣١٨ ، ٣٣١ .
 نورمبرج : ٣٤٦ .
 نوفجورود : ٤٠٢ ، ٤٠٨ ، ٤١١ .
 نفسكي (انظر اسكندر) .
 نويسيريا : ٧٦ .
 نيبيلو تجليد : ٢١ .
 زيدار : ٣٢ .
 نيفلنز : ٣٢٤٨ ، ٣٥٢ .
 نيقا : ٤٦ .
 نيقوبولس : ٣٣١ ، ٤٤٩ ، ٤٥٢ .
 نيقولا : ٣٥٧ .
 نيقوميديا : ٣ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ .
 نيقية : ٢ ، ٩ ، ١٨ ، ٥٥ ، ١٧٣ ، ١٨٠ ، ٢٤٧ ، ٤٤٤ ، ٤٤٥ .

٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ٢٢٧ .

هنرى تيودر : ٣٠٦ .

هنرى الثورنچى : ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

هنرى (دوق لانكستر) : ٣٢٩ .

هنرى الصياد : ١٣٦ ، ١٣٧ .

هنرى فلاندرز : ٢٤٧ .

هنرى الملاح (البرتغالى) : ٤٦٣ .

هوراس : ٢٧١ .

هولنڊة : ٣٢٧ .

هوميروس : ١٢ ، ١٧١ .

هوهنزولرن : ٢٠٢ .

هوهنشتاوفن : ١٤٠ ، ١٩٤ ، ١٩٥ .

٢٠٣ ، ٢٠٤ ، ٢٠٥ ، ٢٥٧ ، ٢٥٨ .

٢٦٠ ، ٢٦١ ، ٢٦٢ ، ٢٧٠ ، ٢٧٦ .

٤١٩ ، ٤٣٣ .

الطون : ٢١ ، ٢٢ ، ٢٩ ، ٣١ ، ٣٢ .

٥١ ، ٥٢ .

هونوريوس : ٢٣ ، ٢٩ ، ٣٢ .

الهيچونوت : ٣٦ .

هيستنجز (وقعة) : ١٦١ .

هيوگاييه : ١٥٨ .

هيوبرت دى بر : ٢٩٨ .

(و)

واليا : ٢٩ ، ٣٠ .

الوياء الاسود : ٣٢٥ .

وستمنستر : ٢٨٩ ، ٢٩٩ ، ٣٣٨ .

وكلف : ٣٢٩ ، ٣٤١ ، ٣٦٢ ، ٣٦٣ .

٣٦٥ ، ٣٦٦ ، ٣٦٧ ، ٣٧٠ ، ٣٧٢ .

٣٨٣ .

ولبرود : ٧٨ .

ولتر دى بريين : ٤٤٢ .

ولتر مرتون : ٢١٦ .

وليم اوكام : ٣٥٧ .

وليم (دوق نورمانديا) : ١٦٠ ، ١٦١ ،

١٦٢ ، ١٦٣ ، ١٦٤ ، ١٦٥ ، ١٦٧ .

وليم الفاتح : ٢٨٤ ، ٢٨٨ .

وليم ارشال : ٢٩٨ .

وليم الهولنڊى : ٢٥٨ ، ٢٦١ .

وليم ولاس : ٣٠٨ .

ونترل : ٣٤٥ ، ٣٧١ ، ٣٧٢ ، ٣٧٣ .

الوندال : ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٠ ، ٣٤ ، ٤٧ .

ونفرت - انظر بونيفاس .

ويلوكلند : ٩٢ .

(ى)

ياجيليون : ٤١٥ .

ياروسلاف : ٤٠٦ .

يثرپ : ٦٢ ، ٦٣ ، ٦٤ .

البنى شرية - انظر حاشية ١ : ٤٤٥ ، ٤٤٦ ،

٤٥٧ .

يواقيم القلورى : ٢٦٧ .

يوتروبيوس : ٢٣ .

يوجين الرابع (البابا) : ٣٧٩ ، ٣٨٠ ،

٣٨١ ، ٣٨٢ ، ٣٨٣ .

يوحنا (البابا الثانى والعشرون) : ٢٧٦ .

يورك : ٢٩ ، ٩٠ .

يوسف بن تاشفين : ٣٩٠ .

يوليوس قيصر : ٣٨ ، ٧٥ ، ٩١ ، ٩٢ .

اليهود : ٣٢٠ ، ٣٨٦ ، ٣٩٥ .

